

رسالة المؤلم

إسلامية ثقافية شاملة



٢٢

السنة السادسة . العدد الثاني والعشرون - ربيع الثاني ١٤٣١ هـ - مارس ٢٠١٠ م

اقرأ في كتاب

- ♦ مع الصادق عليه السلام .. في حوار مع أ. عبدالباقي الجزائري
- ♦ بين يدي الصادق عليه السلام
- ♦ الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب
- ♦ صادقنا عليه السلام مدرستنا
- ♦ ابن أبي الحديد بين الاعتزاز والتشييع
- ♦ رجال البحرين (خير أهل المشرق) (القسم الثاني)

Resalat Alqalam

رسالة القمر

إسلامية ثقافية شاملة

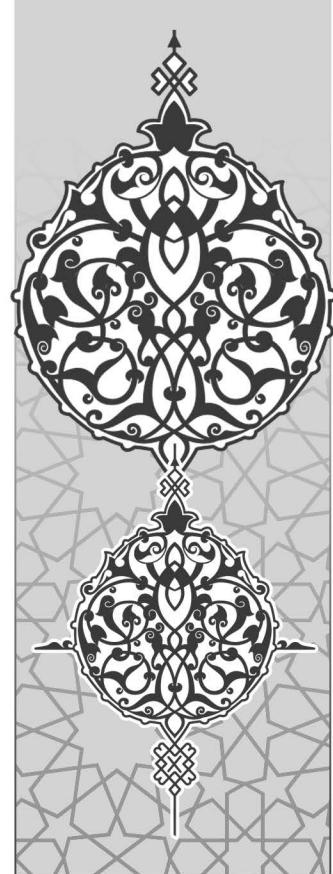
فصلية تصدر عن

طلاب البحرين في الحوزة العلمية

بمدينة قم المقدسة

برعاية

مكتب البيان للمراجعات الدينية



- المشرف العام والمدير المسؤول:
عبد الله علي الدقاقي
- رئيس التحرير:
عزيز حسن سلمان
- مدير التحرير:
عبد الرؤوف حسن الريبيع
- هيئة التحرير:
حسين علي أبو رويس
غازي عبد الحسن إبراهيم
محمد علي خاتم



- ٤ مع الصادق عليه السلام في مدرسته
في حوار مع الأستاذ عبد الباقي الجزائري
- ١٦ بين يدي الصادق عليه السلام
عيسى جاسم القفاص
- ٢٥ الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب
عزيز حسن سلمان
- ٣٨ صادقنا عليه السلام مدرستنا
قصي الشيخ علي العربي
- ٧١ بحث حول نشأة التشيع
صادق جعفر علي اللواتي
- ٨٠ ابن أبي الحديد بين الإعتزال والتشيع
حسن عبدالله القصاب
- ١٠٠ بحث في التوسل
أحمد محمود اللواتي
- ١٢١ رجال البحرين (خير أهل المشرق) (القسم الثاني)
محمد علي العربي
- ١٤٠ العرف ودوره في استنباط الحكم الشرعي (القسم الثاني)
عادل عبد الحسين الهناني
- ١٦٠ حجية ظواهر القرآن عند صاحب الحدائق
سعید جعفر حماد
- ١٨٤ مسألتان في القضاء عن الميت
علي فاضل الصدقي
- ١٩٤ تعريف... دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم



فانركب سفينة النجاة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ.
في البحرين المدار، والموج المتلاطم، والريح العاتية، ينشد قلب الفريق إلى
منجٍ، ويهدو إلى منقذٍ، ويبحث عن وسيلةٍ ناجعة، ويتشبث بالقلشة، وهو مع كلٍّ
ذلك قد استولى عليه الملعُ والأضطرابُ، وأمامَ الراكب للسفينة المنجية، فقد
استوى عنده البحرُ والبرُّ، لا يرُؤُه شيءٌ، ولا يشغلُه شيءٌ، مطمئنٌ النفسِ،
مرتاحٌ البال، والعاقلُ لا يدخل ذلك البحر إلا بمثيل تلك السفينة، فإذا ما كان في
تلك السفينة احتمالُ الغرق لضعفها أعرضَ عنها، وركبَ السفينة التي لا يشكُ
في صلابتِها وتحملها.

كلُّ هذا في بحرٍ من الماء، فكيف إذا كان البحرُ من النيران! وتلاطمتْ أمواجُ
الفتن والأهواء، وعتت المذاهبُ الفاسدةُ، وكان قائداً سفينَة النجاة ينادي
بأعلى صوته: «منزلةُ أهلِ بيتي فيكم كسفينةٍ نوحٍ، من ركبها نجا ومن تخلف عنها
غرق، تعلَّموا من عالمِ أهلِ بيتي، ومن تعلمَ من عالمِ أهلِ بيتي نجا».

ومنْ علماءِ أهلِ بيته عليهما السلام من ولدٍ في يومِ مولده، ولقبه بلقبه، ليقولَ
للناس: "قد بعثَ الصادقُ الأمينُ ثانياً، فإنْ شئتم النجاةَ من الغرق في بحرِ
الأهواءِ والفتنة، فهذه سفينةٌ نجاةٌ فاركبوها"، فتعالوا أيها المسلمين، ولنركب
سفينةَ النجاة.

رئيس التحرير

مح المأكِف عَلَيْهِ فِي مَدْرَسَتِه

في حوار مع الأستاذ عبد الباقي الجزائري

حاوره: جعفر سلمان طوق

نبذة مختصرة عن الأستاذ

كَه ولد الأستاذ عبد الباقي قرنه في الجزائر سنة ١٩٥٧ ميلادي، وكان على المذهب المالكي، وفي سنة ١٩٨٦ -وبسبب حادثة^(١)- بدأ بالبحث عن مذهب أهل البيت عليهما السلام وحقانيته، حتى وفقه الله تعالى للدخول فيه عن عقيدة راسخة، وقلب مطمئن، وبدأ نشاطه في الدفاع عن المذهب الحق. ومن نشاطاته في التلفزيون إدارة برنامج (حقائق من التاريخ) على قناة الكوثر.

من مؤلفاته: (قراءة في سلوك الصحابة) طبع سنة ٢٠٠٤، و(حياة معاوية) طبع سنة ٢٠٠٥، و(الذين في قلوبهم مرض) طبع سنة ٢٠٠٦، و(الوهمي وال حقيقي في سيرة عمر بن الخطاب) طبع سنة ٢٠٠٧. و(المغيرة بن شعبة) تحت الطبع.

❖ ما هي الخصائص العامة التي تميز مدرسة أهل البيت عليهما السلام الفقهية
مقابل مدارس العامة؟

□ بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، في البداية شكرًا لجلتكم المحترمة على إتاحة هذه الفرصة، كما أحياي قراءها والقائمين عليها.

في الحقيقة لا مجال للمقاييسة بين مدرسة أهل البيت عليهما السلام والتيارات الفكرية التي وجدت أيامها وبعدها؛ لأن مدرسة أهل البيت عليهما السلام أسسها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بنفسه، وأخبر الناس بأهميتها، ودعاهم إلى الاقتداء بها، وعدّها بالقرآن الكريم؛ فوظيفة المسلمين في كل زمان ومكان أن يقتدوا بهديها ويعملوا بتعاليمها، لا أن ينافسواها.

مدرسة أهل البيت مدرسة اصطفاء ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعُ عَلِيمٌ﴾^(٢)، ومحمد أشرف نبي وآله أشرف آل، وقد ورد تطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم في القرآن الكريم. وهذه المدرسة تستمد مددها من السماء، وقد شهد لها رسول الله بالأعلمية حين قال: «وَلَا تَعْلَمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مَنْ كُمْ». وهذا ما لا يستطيع أن يدعّيه أحد سوى آل محمد ﷺ.

ومن خصائص مدرسة أهل البيت ﷺ أيضا أنها لا تطلب العلم من عند أيٌّ كان، لأنَّ العلم الصحيح موجود عندها، ومنها رسول الله ﷺ وهي منه، وفي بيتها نزل القرآن الكريم وعندها تأويله وناسخه ومنسوخه، وهذا لم يثبت أنَّ أحد أئمة أهل البيت ﷺ رحل في طلب العلم إلى شيخ أو شيوخ، وعلى خلاف ذلك تماماً رحل الناس من كل الأمصار لطلب العلم لدى الإمامين الباقي والصادق علـيـهـاـ.

ومن خصائص هذه المدرسة أنها كانت معارضة صامدة في وجه المحاكمين، ولم تلتجأ إليهم يوماً من الأيام ولا كانت في خدمتهم، خلافاً لبعض المدارس التي تحالفت مع السلطة من أجل تثبيت مواقعها، واحتضنتها هذه الأخيرة، وتفاصيل ذلك موزعة في كتب التاريخ والسير والتراجم.

ومن خصائص هذه المدرسة أن النص عندها لم يتوقف بوفاة النبي ﷺ حتى تحتاج إلى اجتهادات المجتهددين، وإنما هي امتداد طبيعي للنبي ﷺ، فالإمام لدى مدرسة أهل البيت هو امتداد للنبي ﷺ، يؤخذ منه كما يؤخذ من النبي ﷺ،

والرّاد عليه راد على النّبِي ﷺ؛ نعم الذي توقف بتوقف حياة النّبِي ﷺ هو نزول القرآن الكريم، أمّا التّسديد والإلهام والنّكوت في القلب فلم يتوقف، ولو توقف لما تمت الحجّة في المتشابهات وأمثالها، لأنّ الحجّة لا تثبت إلّا باليقين، ومن كان كلامه مجرّد ظنٍّ فإنه لا تقوم به الحجّة.

ومن خصائص هذه المدرسة أنها تقول بعصمة النّبِي ﷺ والأئمّة من بعده، وعدّتهم عدّة نقباء بني إسرائيل، والاعتقاد بالعصمة يبعث على الطمأنينة وراحة البال، ويريح النفس من الشّكوك والوساوس.

❖ ما هي أهم المدارس المذهبية في عصر الإمام الصادق علّيّه السلام؟

□ في بداية عصر الإمام الصادق يمكن الحديث عن تيارات فكرية وفرق لم تتمايز لديها التوجهات العلمية (فقه وأصول وحديث وسيرة) بعد، فقد كان هناك خوارج ومرجئة ومعترزة وجبرية ومتصوفة وذهبية، وكان المتحدث الذي يروي ويروي عنه يخوض في القضايا العقدية الكلامية أيضاً، ويدلي برأيه في علم التفسير، فلم تكن العلوم قد تمايزت، وكان الحديث أهم شيء عندهم؛ نعم كانت معلم الرأي والقياس قد بدأت تتشكل وتتضح، وكان أبو حنيفة رائداً في الرأي والقياس، وكان له أصحاب وأتباع، لكن مدرسته لم تتكامل في حياته، وكذلك الشأن بالنسبة لمالك، وقد عاش كلا الرجلين في عهد الإمام الصادق وأخذوا عنه. وإذا عدنا إلى الفقهاء الذين عاشوا في زمان الإمام الصادق علّيّه السلام، فإنّ عددهم لا ينحصر في مالك بن أنس وأبي حنيفة النعمان، لكن متبنياتهم وأفكارهم بادت لأنّها لم تُحْتَضن لا من العامة ولا من المحكمين. ويمكن القول بأنّ عصر الإمام الصادق كان عصر تكون المذاهب الفقهية.

❖ ما هي مصادر علم الإمام عليه السلام؟

□ كما سبق أن ذكرت، فإن الإمام المعصوم يختلف عن أهل العلم غير المعصومين من حيثيات كثيرة، أولاًها أنه لا يرحل في طلب العلم، ولا يتعلم على أيدي الشيوخ الذين درسوا هم بدورهم على شيوخ الإمام المعصوم غير محجوب عن الحقائق حتى يحتاج إلى أن يدله غيره عليها، فهو مسدّد مؤيد معلم ملهم محدث، وأمثاله في القرآن لهم ذكر، فهذا وصيّ سليمان لم يُذكر أنه كاننبياً، ومع ذلك كان عنده علم من الكتاب، وذاك الرجل الصالح صاحب موسى في القصة المذكورة في سورة الكهف آتاه الله من العلم اللدنيّ، ولم يذكر صراحة أنه كاننبياً، وقد اتفق المفسرون أنه كان موسى عليه الصلاة والسلام وصيّ ولعيسى عليه الصلاة والسلام وصيّ، وهناك حديث في معجم الطبراني ينتهي إسناده إلى سلمان الفارسيّ وأبي سعيد الخدريّ يفيد أنه لكل نبيّ وصيّ فلا بدّ من وصيّ لنبينا محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه، وبما أن الرسالة قد ختمت فلا بدّ من استمرار الوصيّة وإلا انتهت إقامة الحجّة، فالإمام المعصوم هو أيضاً وصيّ، قد هيأ الله له من طرق العلم بحيث لا يحتاج إلى أحد ولا تخفي عليه مسألة. وبالنسبة إلى من لا يعتقدون بإمامته فإنه يحبّهم من القرآن الكريم والأحاديث التي صحت عندهم، ويلزّمهم بما أرzmوا به أنفسهم.

نعم، نجد الإمام يقول: حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدي، وحديث جدي حديث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه، وحديث رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه حديث جبريل، وحديث جبريل حديث الله تعالى، وهذا إسناد ليس له شبيه. والإمام لا يجتهد كما يجتهد غيره من المقدمات إلى النتائج؛ لأنَّ هذا شأن من يُحتمل فيه الخطأ والاشتباه، والإمام معصوم، فليس لديه مقدمات ونتائج وتواالٍ، وإنما عنده علم يرى الأمور كما

هي عليه. وقد كان هذا ظاهراً في سيرة الإمام علي عليه السلام. ولو كان الإمام يحب على طريقة المقدمات والتوالي لأجاب بعد التروي والتفكير، ولم يثبت أن إماماً من أئمة أهل البيت عليهما السلام كان يتربى ويفكر قبل الإجابة، بل كانت إجاباتهم عليهما السلام على سعتها ودققتها جوامع كلم يستفيد منها الصغير والكبير. وكانوا عليهم عالمين بما عندهم وما عند مخالفيهم ولم يكن كذلك شأن مخالفيهم.

وكان الإمام الباقر عليه السلام يقول لأصحابه ما مضمونه: إذا أخبرتكم الشيء فسلوني من القرآن الكريم. وهذا يعني أن علم أئمة أهل البيت عليهما السلام لم يكن فيه شيء ليس له شاهد من القرآن الكريم

❖ ما هي الظروف التي كان يعيشها الإمام علي عليه السلام؟

□ عاش الإمام الصادق عليه السلام في ظل أبيه الإمام الباقر عليه السلام في دولة بني أمية، أدرك من خلافة عبد الملك بن مروان ثلاث سنين، وشهد خلافة الوليد بن عبد الملك (تسعة سنين) وخلافة سليمان (ثلاث سنين) وخلافة عمر بن عبد العزيز (ستيني) وأشهرها) وخلافة يزيد بن عبد الملك (أربع سنوات) وخلافة هشام بن عبد الملك (عشرين سنة) وخلافة يزيد الوليد بن يزيد (سنة واحدة) وخلافة يزيد بن الوليد (ستة أشهر) والاضطرابات التي تلت ذلك في بيته الأموي إلى أن انقضت سنة ١٣٢ على يد العباسيين، وهذه فترة من أحلوك الفترات في تاريخ المسلمين، مورس فيها الضغط والأذى ضد أهل البيت وشيعتهم، باستثناء سنتي عمر بن عبد العزيز، لكن الأيام عبست في وجه الأمويين وأدارت لهم ظهر المجن، فانقلب بعضهم على بعض واضطربوا واقتتلوا وأآل أمرهم إلى زوال، فكان في ذلك الضعف الذي ناهم فرصة للإمام الصادق أن يفتح بيته لطلاب العلم ويروي حديث

جده عليهما السلام .

ولأن الدولة العباسية الجديدة كانت بحاجة إلى وقت لترسيخ بنائها والخلص من بقايا بنى أمية فإن الإمام الصادق عليه السلام وجد وقتاً للاستمرار في رسالته التعليمية ونشر معارف أهل البيت عليهما السلام، لكن وصول أبي جعفر المنصور الراوندي إلى الحكم عجل بتغيير الأجواء وتعكيرها، وجعل الإمام الصادق تحت المراقبة، ومحاولة التضييق عليه مع التظاهر باحترامه، إلى أن اغتاله بالسم سنة ١٤٨. لقد عاش الإمام ظروفاً صعبة لكنه بحكمته وصلته بالله تعالى تمكن من مماشتها والتأقلم مع الأحداث والواقع حتى أدى ما عليه، ولم يستطع المنصور أن يوقف مسيرته التي بقيت آثارها إلى اليوم، ولا يزال العالم يكتشف الإمام الصادق يوماً بعد يوم.

❖ ما هي ملامح جامعة الإمام عليه السلام وأبرز تلامذته؟

□ لو كان الإمام الصادق عليه السلام في أيامنا لصح أن يقال عن جامعته إنها جامعة عالمية، وذلك لعدة أسباب:

منها أنها كانت مقصودة من مختلف الأمصار المهمة في ذلك الوقت: الكوفة والبصرة والشام واليمن ومصر.. ومدرسة تكون مقصودة بهذا الشكل، وهي غير ممولة من طرف الدولة، بل معدودة في المعارضة، لا بد أن تحتوي وتتضمن ما لا يوجد لدى غيرها؛ وقد ذكروا أنه عليه السلام كان يكرر كلام جده الإمام علي عليه السلام: «سلوني قبل أن تفقدوني، فإنه لا يحدثكم أحد بعدي بمثل حديثي»^(٣)، وحال أن يتحدث غيره بهذا الكلام صادقاً.

ثم إنَّ مدرسة الإمام الصادق عليه السلام كانت مطلعة على كل العقائد والأراء والأفكار السائدة يومها. وقد اهتم الإمام عليه السلام في مدرسته بمناظرة أهل العقائد الضالة

والآراء المنحرفة، ومواجهه الزنادقة والملحدين بقوة وفضح مدّعيتهم، والتتصدي لردّ شبهات أهل الكتاب وكشف أحوال الفرق الشاذة، دون أن يشغله هذا كلّه عن مواجهة الحكم الظلمة على القدر الذي تسمح به الظروف. ومن أبرز تلامذته الذين كانوا ينشرون فقهه وما اتصل به من العقائد والآراء: حمran بن أعين، وزرارة بن أعين ومؤمن الطاق (محمد بن النعمان) وهشام بن سالم، وقيس الماسر، وهشام بن الحكم الذي كان قد تنقل بين كثير من العقائد والآراء قبل أن يستقر به الأمر عند الإمام علّي عليه السلام، حمزة الطيار، وكثير من نهلوا من علم الإمام ووظفوا أنفسهم لنشره. أما الذين رووا حديثه علّي عليه السلام فيعدون بالآلاف. كما أن من تلامذة الإمام الصادق علّي عليه السلام كانوا يحضرون درسه ولا يأتون به، وخالفوه في كثير من القضايا فيما بعد: مالك بن أنس، وأبو حنيفة النعمان، وقد أصبح كل واحد منها فيما بعد رئيساً مذهب فقهى انتشر فيسائر أقطار الأرض.

❖ ما هو دور الإمام علّي عليه السلام في تثبيت النظرية القرآنية الصحيحة (الأمر بين الأمرين نموذجاً)؟

□ هذه مسألة عقدية إيمانية جاءت بعد أن كاد الجبر والتفويض يعصفان بعقائد المسلمين إلا من رحم ربك. وقد كان القول بالجبر والتفويض على حد سواء - يصب في مصلحة المحكمين، لذلك فإنهم وإن لم يشجعوا على ذلك علينا و مباشرة فإنهم سكتوا عن الدعاة إلى ذلك، وتركوهم يصلون ويجلون، وفي ذلك ما فيه من الخطر على عقائد المسلمين. وبما أن أقوال الإمام علي عليه السلام بهذا المخصوص كانت منوعة الذكر في زمن بنى أمية، فإنَّ التطرق إلى القضية لم يتح بسهولة إلا عند ضعف الدولة الأموية واحتلال أفرادها بعضهم البعض في زمن الصادقين علّيهم السلام. ولما كان

القول بالجبر يصبّ في مصلحة الأمويين فإنَّ القائلين به لم يكونوا يخشون أحداً أو يتسترون في كلامهم. كما أنَّ القول بالتفويض أيضاً يتسبب في شبهات حول إرادة الله وقدرته وكونه كل يوم هو في شأنٍ. وللإمام الكاظم عَلَيْهِ الْكَلَمُ قصَّةٌ في هذا الباب ترفع الشك عن كل متحير في المسألة. قال السيد محمد حسين الطباطبائي في كتابه الشيعة في الإسلام صفحة ١١٥:

”في النتيجة، إن مثل هذا الفعل الذي يرتبط بإرادة الله تعالى ضروري، والإنسان أيضاً مختار فيه، أي أنَّ الفعل يعتبر ضرورياً بالنسبة إلى مجموع أجزاء عمله، ولكنه اختيار وممكن بالنسبة إلى أحد أجزائه وهو الإنسان. والإمام السادس عَلَيْهِ الْكَلَمُ، يقول: «لا جبر ولا تقويض بل أمر بين أمرين».

والخوض في المسألة أكثر من هذا القدر من شأن المتخصصين.

❖ ما هي أهم المضامين التي جاءت في وصية الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ لعنوان البصري^(٤)؟

□ وصية الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ لعنوان البصري، هي في الحقيقة وثيقة تربوية صالحة للصغير والكبير، لو استفاد منها المسلمون في منظوماتهم التربوية لما كان في حياتهم اليوم شيءٌ من هذا الإرهاب الذي جعل أصابع الاتهام تشير إليهم أينما كانوا. هذه الوصية تذكر الإنسان بما حُلِقَ لأجله، وتحذره من تضييع الوقت فيما لا طائل بعده، وهي على قصرها أشبه بعهد الإمام علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ لمالك الأشتر مع ما بين الوصيتين من الاختلاف في الموضوع. فتلك وصية للمرشد السالك، وعهد الإمام علي عَلَيْهِ الْكَلَمُ وصية للحاكم الذي يريد أن يحكم بالعدل ويجري الأمور على ما يرضي الله تعالى.

وصية الإمام جعفر بن محمد عليهما السلام لعنوان البصري لم تتضمن الأمر بطلب آلاف الأحاديث وتتابع الناسخ والمنسوخ والمطلق والمقييد، وإنما وجهت الرجل إلى إصلاح جوهره الذي إذا صلح صلح العبد نهائياً، وإذا لم يصلح لم ينفع معه علم الأولين والآخرين. وفي تصوري أن المنظومات الدراسية والتربوية في بلدان المسلمين بحاجة إلى هذه الوصية حاجة الظمآن إلى الماء، لأنَّ المعالم التربوية الموجودة فيها لا تتطلب عناً ولا ميزانية، وهي خطاب مباشر إلى القلب، لا يمحى عنها شيء، وأروع ما فيها أنها صالحة لكل زمان ومكان، يستوي فيها الملك والسوقة إذا حسُن فهمها وتأكد الصدق في قبول ما فيها والعزم على تطبيقها. وقد كانت خاتمة الوصية رسالة موجهة إلى أهل العلم، يفلح من عمل بها ويحسن من تجاهلها، فقد قال عليهما السلام: «وأما اللواتي في العلم: فسائل العلماء ما جهلت، وإياك أن تسألم عن عتنا وتجربة، وإياك أن تعمل برأيك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا هروبك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً. قم عني يا أبا عبد الله فقد نصحت لك، ولا تفسد علي وردي، فاني امرؤ ضئين بمنفسي، والسلام على من اتبع المدى».

❖ ماذا نستفيد من وصية الإمام عليهما السلام بالصلوة عند فراقه الدنيا؟

□ روى أبو بصير عن أصحاب الإمام قال: دخلت على أم حميده (زوجة الإمام جعفر الصادق عليهما السلام) أعزتها بأبي عبد الله عليهما السلام فبكت وبكيت لبكائها، ثم قالت: يا أبا محمد لو رأيت أبا عبد الله عليهما السلام عند الموت لرأيت عجباً، فتح عينيه، ثم قال: «اجعوا كل من بيته وبينه قرابة». قالت: فما تركنا أحداً إلا جمعناه، فنظر إليهم ثم قال: «إن شفاعتنا لا تناول مستخفا بالصلوة»^(٥).

هذه الرواية لا تحتاج إلى شرح وبيان؛ لأنَّ وضوحها ليس بعده وضوح، وهي

بكل اختصار تقيم الحجّة على المستخفين بالصلوة، الذين يطمعون أن يكون حبُّ أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام شافعاً لهم وإن أهملوا الواجبات، والحقّ من يكون اعتقاده على هذا النحو بعيد جداً عن خطٍّ ومدرسة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام، كما أن دعوه حبُّ أهل البيت مجرد دعوى لا أكثر، إذ أنه لو فكر وأمعن النظر لتبيّن له أنّ أئمة أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَام ضحوا بأنفسهم لأجل إقامة الدين، والصلوة عمود الدين، فكيف يدعّي ولاهُم من جهة، ثم يخرب ما بنوه من جهة أخرى.

لقد كان الإمام علي عَلَيْهِمُ السَّلَام يصلي صلاة الليل والسهام تمر بين يديه ليلة الهرير، كما أن صلاة الإمام الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَام يوم عاشوراء لا يزال يرددتها قراء المقتل والخطباء جيلاً بعد جيل، ولقد صلت زينب سلام الله عليها صلاة الليل من جلوس في نفس الليلة التي قُتلت فيها الحسين عَلَيْهِمُ السَّلَام، فكيف يسمح مؤمن عاقل بعد هذا كله أن يستخف بأمر الصلاة؟! أليس زائر الأئمة يقول في زيارته: أشهد أنّك أقمت الصلاة وآتيت الزكاة.. أيكون صادقاً في شهادته هذه إذا كان هو مهماً لها متهاوناً بها؟ وصية الإمام الصادق عَلَيْهِمُ السَّلَام حجّة على كل من تساهل وتهانٌ بأمر الصلاة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المواهش:

(١) في نهاية سنة ١٩٨٦ كان الأستاذ في طريقه إلى الهند ليتحقق بـ ((دار العلوم ندوة العلماء)) الجامعة الدينية الكبيرة التي اشتهرت بمدرسین متضلعین في العلوم وحربيصین على نفع الطلبة. ولأنّه تعرّف الحصول على التأشيرة عن طريق العواسم الأوروبيّة بسبب التفجيرات المنسوبة إلى جورج عبد الله يومها فقد تعين السفر من الطريق الآخر أي اعتماد مسار -إيران- باكستان- الهند.

وفي سوريا - وبالضبط في حي السيدة زينب سلام الله عليها - كانت المفاجأة التي غيرت مجرى حياة الأستاذ عبد الباقي وفتحت أمامه نافذة جديدة للاطلاع على عالم القيم والسعى في مرضاة الله رَبِّ الْعَالَمِينَ.

كان تصور الكاتب لمذهب أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ حين وصل إلى دمشق هو نفس ما يحمله كل مخالف لهم يستقي معلوماته عنهم من طرف خصومهم من أمثال ابن تيمية وابن كثير والذهبي... لذلك لم يهتم بأمرهم حين رأى آلاف الزوار الإيرانيين يقصدون المرقد الشريف، ولم يحاول أن يقرأ عنهم شيئاً من جهتهم، باعتبار أنّ شيوخ السلف قد كفوه مؤونة ذلك، ولم يكن يهمه البحث في هذا الموضوع لأنّه كان أشبه بتحصيل الحاصل. وتعزّف - في انتظار الحصول على التأشيرة - على شباب من الجامعيين من المغرب العربي وكان من بينهم شيعة دار بينه وبينهم حديث في المذاهب الإسلامية لم يصل إلى نتيجة. وذات مساء لحت عيناه في إحدى المكتبات كتاباً أحسن بالانجذاب إليه والظاهر أنّ سرّ الانجذاب يكمن في أنّ عنوان الكتاب كان له صلة بالنقاش الذي جرى بيته وبين الطلبة، إضافة إلى روح التسامح التي انطوى عليها العنوان قياساً بالعنوانين التي يختارها ابن تيمية ومن على خطّه. كان عنوان الكتاب "الإمام الصادق والمذاهب الأربع" للمرحوم أسد حيدر. وأخذ الأستاذ عبد الباقي الكتاب وشرع في تصفّحه.

يبدأ المرحوم أسد حيدر كتابه بذكر سبب التأليف، والسبب باختصار هو أنه وجد في تاريخ ابن خلدون عبارة يتأنّى لسماعها كلُّ صاحب ضمير، لأنّها تعبر عن سلوك عدائٍ قبال من أمر المسلمين بمحبّتهم وموذّتهم والصلة عليهم في كل نافلة و فريضة. فابن خلدون يقول: "وَشَدَّ أهل البيت بذهابه ابتدعواها وفقه انفردوا به وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقديح وعلى قولهم بعصمة الأنّمّة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كلها أصول واهية" ويردّ أسد حيدر عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على ابن خلدون بكتاب في ثلاثة مجلّدات، يفتّد فيها زعمه ويستشهد بما لا يدفعه إلا مكاير. كان الأستاذ عبد الباقي حين قراءة الكتاب على مذهب مالك، كما هو شأن جميع أبناء المغرب العربي، وابن خلدون من فقهاء المالكية، وقد كان قاضي قضاة في زمانه ومات وهو على القضاء، ولكن، هل هذا يخوّل له أن يردّ مُحْكِم القرآن الكريم؟! كيف سمحت له نفسه أن يسمّي المطهّرين شاذين؟! ولو أنه قال: "وَشَدَّ أتباع أهل البيت" لكان في سعة من أمره، لكنه قال: "وَشَدَّ

أهل البيت" فنسب الشذوذ إلى من طهره الله تعالى، وفي هذا من الغفلة عن تدبر القرآن الكريم ما لا يخفى، وعلماء المسلمين لا يختلفون في موقفهم من يكذب شيئاً من القرآن الكريم آيةً فما فوقها.. هنا كانت لحظة التأمل التي غيرت مجرى حياة الأستاذ عبد الباقي قرنـه، وجعلته يعيد النظر في ما ورثه من تراث لا يبالي أصحابه بتكييف القرآن الكريم انتصاراً منهم لشيوخهم ومذهبـهم، وكانت البداية وكانت بعدها أطفال إلهـية وأسرار ربانية يشير إليها قوله تعالى:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾.

من يومها أحس الأستاذ عبد الباقي قرنـه، أنّ في ذمته أن يحاول جهد ما يستطيع أن يعرف الناس بما تعرف عليه هو، وأن يجعل من ذلك شغله الشاغل، وهدفه الأسـى في هذه الحياة الدنيا، ليسير على درب من قال فيهـنـ المولـي تـعـاذـلـهـ: ﴿الَّذِينَ يَلْفَغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهُ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾.

(٢) آل عمران، ٣٣-٣٤.

(٣) راجـعـ الـبحـارـ، جـ٤٧ـ، صـ٣٣ـ، وـتهـذـيبـ الـكمـالـ لـلـمـزـيـ، جـ٥ـ، صـ٧٩ـ، وـتـذـكـرـةـ الـحـفـاظـ لـلـذـهـبـيـ، جـ١ـ، صـ١٦٦ـ،

(٤) ذكر هذه الوصـيـةـ المـجـلـسيـ فيـ الـبـحـارـ، جـ١ـ، صـ٢٢٤ـ، وـمـاـ جـاءـ فـيـهـ: «... أـوـصـيـكـ بـتـسـعـةـ أـشـيـاءـ فـيـهـاـ وـصـيـيـتيـ لـمـرـيـديـ الطـرـيقـ إـلـىـ اللـهـ تـعـالـىـ وـالـلـهـ أـسـأـلـ أـنـ يـوـقـعـكـ لـاـسـتـعـمـالـهـ ثـلـاثـةـ مـنـهـاـ فـيـ رـيـاضـةـ النـفـسـ وـثـلـاثـةـ مـنـهـاـ فـيـ الـحـلـمـ وـثـلـاثـةـ مـنـهـاـ فـيـ الـعـلـمـ فـاـحـظـهـاـ وـإـيـاكـ وـالـهـاـوـنـ بـهـاـ قـالـ عـنـوـانـ فـفـرـغـتـ قـلـبـيـ لـهـ قـفـالـ أـمـاـ اللـوـاتـيـ فـيـ الـرـيـاضـةـ فـإـيـاكـ أـنـ تـأـكـلـ مـاـ لـاـ شـشـهـيـهـ فـإـنـهـ يـوـرـثـ الـحـمـاـقـةـ وـالـبـلـهـ وـلـاـ تـأـكـلـ إـلـاـ عـنـدـ الـجـوـعـ وـإـذـاـ أـكـلـتـ فـكـلـ حـلـالـاـ وـسـمـ اللـهـ وـأـذـكـرـ حـدـيـثـ الرـسـوـلـ صـمـاـ مـاـ آـدـمـيـ وـعـاءـ شـرـاـ منـ بـطـنـهـ فـإـنـ كـانـ وـلـاـ بـدـ فـتـلـثـ لـطـعـامـهـ وـثـلـثـ لـشـرـابـهـ وـثـلـثـ لـنـفـسـهـ وـأـمـاـ اللـوـاتـيـ فـيـ الـحـلـمـ فـمـنـ قـالـ لـكـ إـنـ قـلـتـ وـاحـدـةـ سـمـعـتـ عـشـرـاـ قـلـلـ إـنـ قـلـتـ عـشـرـاـلـمـ تـسـمـعـ وـاحـدـةـ وـمـنـ شـتـمـكـ قـلـلـ لـهـ إـنـ كـنـتـ صـادـقاـ فـيـمـاـ تـقـولـ فـاسـأـلـ اللـهـ أـنـ يـعـفـرـ لـيـ وـإـنـ كـنـتـ كـادـباـ فـيـمـاـ تـقـولـ فـالـلـهـ أـسـأـلـ أـنـ يـعـفـرـ لـكـ وـمـنـ وـعـدـكـ بـالـخـنـاـ فـعـدـهـ بـالـتـصـيـحـةـ وـالـرـعـاءـ وـأـمـاـ اللـوـاتـيـ فـيـ الـعـلـمـ ...».

(٥) الـوـسـائـلـ، جـ٣ـ، صـ٧١ـ.

بَيْنِ يَدَيِ الْمَاحِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ

عيسي جاسم القفاص

كَبَّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِينَ وَاللَّعْنُ
الْدَّائِمُ الْمُؤْبَدُ عَلَى أَعْدَائِهِمْ أَجْمَعِينَ إِلَى قِيَامِ يَوْمِ الدِّينِ، أَقْفَ في هَذَا الْبَحْثِ عَلَى
بعضِ الْمَسَائِلِ الْمُتَفَرِّقَةِ مُسْتَلِهِمَا مِنْ سِيرَةِ وَأَقْوَالِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ الَّذِي مَلَأَتْ
أَنْوَارَ كَلْمَاتِهِ الْخَافِقَيْنَ وَأَبْهَرَتْ سِيرَتَهُ الْمَبَارَكَةُ الْأَوَّلَيْنَ وَالآخَرَيْنَ، ذَلِكَ الْمُوَحَّدُ الْمُشَفِّعُ
لِرَبِّ الْصَّادِقِ فِي الْعِقِيدَةِ وَالْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، حَتَّى جَاءَتْ تَسْمِيَتُهُ بِأَمْرِ السَّمَاوَاتِ بِالْصَّادِقِ
«إِذَا وَلَدَ ابْنَيْ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ بْنَ عَلَيْ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ عَلَيْ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَسَمَّوْهُ الصَّادِقَ»
كَمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامِ (١)، ذَلِكَ الْمُعْتَصَمُ بِرَبِّهِ حَقُّ الْعَصْمَةِ الْمُتَعَلِّقُ بِرَبِّهِ الْمُتَوَكِّلُ
عَلَيْهِ حَتَّى اتَّخَذَ خَاتَمَ الْمُرْسَلِينَ مُنْقَوْشًا عَلَيْهِ (اللَّهُ وَلِيُّ وَعَصْمَتِي مِنْ خَلْقِهِ) كَمَا رُوِيَ عَنْ
الرَّضَا عَلَيْهِ السَّلَامُ (٢)، ثُمَّ مَنْ ذَا يَصْفُ الْإِمَامَ!

الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ والإيثار

مِنْ أَبْرَزِ صَفَاتِ أَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الْإِيَّاَتُ الْمُتَضَرِّبةُ فِي أَمْوَالِ الدُّنْيَا، وَمَا وَرَدَ فِي هَذَا الْمَحَاجِلِ
عَنِ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرٌ جَدًا مِنْهُ مَا رُوِيَ عَنْ أَبِي الْهَيَاجِ بْنِ بَسْطَامٍ قَالَ: «كَانَ
جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ يَطْعَمُ حَتَّى لَا يَبْقَى لِعَيْلَاهُ شَيْءٌ»^(٣) وَعَنْ ابْنِ بَكِيرٍ عَنْ بَعْضِ
أَصْحَابِهِ قَالَ: «كَانَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ رَجُلًا أَطْعَمَنَا الْفَرَانِيَّ وَالْأَخْبَصَةَ، ثُمَّ يَطْعَمُ الْخَبِزَ وَالْزَّيْتَ،
فَقَلَّ لَهُ: لَوْ دَبَّرْتُ أَمْرَكَ حَتَّى يَعْتَدِلَ فَقَالَ: إِنَّمَا تَدْبِرُنَا مِنَ اللَّهِ إِذَا وَسَعَ عَلَيْنَا وَسَعَنَا وَإِذَا
قَتَرَ قَتَرَنَا»^(٤) وَغَيْرُهُمَا مِنِ الرِّوَايَاتِ الْكَثِيرَةِ.

الإيثارُ فِي أَمْوَالِ الدُّنْيَا وَالتَّصْدِيقُ بِالْمَالِ عَلَى الْمُحْتَاجِ وَالتَّفَانِيُّ فِي خَدْمَةِ الْمُؤْمِنِينَ

من أبرز آثار الزهد في الدنيا وعدم التعلق القلبي بها، ومن أبرز آثار معرفة قيمة وعظم هذا العمل - الإيثار وخدمة المؤمنين -؛ فإن من يتعلق قلبه بالدنيا بالله وب بيته وأثاثه وسيارته ... يعسر عليه أن يؤثر أخيه المؤمن عند الحاجة، سيما إذا كان هو في حاجة إليها أيضا، وإن فكم هم المؤمنون المكتفون ماليا الذين يجدون الفضل في أموالهم وكم هم المحتجون الذين يعيشون العسر والمرج في المعيشة، فلماذا لا يؤثر المؤمن أخيه! السبب الرئيس هو الحرص الناشئ من التعلق بهذه الدنيا الزائلة، كم من المؤمنين يرى بعض الضعفاء لا يملكون سيارة ولا تطوعه نفسه أن يشتري لأخيه سيارة! وكم من المؤمنين يملك من فاضل المال ما يمكنه أن يسد شهريا قيمة أجرة سكن جيد، ويرى أخيه المؤمن يضج من ضيق السكن ولا يجد له يد العون! وكم وكم... وتراه يذهب ليشتري بهذا المال بعض الكماليات التي لا توجب له في الدنيا إلا مزيد تعلق بها وانشغال عن الله، فيشتري الهاتف الجديد والأثاث الفاخر والسيارة الجميلة في الوقت الذي يملك كل ما يسد حاجته ويناسب شأنه من هذه الأمور، وأخوه المؤمن يلاقي الأمررين! كل هذا من آثار حب الدنيا، وما يؤسف له أن هذا المرض موجود حتى في أوساط المتدلين!! عن الإمام الكاظم عليه السلام في وصف العاقل «وفضل ماله مبذول»^(٥).

الإمام الصادق عليه السلام - وكل أهل البيت عليهما السلام - كانوا أعظم مصداق للإيثار، بل إن مواقفهم في الإيثار معجزة عظيمة تكشف عن صفاء نفسي عظيم وحب للخير لا نظير له، وزهد في الدنيا لا يتصور، مما معنـى أن يعطي الإمام عليه السلام (حتى لا يبقى لعياله شيء) لا يبرر عدم العطاء بأنه يحتاج أن يحسن ظروفه ويعدها (لو دبرت أمرك حتى يعتدل!) هذا المنطق منطق الذين لا يؤمنون بالغيب، الذي يقول دعني أدبـر أمري أولا ثم أنظر إلى غيري، أما منطق المؤمن المؤثر الزاهد، قدم غيرك وآثره

يتکفل الله بأمرک، وکم نبرر نحن لأنفسنا عندما نجد الحاجة ونجد عندنا فضل المال، يأتي الشیطان إلى أحدنا ويلقنه بألف تبرير والإنسان على نفسه بصیرة).

اللعن والبراءة والحب والولاء

عن بشار المکاري قال: «دخلت على أبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَوْفَةُ بالکوفة وقد قدم له طبق رطب طبرزد وهو يأكل فقال: يا بشار ادن فکل فقلت: هناك الله، وجعلني فداك، قد أخذتني الغيرة من شيء رأيته في طریقی! أوجع قلبي، وبلغ مني فقال لي: بحکی لما دنوت فأكلت قال: فدنت فأكلت فقال لي: حدیثک قلت: رأیت جلوaza يضرب رأس امرأة، ويسوقها إلى الحبس وهي تنادي بأعلى صوتها: المستغاث بالله ورسوله، ولا يغيثها أحد قال: ولم فعل بها ذلك؟ قال: سمعت الناس يقولون إنها عشرت فقالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة فارتکب منها ما ارتکب. قال: فقطع الأكل ولم يزل يبكي حتى ابتل منديله، ولحيته، وصدره بالدموع، ثم قال: يا بشار قم بنا إلى مسجد السهلة فندعوا الله عَزَّوجلَّ ونسأله خلاص هذه المرأة قال: ووجه بعض الشيعة إلى باب السلطان، وتقدم إليه بأن لا يبرح إلى أن يأتيه رسوله فإن حدث بالمرأة حدث صار إلينا حيث كنا قال: فصرنا إلى مسجد السهلة، وصلى كل واحد منا رکعتين، ثم رفع الصادق عَلَيْهِ الْكَوْفَةُ يده إلى السماء وقال: أنت الله - إلى آخر الدعاء - قال: فخر ساجدا لا أسمع منه إلا النفس ثم رفع رأسه: فقال: قم فقد أطلقت المرأة. قال: فخرجنا جميعا، فبينما نحن في بعض الطريق إذ لحق بنا الرجل الذي وجهناه إلى باب السلطان فقال له عَلَيْهِ ما الخبر؟ قال: قد أطلق عنها قال: كيف كان إخراجها؟ قال: لا أدری ولكنني كنت واقفا على باب السلطان، إذ خرج حاجب فدعاهما وقال لها: ما الذي تكلمت؟ قالت: لعن الله ظالميك يا فاطمة، ففعل بي ما فعل قال:

فأخرج مائتي درهم وقال: خذني هذه واجعلني الأمير في حل، فأبانت أن تأخذها، فلما رأى ذلك منها دخل، وأعلم صاحبه بذلك ثم خرج فقال: انصرف إلى بيتك فذهبت إلى منزلاً. فقال أبو عبد الله عليه السلام: أبت أن تأخذ المائتي درهم؟ قال: نعم وهي والله محتاجة إليها قال: فأخرج من جيبيه صرة فيها سبعة دنانير وقال: اذهب أنت بهذه إلى منزلاً فأقرنها مني السلام وادفع إليها هذه الدنانير قال: فذهبنا جميعاً فأقرنها منه السلام فقالت: بالله أقرأني جعفر بن محمد السلام؟ فقلت لها: رحمك الله، والله إن جعفر بن محمد أقرأك السلام، فشقت جيبيها ووقيعت مغشية عليها قال: فصبرنا حتى أفاق، وقالت: أعدناها على، فأعدناها عليها حتى فعلت ذلك ثلاثة ثم قلنا لها: خذني! هذا ما أرسل به إليك، وأبشرني بذلك، فأخذته منا، وقالت: سلوه أن يستوهد أمته من الله فما أعرف أحداً توسل به إلى الله أكثر منه ومن آبائه وأجداده عليه السلام. قال: فرجعنا إلى أبي عبد الله عليه السلام فجعلنا نخدشه بما كان منها، فجعل يبكي ويدعوا لها، ثم قلت: ليت شعري متى أرى فرج آل محمد عليهما السلام؟ قال: يا بشار إذا توفى ولدك وهو الرابع من ولدي في أشد البقاع بين شرار العباد، فعند ذلك يصل إلى ولد بي فلان مصيبة سواء، فإذا رأيت ذلك التفت حلق البطان ولا مرد لأمر الله»^(١).

هذه القصة فيها من المواقظ الكثير، فإنها طافحة بآثار الولاء والحب والتبرير والبغض، ومن هذه المواقظ:

(١) أن الإمام علي عليه السلام ربى أصحابه على أن يهتموا بأمور المظلومين من الناس وأن يعيشوا حالة الحزن والألم لما يجري عليهم من ظلم، حتى يصل بأحدهم الأمر أنه لا يرحب في الطعام "قد أخذتنِي الغيرة من شيء رأيته في طريقي! أوجع قلبي، وبلغ مني" ولم تكن هذه التربية بالقول فحسب وإنما كانت تربية بالسلوك على أساس «كونوا دعاة لنا بغير أستكم» فإنه عندما أخبر الإمام علي عليه السلام بالحدث أخذ يبكي بكاء

شديدا، لما عرف مما جرى على تلك المرأة الموالية ولما تذكر من مصاب جدته الصديقة، والأمر في ذلك أن الظلم الذي وقع على هذه المرأة بسبب لعن قتلة فاطمة فما أشدت من موقف مؤلم!

(٢) أن الإمام عليه السلام لم يكتف بالتألم وإظهار الحزن وإنما سعى مباشرة بخطوة علمية ليعين هذه المسكينة المظلومة في دار التقى والضيق، فخرج ليدعوا لها في مكان مستجاب الدعاء، فإنه لم يكن في يده أكثر من هذا في ظرف التقى والحرج، وأرسل من يتربّق أحوالها، وأمره أن يخبره بما يفعل بها.

(٣) إن هذه المرأة التي تكشف هذه الرواية عن عظيم منزلتها ولولتها وعشيقها لأهل البيت عليهما السلام كانت تلعن ظالمي أهل البيت عليهما السلام، ولم يستنكر الإمام عليهما السلام فعلها، بل ربما فهم من أجواء الرواية استحسان الإمام عليهما السلام ذلك الفعل، وقد يستفاد ذلك من بعض الروايات، ففي الكافي عن محمد بن يحيى، عن محمد بن الحسين، عن محمد بن إسماعيل بن بزيغ، عن الخبرير، عن الحسين بن ثوير، وأبي سلمة السراج قالا «سمعنا أبو عبد الله عليهما السلام وهو يلعن في دبر كل مكتوبة أربعة من الرجال وأربعا من النساء فلان وفلان وفلان ومعاوية ويسميهم فلانة وفلانة وهند وأم الحكم أخت معاوية»^(٧) وفي رواية أخرى: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن محمد بن حكيم وحمد عن أبي مسروق قال: سألني أبو عبد الله عليهما السلام عن أهل البصرة، فقال لي: ما هم؟ قلت: مرجئة وقدرية وحرورية فقال: «لعن الله تلك الملل الكافرة المشاركة التي لا تعبد الله على شيء»^(٨) وروى أيضاً محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن مروك بن عبيد، عن رجل، عن أبي عبد الله عليهما السلام قال: «لعن الله القدرية، لعن الله الخوارج، لعن الله المرجئة، لعن الله المرجئة...»^(٩) وروى الكليني عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن أبي جعفر البغدادي، عن رواه، عن أبي

عبد الله عليه السلام قال: قال: «لعن الله قاطعي سبل المعروف، قيل: وما قاطعوا سبل المعروف؟ قال: الرجل يصنع إلية المعروف فيكرهه فيمتنع صاحبه من أن يصنع ذلك إلى غيره»^(١٠) وغيرها من الروايات الكثيرة.

(٤) أن الإمام الصادق عليه السلام - وجميع أهل البيت عليه السلام - قد ربووا شيعتهم على المقاطعة مع الظالم والانفصال عنه، فانظر لهذه المرأة المحتاجة عندما جاء لها بالمال الكثير من عند ذلك الظالم لم تقبله مع أنها كانت في حاجة إليه، فلماذا لم تقبله يا ترى؟ لأنها قد تربت في مدرسة الإمام الصادق عليه السلام وأهل البيت عليهما السلام الذين نهونا عن الأخذ من عطايا الظلمة لكي لا تقوى شوكتهم ولا ترتفع وحشتهم ولا تكون لهم المنة على المؤمنين ولا يصلوا إلى مآربهم ...^(١١).

الإمام الصادق عليه السلام واشتياقه للقائم عليهما السلام

للإمام الصادق عليه السلام خطابات كثيرة يبدي فيها اشتياقه للقائم من آل بيت محمد، ويلاحظ من هذه الخطابات بشكل واضح لغة العشق والشوق والحزن والألم لفراق يوسف أهل البيت عليهما السلام، منها ما روي:

عن سدير الصيرفي قال: «دخلت أنا والمفضل بن عمر، وأبو بصير، وأبان بن تغلب على مولانا أبي عبد الله الصادق عليه السلام فرأيناه جالسا على التراب وعليه مسح خيري مطوق بلا جيب، مقصر الكمين، وهو يبكي بكاء الواله الشكلي، ذات الكبد الحري، قد نال الحزن من وجنته، وشاع التغيير في عارضيه، وأبلى الدموع مجريه وهو يقول: سيدني غيتك نفت رقادي، وضيقتك علي مهادي، وابتزت مني راحة فؤادي سيدني غيتك أوصلت مصابي بفجائع الأبد وقد الواحد بعد الواحد يفنى الجموع والعد، فما أحس بدموعة ترقى من عيني وأنين يفتر من صدري عن دوارج الرزايا وسوانف البلايا

إلا مثل بعيري عن غواير أعظمها وأفطعها، ويوافي أشدّها وأنكرها ونواتب مخلوطة بغضبك،
ونوازل معجونة بسخطك.

قال سدير: فاستطارت عقولنا لها، وتصدعت قلوبنا جزعاً من ذلك الخطب
الهائل، والحادث الغائل، وظننا أنه سمت لمكر وتهة قارعة، أو حلّت به من الدهر بائقة،
فقلنا: لا أبكي الله يا ابن خير الورى عينيك، من أية حادثة تستنزف دمعتك
وتسنمطر عبرتك؟ وأية حالة حتمت عليك هذا المأتم؟

قال: فزفر الصادق عليه السلام زفراً انتفخ منها جوفه، واشتد عنها خوفه، وقال:
ويلكم نظرت في كتاب البغر صبيحة هذا اليوم وهو الكتاب المشتمل على علم المنايا
والبلايا والرزايا وعلم ما كان وما يكون إلى يوم القيمة الذي خص الله به محمداً والأئمة
من بعده عليهما السلام، وتأملت منه مولد غائبنا وغيته وإبطاءه وطول عمره وبلوى المؤمنين في
ذلك الزمان، وتولد الشكوك في قلوبهم من طول غيته وارتداد أكثرهم عن دينهم،
وخلعهم رقيقة الإسلام من أنعاقهم....».^(١٢)

انظر أيها المولى إلى شوق إمامك عليه السلام للقائم من آل محمد عجل الله له الفرج،
وفتش في قلبك، فهل ترى في قلبك شوقاً وحباً له تقدمه على كل شيء؟ هل تحبه
أكثر أم تحب دنياك أكثر، تحبه أكثر أم تحب شهرتك، أموالك، نساءك، راحتكم أكثر؟
فتتش جيداً، إذا كان سلام الله عليه يشغل بالك وتفكيرك وقلبك أكثر من أمور
الدنيا من الشهرة والسمعة والمكانة الاجتماعية والأموال واللذات وراحة البال فأنت
تحبه أكثر، أما إذا كانت هذه الأمور أكثر حضوراً في قلبك فإنك تحبها أكثر منه، لأن
الحب لشيء يشغل قلبه ولبه، إن أكثرنا -ويا للأسف واللوامة- تشغله أمور
الدنيا أكثر مما يشغل قلبه إمامه ورضا إمامه عليه السلام، وربما لبس الشيطان على بعضنا
بأن صور له بعض أمور الدنيا من أمور الآخرة، فتراه يجد في تحصيل علوم الدين

مثلاً ظناً منه أن ذلك لرضا إمامه عليه السلام، ولكن لو فتش جيداً القبض على نفسه متلبسة بجريمة حب الجاه والسمعة والمكانة و... فهذا يكون من أمور الدنيا في الحقيقة والواقع وإن رأى الناس من أمور الآخرة وما يصبُّ في رضا إمام الزمان عجل الله له الفرج، ربما شغل قلب أحدنا فقره وضيق معيشته أكثر مما يشغله التفكير في مصيبة الغيبة وطوها، وكثرة ما يعاني الإمام عليه السلام من الحزن وال المصائب، وربما شغل قلب أحدنا التفكير في الجاه أو المنصب أكثر من تفكيره في إرضاء الإمام عليه السلام في خدمة الدين، وربما شغل قلب أحدنا التفكير في درسه وتدريسيه أكثر مما يشغله التفكير في ذنبه التي تؤدي الإمام عليه السلام، كذلك من آثار الشجرة الخبيثة والمرض الفتاك «حب الدنيا».

إمامنا الصادق عليه السلام بهذا السلوك، سلوك العشاق الواهلين يريد أن يعلمنا منطق الحب الحقيقي، فلم يشغل قلبه تفكير في جاه أو مال أو منصب أو نساء أو... وإنما أخذ بجماع قلبه ذلك الولي الذي يجسد مظاهر أسماء الله في أرضه والذي يسعد به كل البشر في الدين والدنيا، فهلا أخرجنا من قلوبنا حب الدنيا وأبدلناه بحب المولى.
والحمد لله رب العالمين.

المواهش:

- (١) بحار الأنوار: ج ٧٤ باب (أسماءه وألقابه وكناه، وعللها، ونقش خاتمه، وحليلته) الحديث الثاني.
- (٢) المصدر السابق: الحديث الأول.
- (٣) المصدر السابق: ج ٤٧ الباب الرابع: الحديث ٢٦.
- (٤) بحار الأنوار: ج ٤٧ الباب الرابع: الحديث ٢٢.
- (٥) أصول الكافي: كتاب العقل والجهل: الحديث ١٢.
- (٦) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ٣٨٠.

- (٧) الكافي: ج ٣: باب التعقيب والدعاء بعد الصلاة.
- (٨) الكافي: ج ٢ باب الكفر الحديث ١٣.
- (٩) الكافي: ج ٢ باب صنوف أهل الخلاف: الحديث ١.
- (١٠) الكافي: ج ٤ باب من كفر المعروف الحديث ١.
- (١١) قال السيد الإمام عليه السلام في تحرير الوسيلة، ج ١، كتاب الأمر بالمعروف: مسألة ٥: لو كان في رد هدايا الظلمة وسلطين الجور، احتمال التأثير في تخفيف ظلمهم أو تخفيف تجربتهم على مبتدعاتهم، وجوب الرد، ولا يجوز القبول، ولو كان بالعكس لابد من ملاحظة الجهات وترجيح الجانب الأهم كما تقدم.
- مسألة ٦: لو كان في قبول هداياهم تقوية شوكتهم وتجربتهم على ظلمهم أو مبتدعاتهم يحرم القبول، ومع احتمالها فالأحوط عدم القبول، ولو كان الأمر بالعكس تجب ملاحظة الجهات وتقديم الأهم.
- (١٢) كمال الدين وقام النعمة: ٣٥٢.

الإمام الصادق عليه السلام وأصحاب المذاهب

عزيز حسن سلمان

كذلك بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم صل على محمد وآل محمد، بعد رحيل المصطفى عليهما السلام وبسبب إبعاد أمير المؤمنين عليهما السلام عن إدارة الدولة الإسلامية وقيادتها، بدأ بعض أصحاب النبي عليهما السلام بتبني بعض الآراء الشخصية في مختلف المجالات الدينية ومنها المجال الفقهي، لأهداف مختلفة، وكلما ابتعد الزمان عن عصر الرسول عليهما السلام كثرت الاجتهادات حتى أصبحت بعض الآراء تنسب إلى شخصيات مختلفة من أصحاب النبي عليهما السلام والتابعين، وازداد الحال في زمن الإمام الصادق عليهما السلام، وكانت الحكومات خصوصاً حكومة المنصور لعمره تدعم بعض هذه المذاهب لأغراض سياسية غير معلنة، والمهدف الرئيس هو إبعاد الناس عن الإمام الصادق عليهما السلام الذي ذاع صيته في الآفاق، ومُلئت الأمصار بذكره وذكر مدرسته العظمى في المدينة المنورة.

ولا يخفى أنَّ الزَّمْنَ الَّذِي عَاشَ فِيهِ الْإِمَامُ الصَّادِقُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ زَمْنًا عَصِيبًا مِّنْ نَوَاحٍ عَدَّةٍ، فَرَغَمَ مَا يُقَالُ مِنْ أَنَّ سَبَبَ تَأْسِيسِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ لِجَامِعَتِهِ الْعَظِيمَةِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنُورَةِ هُوَ انشغالُ الْأَمْوَيِّينَ وَالْعَبَاسِيِّينَ بِالْحَرُوبِ وَالْفِرَارِ عَلَى السُّلْطَةِ وَالْمَلْكِ، إِلَّا أَنَّ هَذَا لَا يَعْنِي إِغْفَالُهُمُ الْإِمَامَ عَلَيْهِ السَّلَامَ وَتَرْكُهُ لِحَالَهُ، لِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي نَظَرِهِمْ يَمْثُلُ الْخَطَرَ الْأَوَّلَ عَلَى سُلْطَانِهِمْ، وَالْفَتَرَةِ الَّتِي تُرِكَ فِيهَا الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَحَالَهُ لَيْسَتْ فَتَرَةً طَوِيلَةً، وَالْمَلَاحِظُ لِحَيَاةِ الْإِمَامِ عَلَيْهِ السَّلَامِ يَتَبَيَّنُ لَهُ ذَلِكَ بِوَضُوحٍ^(١).

إنَّ أَحَدَ الأَسْبَابِ الْمُهِمَّةِ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا نُشِرَ الْإِمَامُ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِلْمُهُ، هُوَ انتشار

المذاهب المختلفة الكثيرة في زمانه، بالإضافة إلى كثرة وجود الملحدين والزنادقة والمشككين في الإسلام، وهذا كان أيضاً في زمن الإمام الباقر عليه السلام، ولكن ازداد الأمر بشكل واضح في زمن الإمام الصادق عليه السلام، فما كان من الإمام إلا أن تصدّى لذلك بواسطة نشر علوم أهل البيت عليه السلام، فكان آية عظمى من آيات الله تعالى، وحجة على الناس أجمعين، وما استطاع أحد من العلماء أن يبطلوا هذه الآية الإلهية، أو أن يقفوا قبل هذه الحجة الربانية.

مذهب الإمام عليه السلام أولى بالاتباع

ورغم ابتعد الناس عن المذهب الحق وعن أئمة المهد وإنكارهم فضلهم عليه السلام، واتباعهم للسلطان الجائر الذي كان يحارب كل شيء يتصل بأهل البيت عليه السلام، فإن نور الإمامة والعصمة الذي ملأ الآفاق جعل هؤلاء الناس يعترفون بأنهم لا شيء، وأنهم عيال لذلك النور، وأنهم بامس الحاجة لتلك المدرسة الحمديّة، فهذا عليه القوم ورؤوس علمائهم يتذلّلون أمام عظمة الإمام عليه السلام ويخضعون له بكل جوارحهم حيث لا يسعهم غير ذلك، وتشهد بذلك كتب القوم، نكتفي بذكر ثلاثة من أهم علمائهم:

أبو حنيفة صاحب المذهب الحنفي

روى ابن عدي والذهبي والمزي عن حسن بن زياد أنه قال: "سمعت أبا حنيفة وسئل: من أفقه من رأيت؟ فقال: ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن محمد، لما أقدمه المنصور الحيرة، بعث إلى فقال: يا أبا حنيفة، إن الناس قد فتنوا بجعفر بن محمد فهيه له من مسائلك الصعب، قال: فهيات له أربعين مسألة، ثم بعث إلى أبو جعفر فأتيته بالحيرة، فدخلت عليه وجعفر جالس عن يمينه، فلما بصرت بهما دخلني لجعفر من

الهيبة ما لم يدخل لأبي جعفر، فسلمت، وأذن لي، فجلسست، ثم التفت إلى جعفر، فقال: يا أبا عبد الله تعرف هذا؟ قال: نعم، هذا أبو حنيفة، ثم أتبعها: قد أثنا، ثم قال: يا أبا حنيفة؟ هات من مسائلك، نسأل أبا عبد الله، وابتداً أسأله، وكان يقول في المسألة: أنتم تقولون فيها كذا وكذا، وأهل المدينة يقولون كذا وكذا، ونحن نقول كذا وكذا، فربما تابعنا وربما تابع أهل المدينة، وربما خالفنا جميعاً حتى أتيت على أربعين مسألة ما أخرم منها مسألة، ثم قال أبو حنيفة: أليس قد روينا أن أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس^(٢). وهذه شهادة من أبي حنيفة بأفقية الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ وعلميته، وهو الذي يحتم على من يقبل بذهب أبي حنيفة أن يقبل بذهب أستاذه على أقل التقدير.

وقال عبد الحليم الجندي: انقطع أبو حنيفة إلى مجالس الإمام طوال عامين قضاهما بالمدينة، وفيهما يقول (لولا العامان لهك النعمان)، وكان لا يخاطب صاحب المجلس إلا بقوله (جعلت فداك يا ابن بنت رسول الله)^(٣). وسيأتي في رواية أنه كان يخاطب الإمام متذلاً وهو يقول: «بأبي أنت وأمي».

مالك بن أنس صاحب المذهب المالكي

من الثابت تارينخياً عند الجميع كون مالك من تلامذة الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ، ونقل الذهبي أنه: "لم يرو مالك عن جعفر حتى ظهر أمر بني العباس. قال مصعب: كان مالك يضمه (أي الحديث) إلى آخر"، وهذا يعني أن مالك كان من تلامذة الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ من عهد الأمويين، وكان يستخدم التقنية في نقل الحديث عن الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ. وكلماته في حق الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ لا تقصّر عما تقدم من أبي حنيفة، فقد نقل عنه قوله: "ما رأيت عيّني أفضل من جعفر بن محمد فضلاً وعلماً وورعاً، وكان لا يخلو من إحدى ثلاثة خصال: إما صائماً، وإما قائماً، وإما ذاكراً، وكان من عظماء البلاد وأكابر الزهاد الذين

يخشون ربهم، وكان كثير الحديث، طيب المجالسة، كثير الفوائد، فإذا قال: قال رسول الله، أخضر مرة واصفر أخرى^(٤).

سفيان الثوري

وهو من كبار علمائهم في ذلك الزمان، ومن تلامذة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، روى الذهبي: قال الخليل بن أحمد: سمعت سفيان الثوري يقول: قدمت مكة فإذا أنا بأبي عبد الله جعفر بن محمد قد أناخ بالأبطح، فقلت: يا ابن رسول الله، لم جعل الموقف من وراء الحرم؟ ولم يصير في المشعر الحرام؟ فقال: الكعبة بيت الله، والحرم حجابة، والموقف بابه. فلما قصده الواقدون، أوقفهم بالباب يتضرعون، فلما أذن لهم في الدخول، أدناهم من الباب الثاني وهو المزدلفة، فلما نظر إلى كثرة تضرعهم وطول اجتهدتهم رحهم، فلما رحهم، أمرهم بتقريب قربانهم، فلما قربوا قربانهم، وقضوا تفthem وتطهروا من الذنب التي كانت حجابا بينه وبينهم، أمرهم بزيارة بيته على طهارة. قال: فلم كره الصوم أيام التشريق؟ قال: لأنهم في ضيافة الله. ولا يجب على الضيف أن يصوم عند من أضافه. قلت: جعلت فداك بما بال الناس يتعلّقون بأسنار الكعبة وهي خرق لا تنفع شيئاً؟ قال: ذاك مثل رجل بينه وبين رجل جرم، فهو يتعلّق به، ويطوف حوله رجاء أن يهب له ذلك، ذاك الجرم^(٥).

والمتأمل في هذه الرواية يرى أن الأسئلة التي وجهها سفيان الثوري للإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ تكشف عن اعتقاده بعلم الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ الغزير والموروث من النبي ﷺ، خصوصا وأنه لم يعرض على جواب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما هو الوجه في السؤال عن علل الأحكام من هو عالم عادي لا يتميز عن غيره، بل مثل هذه الأسئلة لا توجه إلا للمعصومين عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. إضافة إلى أنه كان يخاطب الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ بقوله: (جعلت فداك).

ثم إن عدد تلامذة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يحصون وقد اشتهر أنهم أربعة آلاف عالم،

وعلى كل حال، إن بروز الإمام عليه السلام من بين أولئك العلماء وتفوقه عليهم في العلم والعمل، بل واستصغر أولئك العلماء لأنفسهم في حضرة الإمام عليه السلام (والصاديق كثيرة لا يسع المجال لذكرها) لمن أقوى الأسباب التي تجعل من الواجب على المسلمين اتباع هذا الإمام (حتى عند من لا يعتقد بعصمته عليه السلام).

وبدلاً من جعل مذهب الإمام عليه السلام أحد المذاهب جعلوا مذهبـه من المذاهب الشاذة، كما تجراً ابن خلدون وهو يستعرض المذاهب فقال: "وَشَدَّ أَهْلُ الْبَيْتِ بِمَذَاهِبِهِ ابْتَدَعُوهَا، وَفَقِهَ انْفَرَدُوا بِهِ، وَبَنَوْهُ عَلَى مَذَهِبِهِمْ، فِي تَنَاوِلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ بِالْقَدْحِ، وَعَلَى قَوْلِهِمْ بِعَصْمَةِ الْأَئْمَةِ، وَرَفَعَ الْخِلَافَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ، وَهِيَ كُلُّهَا أَصْوَلُ وَاهِيَّ"^(٦). وهذا الكلام إنما هو نتيجة الحقد الدفين، ولا أدرى لماذا كل هذا؟

موقف الإمام عليه السلام من المذاهب الفاسدة

إن سياسات الدولة آنذاك وحافظاً على مصالحها كانت تقتضي أن تضغط على أي شخصية تمتل خطاً عليها، ولم تكن شخصية الإمام الصادق عليه السلام هي الوحيدة التي تتعارض مع مصالح الدولة، ولكن كان عليه السلام يمثل الخطر الأكبر على الخلافة المغضوبـة لأنه هو الأحق بها، والناس متعاطفون معه لشهرته وعلمه وقربـه من النبي صلوات الله عليه وآله. لذلك فالإمام عليه السلام ولأجل حفظ دمه من الظالم كان يستخدم التقيـة، ليس في الأمور السياسية فقط، بل حتى في الأمور الدينية الفقهية، لأنه كان لها صلة بالسياسة، مما يعني أن الجهر بها قد يسبب خطراً على الإمام عليه السلام في بعض الأحيـان. ولكن هذا لا يعني أن يترك الإمام عليه السلام الحبل على الغارب، ويبقى أصحاب الآراء الفاسدة يلعبون بعقول الناس ويحرفون دين الله تعالى دون رادع من أحد.

فكان الإمام عليه السلام وهو الذي يقول: «**كُونُوا دُعَاءً لِلنَّاسِ بِغَيْرِ الْسُّتُّوكِمْ**»^(٧) قد اخذ

طريقاً غير مباشر في التصدي لتلك الآراء والاجتهادات المنحرفة، وذلك من خلال بشه لعلوم أهل البيت عليهما السلام بشكل عملي، وتوجيهه أنظار الناس إليه من خلال مدرسته الكبرى، فإنَّ أول رسالة أرسلها الإمام علي عليهما السلام إلى الناس هي أن العلم الصحيح -علم رسول الله عليهما السلام- لا يوجد إلا هنا، ولا يمكن الوصول إليه إلا من خلال هذه المدرسة، وكل علم يؤخذ من غيرها فهو باطل وزخرف ليس له قيمة ولا اعتبار.

ولذلك نرى كثيراً من العلماء والفقهاء في ذلك الوقت ومن مختلف المذاهب والمعتقدات يفتخرن بانتسابهم إلى تلك الجامعة، كما كان يفتخر الصحابي أنه أخذ عن الرسول الأكرم عليهما السلام.

الدعوة لتابع أهل البيت عليهما السلام

وقد كانت هناك بعض التصريحات للإمام علي عليهما السلام في الدعوة إلى مذهب أهل البيت عليهما السلام كقوله عليهما السلام: «**مخلsson وتحديثون؟** قلت نعم، قال: تلك المجالس أحبها، فأحیوا أمرنا. رحم الله من أحیى أمرنا، يا فضيل: من ذكرنا أو ذكرنا عنده فخرج عن عينيه مثل جناح الذباب غفر الله له ذنبه ولو كانت أكثر من زيد البحر»^(٨). ومن ضمن أمرهم عليهما السلام هو الجانب الفقهي والأحكام الشرعية، وهذه الكلمة الصريحة من الإمام علي عليهما السلام، وإن كان ظاهرها هو الدعوة إلى مذهب أهل البيت عليهما السلام فحسب، دون التعرض للمذاهب الأخرى، إلا أن باطنها يدل على ذلك أيضاً، فإن إحياء أمر أهل البيت عليهما السلام هو إمامة لأمر غيرهم من يعارضونهم سواء في العقيدة أو في الفقه.

وقوله عليهما السلام في حديث آخر: «**حديث أبي، وحديث أبي حدث جدي، وحديث جدي حدث الحسين، وحديث الحسين حدث الحسن، وحديث الحسن حدث**

أمير المؤمنين عليه السلام وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله عليه وآله وصحبه وحدث رسول الله قوله «الله ينزلن»^(٩). ظاهره أن الإمام عليه السلام يريد فقط أن يطمئن من يأخذ عنه أن ما يحدثه هو حديث النبي عليه وآله وصحبه ولم يخترعه من عنده، أي أنه عليه السلام يريد أن يدفع عن نفسه تهمة الوضع، ولكن هذا التفسير غير صحيح على إطلاقه، لأنَّ الإمام عليه السلام كان معروفاً ومشهوراً بالصدق والورع عند العام والخاص، ولم يكن أحد يتحمل في الإمام عليه السلام هذا الاحتمال البعيد.

إذن هناك أمر آخر يريد الإمام عليه السلام أن يبيّنه للناس، وهو أن غيري من العلماء الذين يفتون الناس، متهمون في آرائهم وأحاديثهم، وأن الطريق إلى النبي عليه وآله وصحبه من غير أهل البيت عليه السلام طريق غير نظيف، فكل ما يتقوه به أحد من الفقهاء الآخرين وهو معارض لفقة الإمام عليه السلام فهو مكذوب على النبي عليه وآله وصحبه، لأنَّ علم النبي عليه وآله وصحبه عند الإمام عليه السلام.

وعن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله عليه وآله وصحبه: «إنَّ كلَّ بدعة تكون من بعدي يُكادُ بها الإيمانُ ولِيَا من أهل بيتي موكلًا به يذهب عنه، ينطق بإلهام من الله ويعلن الحق وينوره، ويرد كيد الكاذبين، يعبر عن الضعفاء فاعتبروا يا أولي الأ بصار وتوكلوا على الله»^(١٠).

ومن مواقفه أيضاً هو أمره لبعض تلامذته المعروفين بالتشيع كزرارة أن يجلسوا في المسجد ويفتوا الناس.

موقفه من مدرسة الرأي والقياس

وهناك موقف خاص من الإمام عليه السلام وهو موقفه من مدرسة الرأي والقياس، التي كان يترأسها أبو حنيفة في الكوفة. ونحن نقسم موقف الإمام عليه السلام من هذه

المدرسة إلى قسمين؛ قسم عام وقسم خاص.

القسم العام: وهو الذي لا يختص بشخصية معينة من أهل الرأي والقياس، فقد كانت للإمام عليه السلام كلمات عديدة يصرح فيها بوقفه تجاه هذا المسلك، فمن ضمن كلماته عليه السلام:

١- قوله لأبان بن تغلب: «إن السنة لا تقاد، ألا ترى أن امرأة تقضي صومها ولا تقضي صلاتها! يا أبان: إن السنة إذا قيست حمق الدين».

٢- «إن أصحاب المقاييس طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعده، وإن دين الله لا يصاب بالمقاييس».

٣- عن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ترد علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله ولا سنة فننظر فيها؟ فقال: لا، أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله ببروك»^(١).

٤- عن محمد بن حكيم، قال: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن قوماً من أصحابنا قد تفهوا وأصابوا علماً ورووا أحاديث غير دليلاً عليهم الشيء ف يقولون فيه برأيهم؟ فقال: لا، وهل ذلك من مضى إلا بهذا وأشباهه!؟»^(٢).

٥- عنه عليه السلام: «في كتاب أدب أمير المؤمنين عليه السلام قال: لا تقيسوا الدين فإن أمر الله لا يقاس، وسيأتي قوم يقيسون وهم أعداء الدين»^(٣).

٦- وفي رسالة طويلة له عليه السلام جاء فيها: «أما بعد فإنه من دعا غيره إلى دينه بالارتباط والمقاييس لم ينصف ولم يصب حظه....، فمن طلب ما عند الله بقياس ورأي لم يزد من الله إلا بعده، ولم يبعث رسولاً قط وإن طال عمره قابلاً من الناس خلاف ما جاء به حتى يكون متبعاً مرة وتابعاً أخرى، ولم ير أيضاً فيما جاء به استعمل رأياً ولا مقاييساً حتى يكون ذلك واضحاً عنده كالوحى من الله، وفي ذلك دليل لكل ذي لب وحجى أن

أصحاب الرأي والقياس مخطئون مدحضون، وإنما الاختلاف فيما دون الرسل لا في
الرسـل»^(١٤).

الموقف الخاص: وهو موقف الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ من أبي حنيفة زعيم أهل الرأي
والقياس، فهناك مواقف كثيرة جداً تظهر فيها حدة الإمام عَلَيْهِ السَّلَامُ في موقفه من أبي
حنيفـة، ونـحن نذكر هنا بعضـها:

عن عيسى بن عبد الله القرشي قال: «دخل أبو حنيفة على أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ
فقال له: يا أبي حنيفة! بلغـني أنـك تقـيس؟ قال: نـعم قال: لا تقـس فإنـ أول من قـاس إبـليس
 حين قال: خـلقتـني من نـار وخلـقـته من طـين، فـقـاسـ ما بـيـن النـار وـالـطـين، وـلو قـاسـ نـورـيـة آـدم
بنـورـيـة النـار عـرـفـ فـضـلـ ما بـيـن النـورـيـنـ، وـصـفـاءـ أحـدـهـما عـلـى الـآـخـرـ»^(١٥). وهـنا تـعرـيـضـ
واضحـ بأـبي حـنـيفـةـ أـنهـ باـتـبـاعـهـ الـقـيـاسـ يـكـوـنـ مـتـبـعـاـ لـأـبـلـيـسـ. بلـ فيـ روـاـيـةـ أـخـرىـ
يـقـولـ الإـمـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ لـأـبـي حـنـيفـةـ: «يـاـ نـعـمـانـ إـيـاكـ وـالـقـيـاسـ إـنـ أـبـيـ حـدـثـيـ، عـنـ آـبـائـهـ، أـنـ
رـسـوـلـ اللـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ قـالـ: مـنـ قـاسـ شـيـئـاـ مـنـ دـيـنـ بـرـأـيـهـ قـرـنـهـ اللـهـ مـعـ إـبـلـيـسـ فـيـ النـارـ، فـإـنـ أـوـلـ
مـنـ قـاسـ حـيـنـ قـالـ: خـلـقـتـنيـ مـنـ نـارـ وـخـلـقـتـهـ مـنـ طـينـ، فـدـعـواـ الرـأـيـ وـالـقـيـاسـ، وـمـاـ قـالـ قـوـمـ
لـيـسـ لـهـ فـيـ دـيـنـ بـرـهـاـنـ، فـإـنـ دـيـنـ اللـهـ لـمـ يـوـضـعـ بـالـأـرـاءـ وـالـمـقـايـسـ»^(١٦).

وقـالـ عـلـيـهـ السـلـامـ أـيـضاـ: «يـاـ نـعـمـانـ هـلـ تـخـسـنـ تـقـيسـ رـأـسـكـ؟ قـالـ لـاـ، قـالـ فـمـاـ أـرـاكـ تـخـسـنـ
تقـيسـ شـيـئـاـ وـلـاـ تـهـتـدـيـ إـلـاـ مـنـ عـنـدـ غـيرـكـ...»^(١٧). وـواضحـ أـنـ أـسـلـوـبـ الإـمـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ فـيـهـ
استـهـزـاءـ بـأـبـيـ حـنـيفـةـ.

وـفيـ وـاقـعـةـ أـخـرىـ نـرـىـ الإـمـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ يـعـرـضـ عـنـ أـبـيـ حـنـيفـةـ وـيـتـجـاهـلـهـ لـأـخـذـهـ
بـالـقـيـاسـ، فـقـدـ روـيـ أـنـهـ أـفـتـيـ أـبـوـ حـنـيفـةـ غـلامـ فـتـوـيـ تـخـالـفـ فـتـوـيـ الإـمـامـ عـلـيـهـ السـلـامـ، يـقـولـ
الـراـوـيـ: «فـقـمـتـ إـلـيـهـ فـقـلتـ: وـيـلـكـ يـاـ أـبـيـ حـنـيفـةـ إـنـ كـنـتـ الـعـامـ حـاجـاـ فـأـتـيـتـ أـبـاـ
عـبـدـ اللـهـ عـلـيـهـ السـلـامـ مـسـلـمـاـ عـلـيـهـ فـوـجـدـتـ هـذـاـ غـلامـ يـسـتـفـتـيـهـ فـيـ هـذـهـ الـمـسـأـلـةـ بـعـيـنـهـاـ

فأفناه بخلاف ما أفتته، فقال: وما يعلم جعفر بن محمد أنا أعلم منه، أنا لقيت الرجال وسمعت من أفواههم، وجعفر ابن محمد صحفي أخذ العلم من الكتب! فقلت في نفسي: والله لأحجن ولو حبوا. قال فكنت في طلب حجة، فجاءتنى حجة فحججت، فأتيت أبا عبد الله عليه السلام فحكيت له الكلام فضحك، ثم قال^(١٨): أما في قوله إني رجل صحفي فقد صدق قرأت صحف آبائِي إبراهيم وموسى، فقلت: ومن له بمثل تلك الصحف؟ قال: فما لبست أنْ طرَقَ البابَ طارقُ وكان عنده جماعة من أصحابه فقال الغلام: انظر من ذا، فرجع الغلام فقال: أبو حنيفة، قال ادخله فدخل فسلم على أبي عبد الله عليه السلام فرد عليه، ثم قال أصلحك الله أتأذن في القعود؟ فأقبل (أي الإمام عليه السلام) على أصحابه يحدّثهم ولم يلتفت إليه، ثم قال الثانية والثالثة فلم يلتفت إليه، فجلس أبو حنيفة من غير إذنه، فلما علم أنه قد جلس التفت إليه فقال: أين أبو حنيفة؟ فقيل هو ذا أصلحك الله، فقال أنت فقيه أهل العراق؟ قال نعم، قال: بما تفتهم؟ قال: بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب الله حق معرفته وتعرف الناسخ والمنسوخ؟ قال نعم، قال: يا أبا حنيفة لقد ادعيت علماً، ويلك ما جعل الله ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين انزل عليهم، ويلك ولا هو إلا عند الخاص من ذرية نبينا عليه السلام ما ورثك الله من كتابه حرفاً، فإن كنت كما تقول ولست كما تقول فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿سِرُوا فِيهَا لَيَالِيٍّ وَآيَامًاٍ مِّنِينَ﴾ أين ذلك من الأرض؟....»^(١٩). ومثل هذا الإعراض حصل لعبد الله بن شبرمة أيضاً وهو أحد فقهاء العامة في ذلك الزمان^(٢٠).

وفي رواية أخرى تبين أنَّ أبا حنيفة كان يخشى من عدم إذن الإمام عليه السلام له بالدخول، فقد روی عن عبد الرحمن بن أبي ليلى أنه قال: «قال لي أبو حنيفة: أحب

أن أدخل إلى هذا الرجل فأسلم عليه، ي يريد جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، وأسئلته وأخاف أن لا يأذن لي قال عبد الرحمن بن أبي ليلي فقلت له: أخلق به إن علم بعكانتك أن لا يأذن لك، ولكن كن معي فإن أذن لي دخلتَ معي، قال: قضينا إلى بابه فقلت لغلامه: اقرأه السلام وقل له: عبد الرحمن بن أبي ليلي ورجل من أهل الكوفة، قال: فرجع إلينا بالإذن فدخلنا عليه فرحب بنا وقرب حتى إذا اطمأننا أقبل علي قال: من هذا الرجل؟ فقلت: بأبي أنت وأمي أبو حنيفة فقيه أهل الكوفة قال: فأقبل عليه فقال: أنت النعمان بن ثابت؟ قال: نعم، بأبي أنت وأمي، قال: أنت الذي تقيس الدين برأيك؟ قال: بأبي أنت وأمي إنما أقول ذلك في النازلة أو الحادثة تحدث ليس لها في كتاب الله خبر ولا في سنة رسول الله(ص) ولا في إجماع عليه. قال: فتبسم ثم قال: ويحك يا نعمان ما لم يكن له في كتاب الله ولا في سنة رسول الله ولا في إجماع المسلمين ولا في خبر المتصل حجة فقد زال عنك حكمه ووضع عنك فرضه فلم تتكلف لم تؤمر، ويحك يا نعمان إياك والقياس فإن أهل القياس لا يزالون في التباس الخ»^(٢١).

وفي هذه الرواية نرى صغر أبي حنيفة وهو كالعصفور أمام عظمة الإمام عليه السلام. ولعل السبب في هذا الموقف الحازم من الإمام عليه السلام لمدرسة القياس بما لم يواجه به مدرسة الحديث، هو ما تمثله مدرسة الرأي والقياس من خطر كبير على الدين، فإن أصحاب مدرسة الحديث وإن كانوا منحرفين عن الصراط المستقيم إلا أن أحاديث النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه والآيات القرآنية كانت إلى حد ما مقدسة عندهم، وأما أصحاب مدرسة الرأي فإنهم ضربوا الآيات والروايات عرض الجدار، واقتصرت على آرائهم وعقولهم الفاسدة، فينقل ابن حبان (م ٣٥٤) (وهو صاحب أحد الصحاح) عن يوسف بن أسباط قال: قال أبو حنيفة: "لو أدركني رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلامه لأخذ بكثير من قولي، وهل

الدين إلا الرأي الحسن”^(٢٢)، وقال في كتابه المجموعين ص ٦٣ واصفاً أبي حنيفة: ”كان رجلاً جدلاً ظاهر الورع لم يكن الحديث صناعته، حديث بمائة وثلاثين حديثاً مسانيد ماله حديث في الدنيا غيرها، أخطأ منها في مائة وعشرين حديثاً. إما أن يكون أقرب إسناده أو غير متنه من حيث لا يعلم، فلما غلب خطئه على صوابه استحق ترك الاحتجاج به في الأخبار، ومن جهة أخرى لا يجوز الاحتجاج به لأنَّه كان داعياً إلى الإرجاء والداعية إلى البدع لا يجوز أن يحتاج به عند أئمتنا قاطبة لا أعلم بينهم فيه خلافاً”. وهذا قليل فيما نقل عن أبي حنيفة، ومن أحب التوسيع فليراجع الكتاب المذكور في ترجمة أبي حنيفة.

والحمد لله رب العالمين.

المواهش:

- (١) في الكافي ج ١، ص ٥٣، «عن محمد بن الحسن بن أبي خالد شيبونلة قال: «قلت لأبي جعفر الثاني عَلَيْهِ الْكَفَافُ: جعلت فداك إن مشايخنا رروا عن أبي جعفر وأبي عبد الله عَلَيْهِ الْكَفَافُ وكانت النقية شديدة، فكتموا كتبهم ولم ترو عنهم فلما ماتوا صارت الكتب إلينا فقال: حدثوا بها فإنها حق».
- (٢) الكامل لعبد الله بن عدي (م ٣٦٥)، ج ٢، ص ١٣٢، سير أعلام النبلاء للذهبي (م ٧٤٨)، ج ٦، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ وكذلك في تاريخ الإسلام، ج ٩، ص ٨٩ - ٩٠، وتهذيب الكمال للمزني (م ٧٤٢)، ج ٥، ص ٧٩ - ٨٠.
- (٣) الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ الْكَفَافُ، عبد الحليم الجندي، ص ١٦٢.
- (٤) مناقب آل طالب، ج ٣، ص ٣٩٦.
- (٥) سير أعلام النبلاء، ج ٦، ص ٢٦٦.
- (٦) تاريخ ابن خلدون، ج ١، ص ٤٤٦.
- (٧) الكافي، ج ٢، ص ٧٨.
- (٨) الوسائل ج ١٢، ص ٢٠.

- (٩) الكافي، ج ١، ص ٥٣.
- (١٠) الكافي، ج ١، ص ٥٤.
- (١١) الكافي، ج ١، ص ٥٦ و ٥٧.
- (١٢) المحسن، ج ١، ص ٢١٢.
- (١٣) المحسن، ج ١، ص ٢١٥.
- (١٤) المحسن، ج ١، ص ٢٠٩-٢١٠، الوسائل ج ٢٧، ص ٥٠-٥١.
- (١٥) الكافي ج ١، ص ٥٨.
- (١٦) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٨-٨٩.
- (١٧) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٨.
- (١٨) في نسخة البحار عن العلل: «فضحك ثم قال: عليه لعنة الله أبداً في قوله: إني رجل صحفي...» البحار، ج ٢، ص ٢٩٣.
- (١٩) علل الشرائع، ج ١، ص ٨٩-٩٠، والرواية طويلة فيها فوائد جمة.
- (٢٠) المحسن، ج ١، ص ٢١٠.
- (٢١) شرح إحقاق الحق، ج ١٢، ص ٢١٤.
- (٢٢) كتاب الجنروجين لابن حبان، ج ٣، ص ٦٥.

مکرستنا ملکہ عائشہ

قصى الشیخ علی العربی

كَأَوْدِ بِدَائِيْلِ الْفَاتِ قَارِئِي الْكَرِيمِ إِلَى تَطْوِيرِ الْبَحْثِ وَالْتَّحْقِيقِ وَالْكِتَابَةِ حَوْلِ حَيَاةِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ، تَرْبِيَةٌ وَتَأْهِيلًا وَتَفْضِيلًا، وَهَذَا إِنْ دَلَّ عَلَى شَيْءٍ فَإِنَّا يَدْلُّ عَلَى الْإِهْتِمَامِ بِهِمْ وَبِعُودِهِمْ، فَلَمْ يَكُنْ اهْتِمَامًا عَاطِفِيًّا بِقَدْرِ مَا هُوَ امْتِشَالٌ لِأَمْرٍ إِلَهِيٍّ قَاطِعٍ صَدْرَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَما أَوْحَى بِرِسَالَتِهِ الْخَالِدَةِ إِلَى الرَّسُولِ الْمُصْطَفَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمْرًا رَسُولَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى﴾^(١) وَذَلِكَ لِكُونِهِمْ عَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ يَتَّلَوْنَ الْقِيَادَةَ الشَّرْعِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ، وَهُمْ أَقْرَبُ النَّاسِ إِلَى الرَّسُولِ نَهْجًا وَنَسْبًا، وَيَبْشِرُ الرَّبُّ الَّذِينَ يَحْبُّونَ آلَ الرَّسُولِ بِزِيادةِ أَجْرٍ، وَأَنْ يَشْمَلُهُمْ بِغَفْرَتِهِ الْوَاسِعَةِ وَشَكْرِهِ الْجَزِيلِ، وَأَكْرَمْ بِهِ وَعْدًا صَادِقًا، وَفَضْلًا كَبِيرًا، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ الْثَوَابُ لِلَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ﴾ بِهِ ﴿عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وَلَكِنْ هَذَا الْفَضْلُ الْكَبِيرُ مَقْتَرٌ بِعَمَلٍ كَبِيرٍ هُوَ الْمَوَدَّةُ فِي الْقُرْبَى الَّتِي جَعَلَتْ بِمَثَابَةِ أَجْرٍ عَلَى الْسَّالَةِ الْمُحْمَدَيَّةِ.

وهنا قد يتسائل البعض

كيف طلب رسول الله على رسالته أجر؟ أفلم تكن له أسوة بسائر الأنبياء عليهما السلام الذين اتفق لهم على ألا يطالبوا أمههم بأجر؟ قال الله سبحانه على لسان أكثر من نبي ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾⁽²⁾، وقد حدا هذا الاعتراض ببعض الرواة إلى تغيير التفسير السابق إلى

تفسير أخرى، بعضها بعيدة عن قيم الرسالات الإلهية.

ولكن إذا عرفنا أنَّ الإسلام هو آخر تحجُل لنور الرسالة، وأنَّه كان بحاجة إلى قيادة شرعية تحافظ عليه من زيف المترفين، وإلحاد الطغاة، وضلال المحتلين، وأنَّ الله الحكيم قد اختار لرسالته من يحمل مشعلها من أهل بيته الرسول كما اجتبى من آل إبراهيم وآل يعقوب من يحمل مشعل الرسالة من بعدهما. إذا عرفنا كل ذلك فإننا نهتدي إلى الحكمة البالغة وراء جعل المودة في القربى أجرًا للرسالة، إذ أنَّ الهدف منها ولاء القيادة الشرعية التي تحمل مشعل الرسالة، فمن أراد أن يشكر رسول الله على الأذى الكبير الذي تحمله فلا شكر أفضل من محبة أهل بيته الذين يحملون ذات هدفه ويبلغونه للناس، وهكذا يكون أجر الرسالة في مصلحة الناس أنفسهم، وهذا قال ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾^(٣) وليس للرسول.

روى صاحب الكشاف: أنه لما نزلت هذه الآية -آية مودة القربى- قيل: يا رسول الله من قرباتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ فقال: علي وفاطمة وابنها، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بزيادة التعظيم، وهو مودتهم.

وجوب محبة أهل البيت عليهم السلام

وقد ثبت بالنقل المتواتر عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كان يحبُّ علياً وفاطمة والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على الأمة كلهما أن تتشله انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٤). ولقوله تعالى: ﴿فَلَيَحْذِرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ فالله يحذر بشدة أولئك الذين يخالفون أمر الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقراراته باعتباره القيادة العليا.

ف﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ باسمه. وهذا المقطع

من الآية - كما يقول بعض المفسرين - وجهان: أحدهما ظاهر والآخر باطن، أما الظاهر فهو: أن لا يسمى الإنسان رسول الله باسمه الخاص، ولكن عليه أن يناديه عليه وآله بلقبه، فحينما جاءت هذه الآية المباركة حُرِمَ على المسلمين أن ينادوا رسول الله باسمه، فأخذوا ينادونه بتعظيم: يا نبِي الله، أو يا رسول الله، أي باسمه القيادي.

وأما الوجه الباطن فهو: ضرورة تهيئة المسلم نفسياً لتقبل قيادة الرسول عليه وآله وكل من جلس مجلسه وحكم باسمه، ولا يقول هذا إنسان وأنا إنسان، بل إنه بشر، ولكنه يتلذذ صفة اعتبارية أنت لا تملكونها، هي جلوسه مجلس الرسول، لذلك قال كثير من فقهائنا: «إذا حكمولي الأمـرـ المـجـتـهـدـ الجـامـعـ لـلـشـرـائـطـ بـحـكـمـ ماـ، وجـبـ عـلـىـ النـاسـ سـوـاءـ مـنـهـ الـمـقـلـدـونـ هـذـاـ الـمـجـتـهـدـ أوـ غـيرـهـ اـتـبـاعـ حـكـمـهـ، بلـ وـحـقـىـ عـلـىـ الـمـجـتـهـدـينـ أـنـ يـتـبـعـوـهـ فـيـ حـكـمـهـ»؛ لأنـهـ حينـماـ يـحـكـمـ فـإـنـهـ يـحـكـمـ بـاسـمـ مـنـصـبـهـ، وإـهـانـةـ حـكـمـهـ إـهـانـةـ لـرـكـزـهـ، والإـهـانـةـ لـرـكـزـهـ إـهـانـةـ لـلـدـيـنـ، وبـالـتـالـيـ لـلـهـ رـبـهـ وـآلـهـ وـعـبـدـ، وكـمـاـ فيـ الحديثـ عـلـيـهـ وـآلـهـ وـعـبـدـ: «خـنـ أـهـلـ الـبـيـتـ لـاـ يـقـبـلـ اللـهـ عـمـلـ عـبـدـ وـهـ يـشـكـ فـيـنـاـ»^(٥).

وجاء فيما دلّ على إرجاع أمر القضاء إلى الفقهاء من الشيعة وإيجاب القبول لحكمهم: هو ما ورد عن عمر بن حنظلة في حكم المتنازعين قال: سألت أبا عبد الله عاشوراً عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث، إلى إيه حاكم يرجعان؟ فقال عاشوراً: «ينظران من كان منكم من قد روى حدثنا، ونظر في حلانا وحرامنا، وعرف أحکامنا، فليرضوا به حکماً، فإني قد جعلته عليکم حاكماً، فإذا حکم بحکمنا فلم يقبل منه، فإنما استخف بحکم الله، وعليه رد، والراد علينا -أي على أهل البيت عاشوراً الراد على الله»^(٦).

اتباع ومحبة الرسول ﷺ يتم بتطبيق رسالة الله التي نزلت عليه

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّبُكُمُ اللَّهُ﴾^(٧).

جاء في سبب نزول هذه الآية كما في تفسير «جمع البيان»: أنه أدعى جمع من الحاضرين في مجلس رسول الله ﷺ أنهم يحبون الله، مع أنَّ العمل بتعاليم الله كان أقل ظهوراً في أعمالهم، فنزلت هذه الآية بشأنهم.

كيف نحب الله حقيقة

تقول الآية المباركة إن الحب ليس بالعلاقة القلبية فحسب، وإنما الحب الحقيقي الصادق هو الذي يعكسه العمل الصالح وإلا فهو ليس سوى خداع للذات، والله لا يحب أحداً من دون عمل، وهذا العمل لا يمكن أن يكون لله إلا عن طريق اتباع رسوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ حقيقة كما تزعمون ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾؛ إذ أن للحب الحقيقي آثاراً عملية تربط المحب بالحبيب وتدفعه للسعى في تحقيق طلباته. والدليل على ذلك واضح، فإن حب الإنسان لله ناشئ من كونه منبع جميع الكمالات وأصلها، وأن محبوباً هذا شأنه لا بد أن تكون أوامرها كاملة أيضاً، فكيف يمكن لإنسان يعشق الكمال المطلق أن يعصي أوامر الحبيب وتعاليمه، فإن عصى كان ذلك دليلاً على أنَّ حبه غير حقيقي.

إنَّ الغارقين في الذنوب من قمة الرأس حتى أخمص القدم، ومع ذلك يرون أنَّ قلوبهم مليئة بحب الله ورسوله وأمير المؤمنين والأئمة العظام، أو الذين يعتقدون أنَّ الإيمان والحب والمحبة قلبية فحسب، هم غرباء على منطق الإسلام تماماً. من هنا قال الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ حول الحب الحقيقي الصادق: «ما التقى مؤمنان قط إلا كان أحدهما أشدهما حباً لأخيه»^(٨). وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «إنَّ المتحابين في الله يوم القيمة على منابر

من نور، قد أضاء نور أجسادهم ونور منابرهم كل شيء، حتى يعرفوا به فيقال: هؤلاء **الصحابون في الله**^(٩). وقال عليه السلام: «كل من لم يحب على الدين، ولم يبغض على الدين، فلا دين له»^(١٠). وقال عليه السلام في صفة محبيهم: «... وطبة يحبونا في السر والعلانية، هم النمط الأعلى، شربوا من العذب الفرات وعلموا بأوائل الكتاب، وفصل الخطاب، وسبب الأسباب، فهم النمط الأعلى، الفقر وأنواع البلاء أسرع إليهم من ركض الخيل، مستهم البأساء والضراء وزلزلوا وقتلوا فمن بين مجروح ومذبوح، متفرقين في كل بلاد قاصية»^(١١).

وقال عليه السلام حول الآية المتقدمة: «من سره أن يعلم أن الله يحبه فليعمل بطاعة الله وليتبعنا، ألم يستمع قول الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾»^(١٢).

وقال عليه السلام: «إذا أحب الله عبداً ألهمه الطاعة، وألزمـه القناعة، وفـقهـه في الدين، وقوـاهـ بالـيقـينـ، فـاكـتـفـيـ بالـكـفـافـ، وـاـكتـسـيـ بـالـعـفـافـ، وـإـذـاـ أـبـغـضـ اللهـ عـبـدـاـ حـبـبـ إـلـيـهـ المـالـ، وـبـسـطـ

ـلـهـ، وـأـلـهـمـهـ دـنـيـاهـ، وـوـكـلـهـ إـلـىـ هـوـاهـ، فـرـكـبـ العـنـادـ، وـبـسـطـ الـفـسـادـ، وـظـلـمـ الـعـبـادـ»^(١٣).

وقال عليه السلام: «من أحب الأعمال إلى الله زيارـةـ قـبرـ الحـسـينـ عليهـ السـلامـ»^(١٤). وقال عليه السلام:

«القلب حـرمـ اللهـ، فـلاـ تـسـكـنـ حـرمـ اللهـ غـيرـ اللهـ»^(١٥). وقد جاء في «معاني الأخبار» عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «ما أحب الله من عصاه»، ثم قرأ الأبيات:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه
هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته إن الحب لمن يحب مطيع

هذه الأحاديث ت يريد أن تبين أن حقيقة الدين وروحـهـ هيـ الإـيـانـ بـالـلـهـ وـحـبـهـ،
وـذـلـكـ الإـيـانـ وـالـعـشـقـ الـلـذـينـ يـعـمـ نـورـهـماـ كـلـ الـوـجـودـ الـإـنـسـانـيـ وـيـضـيـئـهـ، وـتـتـأـثـرـ بـهـماـ
الـأـعـضـاءـ وـالـجـوـارـحـ، وـيـظـهـرـ أـثـرـهـماـ فـيـ اـتـبـاعـ أـوـامـرـ اللهـ.

وعوداً على ذي بدء

تبين لنا مما سبق أن مودة ذوي القربى ومحبتهم ترتبط بقضية الولاية وقبول الأئمة المعصومين عليهم السلام؛ حيث تعتبر في الحقيقة استمراراً لقيادة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه، واستمراراً للولاية الإلهية، وجلّي أن قبول هذه الولاية والقيادة كقبول نبوة النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه ستكون سبباً لسعادة البشرية نفسها وستعود نتائجها إليها.

نعم، إن حب الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه يجعلنا نحب كل تابعه، وحب أهل بيته يسري إلى محبهم حتى يصبحوا حزباً إسلامياً واحداً، ويتحابوا في الله، ويتراءوون في الله، ويتعارفوا في سبيل الله. هكذا شبه الرسول صلوات الله عليه وآله وسلامه حبهم بسفينة نوح التي وحدت بين راكبيها، كما حملتهم إلى برج الأمان.

ولأن طاعة أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالقيادة الشرعية الرائدة، تقتضي جهاد المشركيين، ومقاومة الطغاة والمترفين، وتحدي تيار الفساد والضلال، فقد جعل الله منطلقه الحب الذي به يسهل كل صعب، بل ويتلذذ الحبيب بما يبذله في سبيل من يحب، ألم تر كيف يصبر المجاهدون في سبيل الطغاة على أقسى ألوان التعذيب، ثم يقولون كما قال حببهم محمد صلوات الله عليه وآله وسلامه: «إلهي إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى». ألم يأتوك نبأ أهل الإيثار في سوح القتال، كيف استساغوا شراب الموت، وكان عندهم أشهى من العسل، لأنهم اتبعوا نهج إمامهم الحسين عليه السلام الذي قال وهو يعالج سكرات الموت تحت ركام السيوف والخناجر والسهام والحجارة، وقد اشتدَّ به العطش، ووتر بأفضل أهل بيت وأبر أصحاب، قال: «إلهي رضاً بقضاءائك، لا معبد سواك»، وقالوا على لسانه عليه السلام:

تركـتـ الـخـلـقـ طـرـاـ فيـ هـوـاـ أـرـاـكـ

فلو قطعني في الحب إرباً لما مال الفؤاد إلى سواك
وكما يعلم قارئي الكريم: أن الطاعة الحقيقة هي لله، ونحن لا نطيع القيادة
لذاتها أني كانت، إنما نطيعها لأنها امتداد لولاية الله تعالى، الطاعة ليست إلا لله، ولمن
أمر الله.

وَهُنَا أَلْفَتَ نَظَرَ قَارئِي النَّبِيِّ إِلَى مَا وَرَدَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْمَبَارَكَةِ مِنْ لَفْتَةٍ جَمِيلَةٍ
وَمُهِمَّةٌ، وَبِالغَةِ فِي الْلَطْفِ وَالدِقَّةِ، تَتَرَكَزُ فِي كَلْمَةِ «يَقْتَرِفُ» فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفُ حَسَنَةً نَزِدُ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾، فَهَذِهِ الْكَلْمَةُ عَادَةٌ مَا تَأْتِي مَقْارَنَةً لِلْسَّيْئَةِ وَلَا يُنْسَى
لِلْحَسَنَةِ، فَمَا هُوَ السُّرُّ فِي اسْتِعْمَالِهَا هُنَّا؟

إن الاقتراف معناه السعي المكثف للقيام بشيء صعب، وأصل الكلمة نزع لحي الأشجار أو الجلد الإضافي من الجسم، ولعلها استخدمت هنا لأن السياق يهدى إلى طاعة أولي القربى ومودتهم وهي حسنة بالغة الصعوبة، فمن أجل تطبيق هذه الآية الكريمة أريقت دماء، وأطحيحت برؤوس، فليس كل إنسان أهلاً لأن يكون من أصحاب المودة. روي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنه قال: «فاقتراض الحسنة مودتنا أهل البيت»^(١)، كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إِنَّمَا نَزَّلْتُ فِيمَا خَاصَّةُ أَهْلِ الْبَيْتِ»^(٢)، في علي وفاطمة والحسن والحسين وأصحاب الكساء عليهما السلام^(٣).

لماذا اختار الله أولى القربي لقيادة الأمة؟

وبتعبير آخر: هل اختيارهم عليهم السلام من قبل الله تعالى باعتبارهم ذرية لرسوله صلوات الله عليه وآله، وقد أراد ربنا إكرام نبيه العظيم بذلك، وإيتاء بعض أجراه في الدنيا، ليبقى ذكره العطر فوّاحاً في كل عصر. بلى، ولكن ليس هذا سبب اختيارهم قادة، لأنه ليس كل من انتسب إلى الرسول صلوات الله عليه وآله يصلح للإمامية، إنما كان أشخاص

معينون بالصفات والأمثال، اجتباهم الله لإمامه المسلمين، وأشارت إليهم الآيات، وذكرتهم النصوص، وكانوا هم الأقربون إلى رسول الله ﷺ نهجاً وسلوكاً، قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسباً وصهراً، وهم على فاطمة والحسن والحسين عليةما يرضي الله بهم، وفيما نستقرئ كتب التاريخ والمحدث ل مختلف الفرق الإسلامية نجدها تؤكد بأن أقرب الناس خلقاً وخلقها وعلماً وعملاً إلى رسول الله ﷺ هم أهل بيته الذين نزلت فيهم الآية.

فإذا أكرمنا الصديقة فاطمة الزهراء عليةما يرضي الله بهم فليس فقط لأنها بنت رسول الله ﷺ وللبنت كرامتها - وإنما القيمة المثلثة فيها هي أنها الصديقة الكبرى التي جسدت رسالة النبي ﷺ في حياتها، وكذلك الإمام علي عليةما يرضي الله بهم، فنحن لا نكرم العباس عم النبي ﷺ بقدر ما نكرم ابن عمه علي أبي طالب لأنها الأقرب إليه نهجاً وسلوكاً. ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليةما يرضي الله بهم: «ولايتي محمد وأحب إلي من ولادي منه».

بلـى، حين يريد الله أن يجعل رسالته في ذرية طيبة بعضها من بعض، يختار ذرية الرسول أكرم الخلق عنده، وأفضلهم لديه، فيطهرهم من الدنس، ويذهب عنهم الرجس، ويصطففهم لديه، كما اصطفى آل إبراهيم وآل عمران شخصاً شخصاً. لقد آن الأوان ليعرف العالم كله من هم أهل البيت عليةما يرضي الله بهم، وما نهجهم، وليجد عنهم الدواء الشافي لدائهم، وليسنير بهداهم في ظلمائهم. آن الأوان ليعتصم المسلمون جيلاً جيلاً بحبل الله، ويتمسكون بالنقلين: «إنِي تارَكُ فِيكُمُ الثقلَيْنِ؛ كِتَابَ اللَّهِ وَعَزْتِي أَهْلَ بَيْتِ...»^(١٨) إحياءً للمعارف الإسلامية الأصيلة من منبع الثقلين ونشرها، ودفعاً عن حريم القرآن والسنـة، وذباً عن كيان الإسلام، وتحقيقاً للوحدة والتكافـل بين أتباع أهل البيت عليةما يرضي الله بهم في ظل قيادة الولي الفقيـه، التي أرشـد أهل البيت عليةما يرضي الله بهم وإلـيها وألـزـمـهم

باتباعها، لتكون ركيزة وأساساً في تحقيق الوحدة الشاملة بين المسلمين، وتدعيمها لمحابية الاستكبار العالمي ومؤامراته المتعاقبة.

وبين يدي القارئ الكريم هذا البحث المتواضع ليكون مفردة تصب في هذا السبيل، حيث نطرق أبواب مدرسة أهل البيت الكبرى التي مثلت الإسلام الحمدى الأصيل بصدق وأمانة منبعاً ومساراً وأهدافاً. فنخوض معها تجربة الهدم للباطل والظلم، وبناء الحق والعدل في واقع أعيته سطوات الجبارة وانتهازية المنحرفين انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْنَ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾^(١٩).

إذن فالواجب علينا معرفة أهل البيت عليهما السلام إذ إنهم عباد الله المخلصون، واجب علينا اتباعهم إذ هم الأدلة على الله الهادون إليه، ولنقدم عطاءات مدرستهم الشرة لنروي بها ظماً الأجيال في آفاق الأرض، ونستنقذها من غياب المحبة والضلال، فلنعيش مع أهل البيت عليهما السلام رافدين لسيرهم، أوفياء لخطتهم، متمسكون بالثقلين، لا نفصل بينهما، ولا نفصل عنهما

تطور منهج الدراسة عند أهل البيت عليهما السلام

نعم، تطور البحث والتحقيق والكتابة حول حياة الأئمة عليهما السلام، وقد تجلى للمرء المتتبع عظمتهم عليهم السلام وأنهم جعوا في أشخاصهم شرف وعز الإسلام من جميع أطرافه؛ شرف النسب، لأنهم شجرة النبوة، أبناء وأحفاداً، وشرف العلم، لأنهم ثرة الرسالة، عقيدة وأحكاماً وأخلاقاً، وشرف الجهاد، صبراً وتضحية وشهادة.

وصادقنا عليهما السلام فرع هذه الدوحة المباركة، ورمز هذه العترة الطاهرة الصابرة المحتسبة، خلّد بما بث من علوم، ونشر من فقه وأحاديث رسالة جده رسول

الله عليه وآله، مما أدى للباحثين منذ مطلع القرن العشرين إلى إنجاز أعمال علمية فريدة لإخراج تراثه المحبس في داخل الموسوعات المطولة والمخطوطات، ذلك التراث الذي لم ير النور لو لا تلك الجهدات التي بذلت بعناء.

وملتبع هذه الكتابات سيجد رغم تعدد منطلقات واختلاف رؤى وأهداف مؤلفيها قد اتصفت مبادرتها الأولى بالعرض السردي الذي يغلب عليه الطابع القصصي عن حياة الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ، ثم أعقبتها كتابات موسوعية تتحدث عما جاء عن الإمام عَلَيْهِ الْكَلَمُ، واعتنت بحفظ تراثه موزعاً ضمن أبواب، تلتها بعد ذلك كتابات وصفية دفاعية تحاول انتقاء النصوص التي تبرز صفات الإمام، ثم نظمها بنهج يختاره الكاتب حسب ذوقه، ورفقتها كتابات أخرى انتهت العرض العقري، أي طرح النموذج البطل الذي لا يقارن فيه أحد من حيث انجازاته ومفاخره العلمية، وتأسيسه لبعض العلوم كالكيمياء والطب والأحياء والفقه والأصول والفلسفة وغيرها، ثم ارتفعت الجهدات والأنشطة التحقيقية حول الإمام، فتناولت حياته بالدراسة والتحليل إلا أنها تجزئية في تحليلها، تتحرك بحدود النص وتفكيكه بلغة حديثة، وتدخلت مع ذلك الجهدات أيضاً جهود كتابية ذات إطار مذهبي نحت بالإمام، وشدت حياته ليكون قائداً للمذهب فحسب، أو رئيساً له فسلطت الضوء على حياته بالمقارنة مع أئمة المذاهب الأخرى، فترك انطباعاً يصاحبه جهد يجرّ به عَلَيْهِ الْكَلَمُ في زاوية يجعله مكافئاً لغيره من أرباب المذاهب.

بعد ذلك وتبعاً للنهضة الإسلامية النامية، ارتفعت الكتابة التاريخية حول الأئمة بما فيهم الإمام جعفر الصادق عَلَيْهِ الْكَلَمُ ضمن بنية صيغت مع باقي الأئمة عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ، باعتبارهم عَلَيْهِمُ الْكَلَمُ قد مارسوا أدواراً إلهية في عدد من المراحل، تخضع لمخطط مدروس يستهدف تربية الأئمة ويحافظ على الرسالة من جهة ثانية.

ولم يتعمق هذا المنهج الذي فتحه السيد الشهيد الصدر قدس سره في محاضراته التي تشرفت باسم (أهل البيت) تنوع أدوار ووحدة هدف)^(٢٠) لأجل إعطاء ثماره، فبقيت بحوثه يتيمة، تفتقر إلى الإضافة والتجديد، فلكي لا تكون الكتابات أسيرة للمنهج القديم لغة ومنهجا، بل لا بد أن ترقي وترتفع إلى مستوى الحاجة والمواكبة، فرحلتنا تتطلب هدفاً أعلى، وتستهدف أمراً أكبر من ذلك، لا، بل ينبغي أن يستلّ الهدف من العقيدة نفسها بمعنى طرح الإمام وسيرته حين نخاطب أو حين نناقش أو نرد من جهة أخرى، أي أن هذه المرحلة تدعونا في كل يوم أن نحاكي حياته، ونستنبطها لنحصل منها على الدروس بهدف البناء والإعمار. من هنا نحاول أن نلقي ضوءاً على أحاديث الإمام عليه السلام التي تمثل بحاراً زاخراً بالعلوم والمعارف، مع شرح موجز ومحتصراً لها، وبمستوى ما تتطلبه الحاجة ضمن عدد من الفرات.

صادقنا عليه السلام ومدعى الإمامة كذباً

قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثُوَّي لِلْمُتَكَبِّرِينَ﴾^(٢١).

إن من أبرز المصاديق العلمية للكذب على الله هو أن يدعى الإمامة من ليس أهلاً لها، وجاء في تفسير هذه الآية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من زعم أنه إمام وليس بإمام»، قال السائل للإمام عليه السلام: وإن كان علوياً فاطمي؟ قال عليه السلام: «وإن كان علوياً فاطمي» قال السائل للإمام عليه السلام: وإن كان من ولد علي بن أبي طالب عليه السلام؟ قال عليه السلام: «وإن كان من ولد علي بن أبي طالب»^(٢٢).

وإذا كان ادعاء الإنسان المعرفة بالطبابة والتمريض قد يتسبب في قتل عشرات الناس الذين يتعالجون عنده، فإن ادعاء الإمامة والرئاسة كذباً سوف يفسد كل

شيء. وكذلك فإن من نسب إلى رسول الله ﷺ أو إلى الإمام المعصوم حديثاً مختلفاً، اعتبر كاذباً على الله، لأنهم لا ينطقون عن الهوى.

هذا فقد ورد حديث عن الإمام الصادق ع: «من تحدث عنا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً، فإن صدق علينا فإنا يصدق على الله وعلى رسوله، وإن كذب علينا فإنه يكذب على الله ورسوله، لأننا إذا حدثنا لا نقول قال فلان وقال فلان، إنما نقول قال الله تعالى وقال رسوله» ثم تلا هذه الآية ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ وَجُوَهُهُمْ مُسُودَةٌ﴾^(٢٣).

ال الحديث المذكور يبين وبصورة واضحة أن أئمة أهل البيت الأطهار لم يقولوا شيئاً من عندهم، وأن كل الأحاديث التي وردت عنهم صحيحة وموثقة، لأنها تعود إلى رسول الله ﷺ، وهذه الحقيقة مهمة جداً، وعلى علماء الإسلام عليهما السلام أن يلتفتوا إليها، فالذين لا يقبلون بإمامية أهل البيت ع، عليهم أن يقبلوا بأن الأحاديث التي يرويها أئمة أهل البيت ع إنما هي منقوله عن رسول الله ﷺ.

صادقنا ع ومتطلبات العصر

قال الإمام الصادق ع: «العالم بزمانه لا تهجم عليه اللوايس»^(٢٤).

كما يعلم قارئي الكريم أن لكل عصر خصائصه وضروراته ومتطلباته، وهي تنطلق من الأوضاع الاجتماعية والمتغيرات الفكرية والمستجدات الثقافية الطارئة على مفاسيل الحياة في ذلك العصر. ولكل عصر مشاكله وملابساته الناتجة عن تغيير المجتمعات والثقافات، وهو تغيير لا ينفك عن مسيرة المجتمع التاريخية. المفكر الفاعل في الحياة الاجتماعية هو ذلك الذي فهم الضرورات والمتطلبات، وأدرك المشاكل والملابسات، وبعبارة أخرى هو الذي استوعب مسائل عصره.

أما أولئك الذين لا يدركون هذه المسائل إطلاقاً، أو لا يتفاعلون معها بسبب عدم انتماهم إلى عصرهم، أي بسبب فقدانهم عنصر «المعاصرة»، فهم الهامشيون الذين لا يقدرون على التأثير ولا على المعالجة، بل يقفون دوماً متأسفين ومتسرعين وشاكيين ومنتقدين، ويزداد تشوّههم ويأسهم باستمرار حتى يقعوا في طامة «الانزواء الاجتماعي».

ذلك لأنهم ما استطاعوا أو ما أرادوا أن يستوعبوا احتياجات عصرهم ومشاكله. هؤلاء يعيشون في ظلام مطبق، وبسبب عدم تفهمهم لأسباب الحوادث وعللها ونتائجها، يفقدون أنفسهم أمام هجوم هذه الحوادث، ويرتكبون ويخافون ويظلّون دون خطة للمواجهة والدفاع، وبما أنَّ مسیرتهم في الظلام، فسوف تزل قدمهم في كل خطوة.

صادقنا عليه وتأكيد على تلاوة سورة الحمد

لسورة الحمد في القرآن الكريم مكانة متميزة من بين سائر سوره الأخرى، لما تحمل من خصائص عده ومنها: التأكيد على تلاوتها، لأن تلاوتها تبعث الروح والإيمان والصفاء في النفوس، وتقرب العبد من الله، وتقوى إرادته، وتبعده عن ارتكاب الذنوب والانحرافات، ولذلك كانت أم الكتاب صاعقة على رأس إبليس كما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «رَأَى إِبْلِيسُ أَرْبَعَ رَنَاتٍ: أُوهَنُ يَوْمَ لَعْنٍ، وَحِينَ أَهْبَطَ إِلَى الْأَرْضِ، وَحِينَ بَعَثَ مُحَمَّدًا عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُلِ، وَحِينَ أُنْزَلَتِ الْكِتابَ»^(٢٥).

ومن المعلوم أن لفظة «الأم» يعني هنا الأساس والجذر. ومن هذا الفهم يقال: «إن لكل شيء أساساً، وأساس القرآن الفاتحة». وقد جاء عن الإمام الصادق عليه قوله:

«من لم يبرءه الحمد لم يبرءه شيء»، انطلاقاً من قول جده رسول الله حيث قال عليه وآله في فضيلة هذه السورة: «هي شفاء من كل داء إلا السام والسام الموت»^(٢٦).

صادقنا عليه وبدء العمل باسم الله

أليس من الأفضل أن يبدأ الإنسان كل عمل هام ذي قيمة باسم وجود خالدٍ قائمٍ لا يعتريه الفناء؟ فحينما يفكر ويصمم ويعمل، أليس بقوى وطاقات؟ من يملك تلك القوى ومن يده بتلك الطاقات، أليس هو الله؟ فكل قوة يفكر أو يصمم أو يعمل بها، هي آية من آيات الله، باسم الله قبل كل موجة تفكير، وومضة إرادة، وحركة عمل، إنه الله الذي خلقه وهداه، فعليه أن يبتدئ كل شيء باسمه؛ لأن كل شيء هو في الواقع اسم من أسمائه، وآية من آياته الكبيرة، من هنا عليه أن يستمد منه، ولذلك كانت البسمة أول آية في القرآن الكريم.

وطبيعي أن البدء باسم الله الذي تفوق قدرته كل قدرة، سوف يبعث فيه القوة والعزم، والثقة، والاندفاع، والأمل والصمود أمام الصعاب والمشاكل، والإخلاص والنزاهة في الحركة. قال الإمام الصادق عليه السلام: «لربما ترك في افتتاح أمر بعض شيعتنا "بسم الله الرحمن الرحيم" فيمتحنه الله يعكره، لينبه على شكر الله تعالى والثناء عليه، ويحوس فيه عنه وصمة تقصيره عند تركه قوله: "بسم الله"»^(٢٧).

وأسماء الله كلها مظاهر رحمته، ورحمته واسعة ومستمرة، ويعبر عن الرحمة الشاملة التي وسعت كل شيء بالرحمة، كما يعبر عن الرحمة الدائمة، التي لم تزل ولا تزال ولن تزول في المستقبل بالرحيم. وسوف تتجسد رحمة الله الدائمة في اليوم الآخر بجنات واسعة يختص بها المؤمنون، أما في الدنيا فهو يرحم الجميع، المؤمنين والكافرين، قال الإمام الصادق عليه السلام: «والله إله كل شيء، الرحمن بجميع خلقه، الرحيم

بالمؤمنين خاصة»^(٢٨). هذا وتعتبر كلمة «الرحمن» من الأسماء الخاصة بالله، ولا تستعمل لغيره، بينما «الرحيم» صفة تنسب لله ولعباده.
وإلى هذا المعنى أشار الإمام الصادق ع عليه السلام فيما روي عنه: «الرحمن اسم خاص بصفة عامة، والرحيم عام بصفة خاصة»^(٢٩).

صادقنا ع عليه السلام والارتباط بالناس من خلال الإنفاق

إضافة إلى ارتباط المتدين الدائم بالخالق، هم ارتباط وثيق ومستمر بالملائكة، من هنا قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾^(٣٠)، يلاحظ أن القرآن الكريم لا يقول: ومن أمواهم ينفقون، بل يقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، وبذلك وسع نطاق الإنفاق ليشمل المواهب المادية والمعنوية.

ولكن هل من أنفسنا نعطي شيئاً لله؟ كلا إنما نقطع جزءاً صغيراً مما أنعم الله علينا فننفق منه، ولكل شيء عطاء مناسب له، فالمال بصرفة، والجاه ببذلها، والعلم بنشره، وهكذا، وبعبارة أخرى ينفقون من جميع إمكاناتهم لمن له حاجة إلى ذلك دون توقع الجزاء منه. والحياة الجماعية -أساساً- لا مفهوم لها دون الإنفاق.

الارتباط بالناس في الحقيقة حصيلة الارتباط بالله، فالإنسان المرتبط بالله يؤمن أن كل ما لديه من نعم إنما هي موهابات إلهية مودعة لديه لفترة زمنية معينة، ومن هنا فلا يزعجه الإنفاق، بل يسره ويفرجه؛ لأنه بالإنفاق قسم مال الله بين عباده، وبقيت له نتائج هذا العمل وبركاته المادية والمعنوية، وهذا التفكير يطهر روح الإنسان من البخل والحسد، ويحول الحياة من ساحة لتنافس البقاء إلى مسرح للتعاون؛ حيث يشعر كل فرد بأنه مسؤول أن يضع ما لديه من موهابات تحت تصرف كل المحتاجين، مثل الشمس تفيض بأشعتها على الموجودات دون أن تتوقع من أحد

جزاء. قال الإمام الصادق عليه السلام بشأن تفسير الآية: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾: «أن معناه وما علمناهم يثون»^(٣١).

بديهي أن الرواية لا ت يريد أن تجعل الإنفاق مختصاً بالعلم، بل إن الإمام الصادق عليه السلام يريد بذكر هذا اللون من الإنفاق أن يوسع مفهوم الإنفاق كي لا يكون مقتضاً على الجانب المالي كما يتadar إلى الأذهان لأول وهلة.

ولا شك أن هذا الإنفاق في سبيل الله يأتي نتيجة مباشرة للإيمان بالله وعلامة على عمق اليقين بأن الله هو القادر على الكون، وأنه واهب الحياة والغنى والملك والهدى. وشخصية المسلم تتميز بأنها معطاءة، وعطائهما ليس من أجل شهرة أو رباء، بل في سبيل الله، ووفق المنهاج الذي رسمه له الله.

وهناك آية قرآنية شريفة تشير إلى أحد الموانع المهمة للإنفاق، وهو الوساوس الشيطانية التي تخوف الإنسان من الفقر والعوز، وخاصة إذا أراد التصدق بالأموال الطيبة والرغوبة، فتقول الآية في هذا الصدد: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمْ﴾ أي يخوكم **﴿الْفَقْرَ﴾** إن تصدقتم بطيب المال، فلا تستجيبوا لصراخ الشيطان الذي يناديكم من داخل أنفسكم: لا تنفقوا لأنكم سوف تصبحون فقراء لو أنفقتم، أو يقول لكم: لا تنسوا مستقبل أطفالكم وتدبّروا في غدكم، وأمثال هذه الوساوس المظلة، كلا وألف كلا.. إن الإنفاق يدور الشروء بين الناس، ويسبب انتعاش الاقتصاد، وبالتالي استفادة الجميع، وحين يدعوكم إلى العطاء، فإنه يدعوكم إلى أفضل منه.

ومن جهة أخرى، الشيطان يخوكم من الفقر، فتمسكون أيديكم فيكر هكم الناس، وتنتشر البغضاء، وتتولد الفحشاء من خلال التسلیم لوسائل الشيطان **﴿وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾**، إذ أن منشأ كثير من المعاصي والانحرافات الجنسية هو الفقر وال الحاجة. أو ليس الأفضل هو الإنفاق، حتى ينتشر بدل الحقد، المحبة والوئام.

نعم، فالإنفاق يعتبر ضماناً للمجتمع، وتحكيمًا للعدل الاجتماعي، وتقليلًا للفوائل الطبقية، وتقديماً في كل شيء.

إذن، اتضح لنا مما تقدم: أن الشيطان بوسواسه الكثيرة، وبأشكالها المختلفة يريد أن يخيف الإنسان من خلال اختلاقه لتبعات تكون نتيجة الإنفاق وهو باطلة.

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا﴾، جاء في تفسير «مجمع البيان» عن الإمام الصادق عليه السلام: «أن في الإنفاق شيئاً من الله، وشيئاً من الشيطان، فاللذان من الله هما غفران الذنوب والسعنة في المال، واللذان من الشيطان هما الفقر والأمر بالفحشاء». وعليه فإن المقصود بالمعرفة هو إحلال السلام داخل المجتمع، بالإضافة إلى تزكية النفس من رواسب الذنوب حيث تغفر له، فينجو من النار في الآخرة. والمقصود بالفضل هو مردود العطاء في سبيل الله؛ حيث ينزل بالطبع على المنفق بالخير الكثير. ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ﴾ أي يسع الله أن يعطي ما وعد به فتزداد رؤوس الأموال بالإنفاق. ﴿عَلِيهِ﴾^(٣٢) بن ينفقي جازيه خيراً من لدنه.

صادقنا عليه ورأيه في كنز الأموال

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «لشيعتنا أن ينفقوا ما في أيديهم في الخيرات، وما بقي فهو حلال لهم، إلا أنه إذا ظهر القائم حرم جميع الكنوز والأموال المدخرة حتى يؤتى بها إليه ويستعين بها على عدوه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الْذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٣٣).

طبعاً هناك كلام بين المفسرين في شأن الآية التي ذكرها الإمام الصادق عليه السلام في هذا الحديث، وهي قتل قانوناً كلباً في شأن أصحاب المال وذوي الثراء الذين يكزنون أموالهم.

وال فعل «يَكْنِزُونَ» مأخوذه من مادة «الكنز» وهو المال المدفون في الأرض، وهو في الأصل جمع أجزاء الشيء، ومن هنا سمي البعير ذو اللحم الكبير بأنه «كناز اللحم» ثم استعمل الكنز في جمع المال، وادخاره ودفنه، أو في الأشياء القيمة غالبة الثمن. فبناءً على ذلك فإن الكنز ملحوظ فيه الجمع والإخفاء والمحافظة.

وكانت المبادلات التجارية بين المجتمعات البشرية آنذاك تتم سلعة بسلعة، فتباع ما زادت عن الحاجة من المحاصيل الزراعية أو الدواجن بجنس آخر، أو بضاعة أخرى؛ لأن النقد «الدينار والدرهم» لم يكن آنذاك، لكن لما كانت المبادلة -أعني مبادلة الأجناس أو البضائع- تحدث بعض المشاكل أو المصاعب، لعدم وجود ما يحتاجه البائع دائماً، فقد يكون هناك شيء آخر -مثلاً- يراد تبديله، فقد دعت الحاجة إلى اختراع النقد. وقد كان وجود الفضة، بل الأهم منه وجود الذهب، مدعاه إلى تحقق هذه الفكرة، وهي أن تمثل الفضة القيمة الدانية، وأن يمثل الذهب القيمة الغالية، وبهما اتخذت العاملات رونقاً جديداً بارزاً. فبناءً على ذلك فإن الحكمة الأصلية من النقد -الذهب والفضة- هي سرعة تحرك عجلة المبادلات الاقتصادية.

أما الذين يكتزون الذهب والفضة، فهم لا يكونون سبباً لركود الوضع الاقتصادي والضرر بالمجتمع فحسب، بل إن عملهم هذا مخالف لفلسفة ابتداع النقد واحتراعه.

فالآلية محل البحث تحرم مثل هذا الكنز وجمع المال، والشروع بصرامة، وتأمر المسلمين أن ينفقوا أموالهم في سبيل الله وما فيه نفع عباد الله، والمراد من سبيل الله هو كل خير، مثل الدفاع عن المظلومين والمستضعفين، وإعانة الفقراء والمساكين، والعمل من أجل الوطن، وهكذا.

وإذا لم يكن أهل الدنيا يعرفون أهمية هذا الدستور الإسلامي بالأمس، فنحن نستطيع أن ندركه جيداً لأن الأزمات الاقتصادية التي ابتلي بها البشر نتيجة

احتكر الشروة من قبل جماعة أنانية، وظهورها على صورة حروب وثروات وسفك دماء غير خاف على أحد أبداً.

أما عذاب الله الذي ينتظر هؤلاء -أي الجماعة الأنانية التي تكنز المال- هو أن ربنا سبحانه سوف يحمي هذه النقود يوم القيمة حتى تلتهب في نار جهنم الحامية الشديدة التوقد، ثم يضعها على جوانبهم كجباهم وجنوبهم وظهورهم ليحرقوا بها، ويقال لهم: هذا عاقبة الأموال المكنوزة، فبدلاً من تحقيق هدفهم منها أصبحت ضرراً ولم تكن خيراً لهم فينتفعوا بها، حيث أن عاقبتها كانت ناراً لا بهة تكوي أطرافهم، كما في الآية التالية للآية المتقدمة -مورد البحث- إذ تقول: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا﴾ أي على هذه الأموال والكنوز ﴿فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ ويقال لهم ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لَا تَنْسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾^(٣٤).

وهنا سؤال وهو: أيُّ قدر من المال المخزون يعتبره الإسلام كنز؟ هل هو الزيادة على حاجة الفرد، أم هو أكثر من أربعة آلاف دينار؟ أم هو المال الذي لا ينفقه الفرد في سبيل الله، ولا في بناء المجتمع -صناعياً أو عمرانياً أو زراعياً أو تجاريًا- ولا يدخله لحاجة شخصية محتملة مثل المرض أو عالة، أم ماذا؟

قد يكون الكنز بالذات حراماً للفلسفة المالية التي أشرنا إليها سابقاً حيث يسبب مضره بالمجتمع، وربما كان اختلاف الظروف سبباً في اختلاف الأحاديث المأثورة في حرمة الكنز، ونحن نذكر بعضها للأهمية البالغة لهذا الموضوع المحسوس في ظروف يتحالف فيها أدعياء الدين مع مستغلين الشعوب المحرومة ومصالحي دمائهم وذلك تحت غطاء حق الملكية الفردية التي يقرها الإسلام، ولكن في حدود المصلحة الاجتماعية، أما الأحاديث فهي التالية:

أ- قال رسول الله ﷺ: «كل مال تودي زكاته فليس بكنز، وإن كان تحت سبع

أرضين، وكل مال لا تؤدي زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض»^(٣٥).

ب - روي عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا زَادَ عَلَى أَرْبَعَةِ آلَافِ^(٣٦) فَهُوَ كَنْزٌ أَدَى زَكَاتَهُ أَوْ لَمْ يُؤْدِهَا، وَمَا دَوْنَهَا فَهِيَ نَفْقَةٌ، فَبَشِّرُهُمْ بِعِذَابِ أَلِيمٍ»^(٣٧).

ج - وفي حديث عن الإمام الباقر عَلَيْهِ الْكَلَمُ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَمَ كَنْزَ الْذَّهَبِ وَالْفَضْلَةِ، وَأَمْرَ بِإِنْفَاقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ»^(٣٨).

ما دام القانون يحدد المصلحة العامة، فإن اختلاف الأحاديث يدل على الظروف المختلفة.

صادقنا عَلَيْهِ الْكَلَمُ ولون السماء

لا ريب في أن أشرف العلم -كما يعلم قارئي الكريم- هو معرفة الله، ولا تتم المعرفة من دون الإيمان، إذ تبقى الشهوات وصفة الشرك كالسدود المنيعة التي لا تدع تيار المعرفة ينفذ إلى القلب. فالجاحظ في الطيور التي تسبح في الفضاء إلا ما تسجله أدلة التصوير، بينما المؤمن تنفذ بصيرته إلى معرفة الله الذي سخر الطيور في جو السماء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَحَّرَاتٍ فِي جَوَّ السَّمَاءِ﴾.

المراد من «الجو» لغة: هو الهواء^(٣٩). أو ذلك الجزء من الهواء بعيد عن الأرض^(٤٠). وبما أن الأجسام تنجدب إلى الأرض طبيعيا فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتسخير، أي أن الباري سبحانه قد جعل في أجنبية الطيور قوة وفي الهواء خاصية، تكتنان الطيور من الطيران في الجو على رغم قانون الجاذبية، فلو لا الهواء المحيط بالأرض لما كانت الطيور قادرة على البقاء في الجو، ولو لا الجاذبية المحيطة بالأرض لقذفت الطيور بمجرد صعودها في كرة أخرى أو في الفضاء اللامتناهي.

هذا وقد سميت السماء سماء لعلوها عن الأرض، وكل شيء كان فوق شيء فهو لما تحته سماء. من هنا فإن المراد من **﴿جو السماء﴾** هو الطبقة الهوائية الكثيفة المحيطة بالكرة الأرضية، ويبلغ سمكها عدة مئات من الكيلومترات.

من الشواهد الدالة على أن أحد معاني السماء هو «جو الأرض» حديث الإمام الصادق عليه السلام «للمفضل» عن السماء فيقول: «نَكَرَ فِي لُونِ السَّمَاءِ وَمَا فِيهِ مِنْ صَوَابٍ التَّدِبِيرِ، فَإِنَّ هَذَا اللُّونَ أَشَدُ الْأَلْوَانِ موافقةً لِلْبَصَرِ وَتَقْوِيَةً...»^(٤١). ومن الواضح أن زرقة السماء ليست إلا لون الهواء الكثيف المحيط بالأرض، وهذا فإن المقصود بالسماء في هذا الحديث هو جو الأرض نفسه.

صادقنا عليه السلام وجذور الشرك في أفكار وأقوال وضمائر المؤمنين

لا بد من التأكيد على أن الشرك بالله لا ينحصر باتخاذ الأوثان الحجرية والخشبية آلة من دون الله كما يفعل الوثنيون، أو القول بأن الله ثالث ثلاثة كما يقول النصارى. بل إن للشرك معنى أوسع وصورا وأشكالا مختلفة ومتعددة أكثر ضمورا وخفاء، وبشكل عام كل اعتقاد بوجود أشياء له نفس تأثير الله في الحياة هو نوع من الشرك.

فالإيمان ليس هو الاعتقاد بوجود الله فقط، وإنما يراد بالمؤمن المخلص هو الذي لا يعتقد بأي معبد سوى الله، ولا يضع طوق العبودية في رقبته لغيره، ويتمثل بقلبه وروحه لكل الأوامر الإلهية ولو كانت مخالفة هواه، هذا هو الإيمان المخلص من الشرك في العقيدة والقول والعمل. قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ الشَّرَكَ أَخْفَى مِنْ دَبَابِ النَّمَلِ»^(٤٢).

وهو أن يقول: والله، وحياتك يا فلان، وحياتي، ويقول: لو لا كلبه هذا لأنانا

اللصوص البارحة، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت... هذا كله به شرك^(٤٣).
ويما للأسف أن مثل هذه التعبيرات التي يشم منها رائحة الشرك رائحة بين سواد
ال المسلمين، وغير لائق بالشخص الموحد، كقولهم: اعتمادي على الله وعليك!!
عن الإمام الصادق ع عليه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾^(٤٤)، قال ع عليه: «قول الرجل لو لا فلان هلكت، ولو لا فلان لأصبت كذا
وكذا، ولو لا فلان لضاع عالي»^(٤٥): ألا ترى أنه قد جعل الله شريكًا في ملكه يرزقه
ويدفع عنه؟ قال الراوي، قلت: فيقول: لو لا أن الله من علي بفلان هلكت؟
قال ع عليه: لا بأس»^(٤٦).

صادقنا ع عليه والتمثيل الإلهي بالبعوضة

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً﴾^(٤٧).

لا شك لقارئي الكريم أن الأمثلة المناسبة لها أهمية دور حساس في بيان
الحقائق، وفي التوضيح والإقناع والإفهام. المثال المناسب قد يقرب طريق الفهم إلى
الأذهان بحيث نستعيض به عن الاقتحام في الاستدلالات الفلسفية المعقدة. وأهم من
ذلك، نحن لا نستطيع أن نستغني عن الأمثلة المناسبة في تعميم ونشر الموضوعات
العلمية الصعبة بين عامة الناس. ولا يمكننا أن ننكر دور المثال في إسكات الأفراد
المعاندين للجوجين المتعنتين.

على كل حال، تشبيه «المعقول» بـ«المحسوس» أحد الطرق المؤثرة في تفهيم
السائل العقلية، على أن يكون المثال -كما قلنا- مناسبا، وإلا فهو مضل وخطر.
من هنا في القرآن أمثلة كثيرة رائعة شديدة ومؤثرة، ذلك لأنه كتاب لجميع
البشر على اختلاف عصورهم ومستوياتهم الفكرية، إنه كتاب في غاية الفصاحة

والبلاغة، ومع أن المعاندين اخذوا من صغر البعوضة والذبابة ذريعة للاستهزاء بالأمثلة القرآنية، لكنهم لو أنصفوا وأمعنوا النظر في هذا الجسم الصغير، لرأوا فيه من عجائب الخلقة وعظمي الصنع والدقة ما يحير العقول والأباب.

يقول الإمام الصادق عليه السلام بشأن هذا الحيوان الصغير: «إِنَّمَا ضَرَبَ اللَّهُ الْمَثَلَ بِالْبَعُوضَةِ لِأَنَّ الْبَعُوضَةَ عَلَى صَفَرِ حَجْمِهَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا جَمِيعَ مَا خَلَقَ فِي الْفَيْلِ مَعَ كَبِيرٍ وَزِيادَةٍ عَضُوَيْنِ آخَرَيْنِ، فَأَرَادَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يَبْهِي بِذَلِكَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى لَطِيفِ خَلْقِهِ وَعَجِيبِ صَنْعِهِ»^(٤٨).

خرطوم هذا الحيوان الصغير يشبه خرطوم الفيل، أجوف ذو فتحة دقيقة جداً، وله قوة ماصة تسحب الدم. منح الله هذا الحيوان قوة هضم وقتل ودفع، كما منحه أطرافاً وأذناً وأجنحة تتناسب تماماً مع وضع معيشته، هذه الحشرة تتمتع بحساسية تشعر فيها بالخطر بسرعة فائقة وتفر عندها عدو بمهارة عجيبة، وهي مع صغرها وضعفها يعجز عن دفعها كبار الحيوانات.

صادقنا عليه السلام وتعريفه لجنة آدم عليه السلام

يبدوا أن الجنة التي مكث فيها آدم عليه السلام قبل هبوطه إلى الأرض، لم تكن الجنة التي وعد بها المتقوون، بل كانت من جنان الدنيا، وصقعاً منعماً خلاباً من أصقاع الأرض، كما يستفاد هذا من حديث روى عن الإمام الصادق عليه السلام حيث يقول فيه بعدما سُئل عن جنة آدم عليه السلام، فقال عليه السلام: «جنة آدم من جنات الدنيا، يطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنات الآخرة ما خرج منها أبداً»^(٤٩).

للأدلة التالية:

١- لأن الجنة الموعودة في القيامة نعمة محكومة بالخلود، فلا يمكن الخروج منها.

٢- ليس لإبليس الملعون طريقة للجنة يوم القيمة، وليس لوسوسته مكان هناك.

٣- أن الجنة الموعودة هي جنة الجزاء، ولم يكن آدم عليهما السلام قد قام آنذاك بعمل حتى يستحقها، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أي أتظنون أنها المؤمنون ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ ب مجرد التمني؟ كما هي حالة البشر يعني نفسه بأشياء كثيرة، وهي بالخيال أشبه منها بالواقع، يعني نفسه بالشدة بلا تعب، وبالسلطة بلا كفارة، وبالشهرة بلا استحقاق، ويحتاج البشر إلى أن يتذوق مرارة الحياة عشرات المرات، حتى يقتتنع أن تلك الأمنيات كانت أحلاماً صبيانية، وكذلك يعني بعض المؤمنين أنفسهم بالجنة بلا عمل صالح ولا تضحية، ويحذرهم القرآن الكريم من هذه الأمنية الباطلة، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾^(٥٠).

صادقنا عليهما السلام وسبيل التغلب على الصعاب والمشاكل

هناك منطلقات أساسية للتغلب على الصعاب والمشاكل ذكر في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾^(٥١). كيف نحارب النفاق والتلون؟ وكيف نقول بما نعمل، ونعمل بما نقول، ونتجاوز بالتالي المسافة بين الادعاء والواقع؟
الجواب: بالإرادة القوية، ولكن كيف نقوى الإرادة؟ إن الإرادة بحاجة إلى تدريب حتى تقوى، فهي كأي شيء في الإنسان تنموا كلما استثمرها الإنسان أكثر فأكثر، العضلات تشتد بالرياضة، والأعصاب تقوى بمواجهة المشاكل، والتفكير ينمو باستخدامة، وهكذا الإرادة تنمو كلما استفاد الإنسان منها، جرب ذلك وصمم على القيام بعمل صعب، إنك سوف تجد صعوبة في ممارسته أول مرة، ولكن كلما قمت به أو قمت بامتثاله قلت صعوبته.

وهذه الإرادة تتولد من خلال «الصبر» باعتباره حالة الصمود والاستقامة والثبات في مواجهة المشاكل، كلمة «الصبر» فسرت في روايات كثيرة بالصوم، لكنها لا تتحصر به حتماً، بل الصوم أحد المصاديق الواضحة للصبر؛ وروى بعض المفسرين في تفسير الآية: أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ إِذَا أَحْزَنَهُ أَمْرٌ اسْتَعْوَدَ بِالصَّلَاةِ وَالصَّوْمِ^(٥٢). وعن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ: «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا دَخَلَ عَلَيْهِ غُمَّ مِنْ غُمَّ الدُّنْيَا أَنْ يَتَوَضَّأْ ثُمَّ يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ وَيَرْكِعَ رَكْعَتَيْنِ يَدْعُ اللَّهَ فِيهِمَا، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾».

فالصلاحة تعتبر أفضل استثمار للإرادة، وبالتالي أفضل وسيلة لتنميتها، إنك حين تصلي لله تقاوم الذاتية في نفسك، وتحارب التفوق داخل زنزانة المصالح، وبتعبير أوجز تحارب الشيطان بكل جنوده. وفي كتاب «الكافي» عن الإمام الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِذَا هَالَهُ أَمْرٌ فَرَزَعَ إِلَى الصَّلَاةِ ثُمَّ تَلَاهُ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾».

نعم، الصلاة تربط الإنسان بالقدرة اللامتناهية التي لا يقهراها شيء، وهذا الإحساس يبعث في الإنسان قوة وشهامة على تحدي المشاكل والصعب. فحين الصلاة تهجم على الإنسان وساوس الشيطان لتبعده عن الاتصال بالله فتراه يركز نظره في الله، والشيطان يصرفه إلى شيء آخر غير الله، إلى الدراسة مثلاً أو إلى التجارة، أو إلى مشاكل البيت، أو... أو... وهو لا يزال في حالة حرب حتى تنتهي الصلاة، وهكذا سمي محل إقامة الصلاة «محراباً» لأنَّه فعلاً موقع حرب.

ويتلخص لنا مما سبق: أن الصبر والصلاحة يثلان قوتان هائلتان يجب الاستعانة بهما للانتصار على الضعف الداخلي. ولقائل أن يقول: ولكن الاستعانة بالصبر والصلاحة، صعبة هي الأخرى، فكيف نصبر وكيف نصلب؟

الجواب: علينا أن تخشع ونذلل غرور أنفسنا وكبرياتها الكاذب، بالتفكير الدائم في الآخرة حيث نتصور أنفسنا وقوفا أمام الله في المحكمة الكبرى، حيث ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾، وأعظم ما يستبعد البشر في الدنيا حب المال والبنين، فإذا تحرر من عبادتهما فقد فاز ﴿إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقُلْبٍ سَلِيمٍ﴾^(٥٣)، فإذا سلمَ القلب سلمت الجوارح، وسلامة القلب بتطهيره من حب الدنيا، لأن الدنيا رأس كل خطيئة، كما عن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَام^(٥٤). وجاء عن الإمام الصادق عَلَيْهِ الْكَلَام أيضاً في تفسير الآية المذكورة: «القلب الذي سلم من حب الدنيا»^(٥٥).

صادقنا عَلَيْهِ الْكَلَام وحق تلاوة القرآن الكريم

إن المؤمن الحقيقي هو الذي لا يحرف القرآن الكريم بل يتلوه حق تلاوته، كما قال الله تعالى: ﴿يَتَلَوْنَهُ حَقَّ تِلَوَتِهِ﴾^(٥٦)، وهو تعبير عميق يرسم لنا سبيلاً واضحاً تجاه هذا الكتاب العظيم، فالناس أمام الآيات الإلهية على أقسام: قسم يكرسون اهتمامهم على أداء الألفاظ بشكل صحيح وعلى قواعد التجويد، ويشغل ذهنهم دوماً الوقف والوصل والادغام والغنة في التلاوة، ولا يهتمون إطلاقاً بمحنتي القرآن بما بالك بالعمل به! وهؤلاء بالتعبير القرآني ﴿كَمَثَلُ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾^(٥٧).

فهم إنما راحوا يتسبّبون بالقصور، ويتهربون باسمه من الالتزام بمسؤولياتهم تجاه الرسالة الإلهية، والله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾^(٥٨)، فالقرآن الكريم يلغى أيّ تصور محدود عرقي أو قومي للرسالة الإسلامية بأنها تخص طائفة دون أخرى. بل إن رسالة الله فضل عظيم، ولكن أحداً لا يبلغ الفضيلة والكرامة بها إلا بعمل وتحمل للمسؤولية، وإلا فسوف يكونون كما وصفهم الله تعالى في الآية المتقدمة كمثل الحمار يحمل على ظهره كتاباً عظيمة، ينقلها من مكان إلى مكان وهو

لا يدرى ما تحتويه من كنوز علمية ذات معارف وجواهر الحكم، ولكنه لا ينتفع بها شيئاً، بل ينال منها تعباً. وفي هذا التشبيه دقة بالغة، فإن حمل قرآن الرسالة الإسلامية ليس باقتناء نصوصه في الجيب ورفوف المكتبة أو بجمعها وحملها على الرأس والكتف، كلام... وإنما الحمار أقدر على حمل عدد أكثر وزن أكبر من أسفار الرسالة.

وقد نظم الشعراء في هذا المثال شعراً لعل أطرافه قول بعضهم:

إن الرواة على جهل بما حملوا مثل الجمال عليها يحمل الودع
لَا الودع ينفعه حمل الجمال له ولا الجمال بحمل الودع تنتفع

وليس من أحد يشك في أن الانحراف الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية كان بسبب أدعية العلم والدين، أو ليس اليوم يحابون الإسلام باسم القرآن المظلوم؟ ويحرفون آياته الشريفة عن مواضعها فيجعلونها مسوغاً للطغاة لمارسة الظلم والإرهاب ضد الناس؟ ليحصلوا على دراهم معدودات من المترفين والمستكبرين. وهناك قسم آخر من الناس تجاه الآيات القرآنية، وهم الذين يتجاوزون إطار الألفاظ، ويتعملقون في المعاني، ويدققون في الموضوعات القرآنية، ولكن لا يعملون بما يفهمون.

وَقَسْمٌ ثَالِثٌ، وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ بِاعتِبَارِهِ كِتَابٌ عَمَلٌ، وَمِنْهُجٌ
كَامِلٌ لِلْحَيَاةِ، وَيَعْتَبِرُونَ قِرَاءَةَ الْأَلْفَاظِ وَالْتَّفْكِيرَ فِي الْمَعْنَى وَإِدْرَاكَ مَفَاهِيمِ الْآيَاتِ
الْكَرِيمَةِ مَقْدِمَةً لِلْعَمَلِ، وَلِذَلِكَ تَصْحُوا فِي نُفُوسِهِمْ رُوحٌ جَدِيدَةٌ كَلَمَا قَرَأُوا الْقُرْآنَ،
وَتَتَسَاعِدُ فِي دَاخِلِهِمْ عَزِيزَةٌ وَإِرَادَةٌ وَاسْتِعْدَادٌ جَدِيدٌ لِلأَعْمَالِ الصَّالِحةِ، وَهَذِهِ هِيَ
التَّلَاقُ الْحَقِيقَةُ.

ورد عن الإمام الصادق ع عليه في تفسير هذه الآية ﴿يَتَلَوَّهُ حَقَّ تِلَوَّتِهِ﴾: «يرتلون آياته، ويفقهون به، ويعملون بأحكامه، ويرجون وعده، ويحافظون على عيده، ويعبرون بقصصه، ويتأمرون بأمره، ويتهون بنواهيه، ما هو والله حفظ آياته، ودرس حروفه، وتلاوة سورة، ودرس أعشاره وأخواصه^(٥٩)، حفظوا حروفه وأضعوا حدوده، وإنما هو تدبر آياته والعمل بأحكامه، قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدْبَرُوا أَيَّاتِهِ﴾»^(٦٠).

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدْبَرُوا أَيَّاتِهِ﴾، فالقرآن أنزل لكي يعطي للإنسان المؤمن البصيرة والرؤية السليمة في الحياة، وهذا لا يمكن بالمطالعة السطحية، بل لا بد من تفكير عميق في الآيات.

والهدف الآخر بعد إدراك البصيرة أن تتعكس على حياة الإنسان فيتذكر بها ويصحح من خلالها في التفكير، وفي العمل منهجه. لأن العاقل هو الذي يعرف قيمة القرآن وأهميته، وهو الذي يتعرف على بصائره، ولا شك أن الذي يحكم عقله في الحياة هو الذي يستفيد من القرآن، أما الآخر الذي تحكمه شهواته فلن يتذكر به أبداً. من هنا قال الإمام الصادق ع عليه: «من لم يعرف الحق من القرآن لم يتنكب الفتن»^(٦١). وقال ع عليه: «من قرأ القرآن - مع تأدبه لحق تلاوته - فهو غنيٌ ولا فقر بعده، ولا ما به غنى»^(٦٢).

صادقنا ع عليه ومعيار التدبير

قال الإمام الصادق ع عليه: «صلاح حال التعايش والتعاشر ملء مكيالٍ، ثلاثة فطنة، وثلثة تغافل»^(٦٣).

كما يعلم قارئي الكريم أن أي عمل دون مطالعة وتحنطيط وبرامج سوف لا

يكون مستقيماً بل متعرجاً، مما يؤدي به إلى الفشل في الوصول إلى الهدف المراد بدقة. وكذلك لا يتنجز أي عمل دون إقدام وجرأة وإيلائه أهمية فائقة، وبعبارة أفضل وأوضح: إنْ أردنا القيام بعمل دون تغافل عن ودقة فإننا سنخفق في ذلك العمل، وإن أردنا الاستغراق في كفاية الاحتمالات الممكنة والحوادث غير المتوقعة حين القيام بالأعمال ففي هذه الحالة لا يسعنا القيام بعمل، وعليينا المطالعة لسنوات من أجل العمل، ومن هنا قال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة فطنة، وثلثة تفافل»، فاللازم هو أن يتحرك الإنسان من موقع المرأة والفتنة لا من موقع الإهمال والوسواس والإفراط في الدقة.

صادقنا عليه السلام وخطورة القلم

قال الإمام الصادق عليه السلام: «لم أر بأكيا أحسن تبسمًا من القلم»^(٦).

كما يعلم قارئي النبيه أن القلم مبين العواطف وترجمان عقل الإنسان، ويعتبر هو المشيد لصرح الحضارات والمحرك لعجلة المجتمع، فالقلم هو الحافظ للعلوم، المدون للأفكار، الحارس لها، وحلقة الاتصال الفكري بين العلماء والقناة الرابطة بين الماضي والحاضر، وبين الحاضر والمستقبل. نعم فالقلم يربط بين بني البشر المتبعدين من الناحية الزمانية والمكانية، وهو مرآة تعكس صور المفكرين على طول التاريخ في كل الدنيا وتجتمعها في مكتبة كبيرة. والقلم حافظ للأسرار، مؤمن على ما يستودع، خازن للعلم، وجامع للتجارب عبر القرون والأعصار المختلفة، فالقلم له دور أساسي في الحياة الإنسانية ومصير البشرية^(٦).

ونستوحى من كل ذلك أن موقع القلم هو خدمة الدين والعلم، لا تضليل الناس أو استبعادهم، ولا يكون ذلك إلا إذا تسلح به المؤمنون لينالوا منه الكرامة

والعزة وفتح آفاق العلم، قبل الجبارين الطغاة ومرتزقهم السفلة، الذين يجعلونها مأجورة مسمومة ومضلة.

فالقلم يشرح ببكائه المتواصل آلام الإنسانية المفجعة، وتخزن ابتساماته حيوية الحب وعشق الحياة وسرها و مختلف صور الجمال. ولكن للأسف إذا وقع هذا القلم بأيد مأجورة جرت سيول الدماء من قطرات دموعه، وكما تكون ابتساماته استهزاء بأنبل القيم الإنسانية، فيعتبر عندئذ أعظم بلاء وأكبر خطر على المجتمعات الإنسانية.

فما أكثر الجرائم التي ترتكب بواسطة القلم، وما أكثر وقائع الظلم والجحود التي تترسخ من مداد القلم، وهنيئا للأقلام التي تتحرك في خط الحق والعدل، وتنتاج الخير والفضيلة، وهذا ما أراده الإمام الصادق علیه السلام من حدیثه المتقدم، والله العالم، وقد قدم للأمة إنجازات علمية عظيمة على الصعيدين الحاضر والمستقبل، فسلام على روحه الطاهرة، يوم مات ويوم يبعث حيا، وطوبى للمهتدين بهداه.

المواهش:

- (١) الشورى: ٢٣
- (٢) الشعراء: ١٢٧، نجد ذات الآية مكررة في هذه السورة في الآيات: ١٤٥، ١٤٩، ١٦٤، و ١٨٠.
- (٣) سباء: ٤٧
- (٤) الأعراف: ١٥٨
- (٥) ميزان الحكمة ج ١، رقم الحديث ٧٩٥
- (٦) وسائل الشيعة، الباب ١١ من أبواب صفات القاضي، الحديث ١، نقلته بتصرف بسيط.
- (٧) آل عمران: ٣١
- (٨) ميزان الحكمة، ج ٢، رقم الحديث ٣١٧٧

- (٩) نفس المصدر، الحديث .٣١٧٨
- (١٠) نفس المصدر، الحديث .٣١٩١
- (١١) نفس المصدر، الحديث .٣٢١٩
- (١٢) نفس المصدر، الحديث .٣١٣٥
- (١٣) نفس المصدر، الحديث .٣١٣٦
- (١٤) نفس المصدر، الحديث .٣١٣٠
- (١٥) نفس المصدر، الحديث .٣٠٨٩
- (١٦) تفسير الثقلين، ج ٤، ص ٥٧٣
- (١٧) نفس المصدر، ص ٥٧٢
- (١٨) ميزان الحكمة، ج ١، رقم الحديث ٩١٧، وقد وردت من طريق الشيعة، ومن طريق السنة.
- (١٩) يونس: ٣١
- (٢٠) وقد رتب هذه البحوث وهذبها وحاول توثيقها بشواهد ومصادر تاريخية الأستاذ عادل الأديب في كتابه الأئمة الاثني عشر.
- (٢١) الزمر: ٦٠
- (٢٢) تفسير البرهان للبحراني، ج ٤، ص ٨٢
- (٢٣) أصول الكافي، ج ١، ص ٥١، باب روایة الكتب والأحادیث، حديث رقم ١٤
- (٢٤) ميزان الحكمة، ج ٤، رقم الحديث ٧٦٢٤
- (٢٥) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤
- (٢٦) بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ٢٣٧
- (٢٧) نفس المصدر، ص ٢٤٠
- (٢٨) تفسير الميزان للطباطبائي تبَثَّ بتصرُّف.
- (٢٩) تفسير مجمع البيان، ج ١، ص ٢١
- (٣٠) البقرة، ٣
- (٣١) تفسير مجمع البيان، وتفسير نور الثقلين، في تفسير الآية المذكورة.

- (٣٢) البقرة، ٢٦٨.
- (٣٣) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣، الآية ٣٤، من سورة التوبة.
- (٣٤) التوبه، ٣٥.
- (٣٥) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٣٦) المقصود بها أربعة آلاف درهم لأنها مخارج السنة.
- (٣٧) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية محل البحث، وتفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٣٨) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٢١٤.
- (٣٩) كما ذكره الراغب في مفرداته.
- (٤٠) كما ورد في تفسير مجمع البيان، وتفسير الميزان.
- (٤١) بحار الأنوار، الطبعة الجديدة، ج ٣، ص ١١١.
- (٤٢) ميزان الحكمة، ج ٥، رقم الحديث ٩٣١٢.
- (٤٣) من تفسير في ظلال القرآن، ج ١، ص ٥٣، بتصرف.
- (٤٤) يوسف: ١٠٦.
- (٤٥) سفينۃ البحار، ج ١، ص ٦٩٧.
- (٤٦) ميزان الحكمة، ج ٥، رقم الحديث ٩٣٠٩، بتصرف.
- (٤٧) البقرة: ٢٦.
- (٤٨) تفسير البرهان للبيهاني، ج ١، ص ٧٢.
- (٤٩) كتاب الكافي، نقاً عن تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٦٢.
- (٥٠) آل عمران: ١٤٢.
- (٥١) البقرة: ٤٥.
- (٥٢) تفسير مجمع البيان للطبرسي، ذيل الآية المذكورة.
- (٥٣) الشعراء: ٨٨ - ٨٩.
- (٥٤) ميزان الحكمة، ج ٣، رقم الحديث ٥٨١٥، بتصرف بسيط.
- (٥٥) تفسير مجمع البيان، ج ٥، ص ١٦١، طبعة بيروت.

. ١٢١) البقرة: ٥٦)

(٥٧) الجمعة: ٥، والمراد من «أَسْفَارٌ» أي كتبًا.

. ٣٨) المدثر: ٥٨)

(٥٩) المقصود من الأعشار والأحماس تقسيمات القرآن.

(٦٠) الرواية من تفسير الميزان، ومن ميزان الحكمة، ج ٨، رقم الحديث ١٦٢١٧، مع فارق بسيط،
والآية الكريمة من سورة ص: ٢٩.

(٦١) ميزان الحكمة ج ٨، رقم الحديث ١٦١١٩.

(٦٢) نفس المصدر، بتصرف توضيحي في الرواية برقم ١٦١٤٣.

(٦٣) ميزان الحكمة، ج ٧، رقم الحديث ١٤٩٢٣.

(٦٤) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص ١٠٩.

(٦٥) وسائل الشيعة، ج ١٨، ص ٥٦، انظر حديث رقم ١٤، ١٦، ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، هذا وقد
استقيت الكثير من الأفكار والرؤى بعد القرآن الكريم، والسنّة الشريفة من خلال الموسوعة
الإسلامية والتفسيرية المختلفة ومن هنا وهناك بتصرف.

بحث حول نشأة التشيع

صادق جعفر علي اللواتي

نظرة في نشأة التشيع

يعتبر المذهب الشيعي من أبرز المذاهب الإسلامية تواجداً في العالم الإسلامي وعلى قول إيه يأتي في المرتبة الثانية بعد الأشاعرة (السنة) فيشكل الشيعة اليوم ثلث المسلمين بناء على هذا القول، وقد تعددت الآراء في سبب نشوء مذهب التشيع فبعض ذهب إلى أن أساس هذا المذهب كان بعد بيعة السقيفة فذهب ثلاثة من أصحاب أمير المؤمنين -أمثال المقاد وعمار وسلمان وأبي ذر الذين عُبر عنهم بالأربعة في الروايات الشريفة وتتابعت الآراء في نشأة هذا المذهب - فمنهم من قال: إن بدايته كانت مع زوال خلافة عثمان بن عفان واستلام أمير المؤمنين عَلَيْهِ الخلافة السياسية وذلك لمناسبة الأجواء آنذاك لاحتضان دعوة الولاية للإمام على عَلَيْهِ. لم تقف النظريات عند هذا الحد فمنها من ذهب أن بداية التشيع كان بعد ثورة الإمام الحسين عَلَيْهِ بكرباء وتحديداً مع حركة التوابين الذين سمي زعيمهم سليمان بن صرد الخزاعي بشيخ الشيعة مع وجود قول إن المختار الثقفي هو الذي كان وراء تأسيس التشيع، أما أضعف الأقوال وأووهنها ما ذهب إليه بعض السلفية في أن الذي أسس مذهب الشيعة هو عبد الله بن سبا اليهودي.

وقد عزى السيد محمد باقر الصدر انتشار اعتقاد الباحثين أن التشيع ظاهرة طارئة في المجتمع الإسلامي هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلوا إلا جزءاً ضئيلاً من مجموع الأمة الإسلامية وهذا ما دعى البعض إلى الاعتقاد بأن اللاثيع هو الأصل والقاعدة، وأن

التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف أسبابها.

من هم الشيعة؟

قبل أن نخوض في أي بحث لا بد أن نعرف الذي نريد البحث عنه وعليه فإن تعريف الشيعة سيكون في ثلاثة جهات:

١- ما هو المقصود بالشيعة لغة؟

٢- من هم الشيعة في اصطلاح المسلمين؟

٣- من هم الشيعة في مقام هذا البحث؟

لغة: تعني الفرقة من الناس كما جاء في لسان العرب ويطلق أيضاً على الأتباع، وأطلق المسلمون مصطلح الشيعة على كل من شاعر أمير المؤمنين عَلَيْهِ السَّلَامُ بختلف فرقهم ومذاهبهم فمنهم الزيدية والإسماعيلية والغلاة والواقفة على رأي أن كل إمام كان واجه واقفية في زمانه إلا أنهم في عهد الإمام الرضا أى الذين وقفوا على الإمام الكاظم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ومن هنا يظهر أن المقصود بالشيعة في المقام هم الشيعة الاثنا عشرية الذين يوالون أئمة أهل البيت من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إلى الحجة بن الحسن المنتظر عَلَيْهِ السَّلَامُ وهنا أشير أن آية الله العظمى الشيخ جواد التبريزي قد تألف رسالة جمع فيها الروايات الصحيحة الواردة في تعين أسماء الأئمة الاثني عشر منصوص عليهم من النبي والأئمة واحداً تلو الآخر بخلاف ما ذهب إليه الإسماعيلية والزيدية وغيرهم.

مناقشة الآراء

الآراء التي ذكرت نشوء التشيع عديدة سأنقل بعضها بحيث إذا عرفنا كيفية الرد

عليها ستكون لدينا صورة عن الأوضاع السائدة في تلك الحقبة الزمنية:

١- الرأي القائل أن الذي أسس مذهب الشيعة هو عبدالله بن سبا الذي أسلم من اليهودية، وقيل إنه بقى على يهوديته فجاء عند أمير المؤمنين ودرس عنده ثم دعا الناس إلى علي عليهما السلام وبث التفرقة بين صفوفهم وهكذا كانت بداية التشيع كما ذهب القائلون بهذا الرأي فنقول ردا على هذا الادعاء:

أولاً: إن المذهب الذي يعتقد فكرة شخص ما لا بد أن يرجع إليه في أقواله واستدلالاته فيقال قال فلان أو نقل عن فلان حتى يصدق أنهم يرجعون إليه أو يأخذون عنه فلا نرى الشيعة ينسبون شيئاً من كلامهم إلى هذا الرجل.

ثانياً: إنك إذا كنت تقول إن فلاناً تلميذ فلان لا بد أن يصدق عرفاً أنه حضر عنده لا أن يقال روى عنه كذا روایات هذا إذا كنا نقول بصدق تلکم الروایات فإن علماء المذاهب الأخرى قبل الشيعة ذهبوا إلى أن هذا الرجل وضاع زنديق لا يأخذ بروايتها، فلا نرى الشيعة يذكرونها من تلامذة أمير المؤمنين حتى إذا فرضنا أن ما رواه صحيح.

ثالثاً: إن استمرار أي حركة أو فكر باستمرار رجالات ذلك الفكر أي وجود تلاميذ أو أشخاص يتبعون صاحب هذا الفكر أو الاتجاه حتى يكون لهم وجود واستمرارية على مر الأزمان ولا نرى لابن سبا تلاميذ تبنوا حركته وأخذوا بفكرة فهو رجل اخترى كما ظهر من المغمورين الذين لا يعتد برأيهم أو كلامهم أو حتى سلوكهم.

ولعل الذي دعا أصحاب هذا القول إلى الاقتناع بفكرة عبدالله بن سبا هو ما نقل عنه أنه كان يقول جاء في التوراة... أنَّ علي بن أبي طالب وصي رسول الله عليه وآله و إله و إن كان الشيخ الوائلي يرى أن الذي روج لفكرة عبدالله بن سبا ينطلق

من غايات غير سليمة، هذا حتى نتعرف أن قصة ابن سبأ هذا أكذوبة لا أساس لها من الصحة.

-٢- من الآراء التي ذكرت نشوء التشيع علقت ذلك بشورة الإمام الحسين عليه السلام وبعد ذلك نشأ هذا المذهب ومنهم من قال ونقصد بذلك تبلور الفكر السياسي للشيعة، ويتبين ذلك من خلال الثورات التي قام بها الشيعة عقب مصريع الإمام شهيدا بأرض كربلاء.

يناقش هذه الرأي في جانبيين:

أحدهما: أنَّ الذي قال بهذا القول غفل عن وجود أحداث قبل ثورة الحسين هي التي مهدت للثورة وأعني بتلكم الأحداث صلح الإمام الحسن، ومن العجيب أن نطق على طريق الثورات أنه سياسي ونقول لما ليس ثورة هو لا سياسة، فالسياسة كما يقولون فكر وعمل ليس بالضرورة أن يكون طريق الغلبة هو الثورة دائماً، والرجل السياسي يدرك ذلك جيداً فإنه يصل إلى مبتغاه دون اللجوء إلى السيف، بل يمكن أن يكون ذلك متاحاً دون سفك الدماء، وهذا ما فعله الإمام الحسن فمن أنصار معدودين على الأصابع إلى اثنين وسبعين شخصاً مستعدون أن يضحوا بأرواحهم من أجل الحسين إلى الآلاف المؤلفة الذين فقط تناهى إلى سمعهم مصريع الحسين بن فاطمة، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على الحنكة السياسية للإمام الحسن الذي يعتبره الشيعة إماماً معصوماً ولها عليهم في كل شيء، وبالتالي دلالة لفكر سياسي شيعي متين.

الثاني: إن قولنا أن نشوء التشيع بعد مصريع الحسين بن علي عليه السلام هذا أمر مجانب للحقيقة والصواب؛ لأن الواقع يقول إن وجود ما يسمى بشيعة علي عليه السلام كان

أمراً متعارفاً لدى سائر الناس فضلاً عن السلطة الأموية المتمثلة بيزيد ومعاوية لعائن الله عليهما، وقد كلف ابن زياد عندما أوفده يزيد واليا على الكوفة مكان النعمان بن بشير قبل وصول الحسين إلى العراق أن يبيد شيعة علي بأجمعهم ولا يبقي لهم باقية، وقد قام ابن زياد بهذا الدور باتقان شديد، بل وصل إلى حد أنه كان يقتل بالتهمة وأرسل جواسيسه أمثال معقل وغير معقل لينقلوا له الصورة عن ما هو سائد في الكوفة ولكن يشاء الله أن تقام ثورة الحسين عليهما فتقلب الموزعين على أعداء الله، والله متم نوره ولو كره الكافرون.

نعم يمكن القول إن ثورة الإمام الحسين ساعدت على بقاء الإسلام كإسلام محمدي النبع خالصاً لما آلت إليه الوضع بعد حكم يزيد بن معاوية الذي عاث في الأرض فساداً ليمحو صورة الإسلام بل سولت له نفسه أن يتطاول على أعظم رمز للمسلمين، وهي الكعبة المشرفة فيضر بها بالمنجنيق، فكانت ثورة شهيد كربلاء إحياء للضمائر الميتة ضد حكم الأمويين.

٣- الرأي الثالث والأخير الذي سيناقش في هذا المختصر هو الذي قال إن قيام التشيع كان بعد مقتل عثمان والتلاف الناس حول أمير المؤمنين علي عليهما السلام وتسلمه مقاليد الخلافة السياسية. من هنا كانت البداية لنشأة التشيع وظهور مصطلح الشيعة أو شيعة علي عليهما السلام.

وي يكن أن نقف مع هذا الرأي وقفه سريعة في جانبين أيضاً: أحدهما: صحيح أن الناس التفت حول أمير المؤمنين عليهما طلباً للعدالة الاجتماعية لكن الذين أطلقوا عليهم هذه التسمية أشخاص معدودون اختارهم أمير المؤمنين غير العصبة المخلصة وهم الأربعة فكان من شيعته مالك الأشتر وميثم

التمار ورشيد الهجري من عرف أنهم حملوا علم المنايا والبلايا، وهنا أحب أن أشير إلى إشارة أخلاقية أنه ورد عن أهل بيته العصمة: «شيَّعْنَا مِنْ أَنْقَى اللَّهِ» وقال الصادق عليه السلام: «شيَّعْنَا أَهْلَ الورعِ والاجتِهادِ، وَأَهْلَ الوفاءِ والأُمَانَةِ، وَأَهْلَ الرَّهْدِ وَالْعِبَادَةِ، أَصْحَابُ إِحْدَى وَخَمْسِينَ رَكْعَةً فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، الْقَائِمُونَ بِاللَّيْلِ الصَّائِمُونَ بِالنَّهَارِ، يَزْكُونَ أَمْوَالَهُمْ وَيَمْجُونَ الْبَيْتَ وَيَمْتَبِّنُونَ كُلَّ مُحْرَمٍ»^(١).

الثاني: إن مصطلح الشيعة لم يكن حادثاً أَبَانَ الخلافة الظاهرية أو السياسية للإمام علي عليه السلام بل نلاحظ وجود هذه التسمية حتى بعد أحداث السقيفة فوجدت ثلاثة سميت بالشيعة أو شيعة علي عليه السلام وسيأتي في خضم الكلام أن النبي هو أول من سَمَّى هذه التسمية.

متى نشأ التشيع؟

بقي أن نتساءل هل فعلًا ما يقال إن التشيع نشأ عقب وفاة النبي وبعد بيعة السقيفة أم قبل ذلك وسيتضمن المعرض الناشئ عنه هذا التساؤل عندما نقول:
أولاً: إن النبي عليه السلام عندما جاء برسالته العظيمة وأنذر عشيرته الأقربين كما دعوه الآية فبلغ الشهادتين، ثم قال: أيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصيي وخليفي من بعدي، فلم يقم منبني هاشم سوى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهو لم يتجاوز العاشرة فأخذ النبي برقبته وقال: «إن هذا أخي ووصيي وخليفي فيكم فاسمعوا له وأطعوه»^(٢).

نلاحظ أن النبي عليه السلام أمر بطاعة أمير المؤمنين عليه السلام ونصبه خليفة قبل أن يأمر بأي شيء لا صلاة ولا صيام بل أول ما فعله أنه نصب خليفة ووصيًا له وأمر الناس بطاعته.

ثانياً: إن النبي ﷺ أوصى غير مرة بطاعة علي عليه السلام واتباعه، منها ما نقله السيبوطي بسنده عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي ﷺ فأقبل علي عليه السلام فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إن هذا وشيته هم الفائزون يوم القيمة»^(٣)، فنزل قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُ الْبَرِيَّةُ﴾^(٤) ولعل آخر إشارات النبي وأكثرها ظهوراً وإن كانت كلها ظاهرة لما جمع الناس في غدير خم وأمرهم ببaita العلية الإمام علي عليه السلام.

يظهر مما ذكر أن الأصل في الإسلام الحمي هو البقاء على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام فالتشييع ليس ظاهرة جديدة بل نشأته مع نشأة الإسلام بل هو الامتداد الطبيعي للإسلام أو ما عبر عنه السيد محمد باقر الصدر إنه نتيجة طبيعية للإسلام، بل إن اللاتشييع هو الجديد والطاريء على الإسلام فلا يصح أن نقول متى نشأ التشييع لأنك إذا عرفت نشأة الإسلام فقد عرفت نشأة التشييع لأن اتباع علي والائمه الطاهرين من صميم الإسلام وهو عينه ما أمر به النبي الأكرم ﷺ.

الإمام الصادق مؤسس قواعد التشييع

يتبادر إلى الذهن عندما نقول أن الإمام الصادق مؤسس التشييع أن المذهب لم يكن له أساس يعتمد عليه، ولكن بالعكس إن وجود أساس قوي للمذهب متمثلاً بإمامية الثاني عشر عليه السلام هو الذي حفظ التشييع من الانحراف مع الشبهات والتخاريات المختلفة وقد يقال إن الإمام الصادق عليه السلام هو من أسس القواعد الصحيحة في العلوم المختلفة من العقيدة والفقه والتفسير وغيرها بتأسيس جامعته المعروفة وذلك لأن الناس كانوا يعيشون خواص فكرياء لعاملي رئيسيين:

أولاً: كثرة المسائل المستحدثة العقائدية منها والفقهية، والناس لا يعرفون كيفية

الإجابة على تلكم المسائل.

ثانياً: بعد عن زمن النبي الأعظم عليه وآله وسلامه وعدم كفاية الأحاديث التي وصلت في سد الفراغ الذي أصاب الأمة الإسلامية، خصوصاً إذا أخذنا بالاعتبار أن المسلمين مروا بتجربة قاسية بمنع تدوين الحديث وغيرها من الفتن.

باللحظة هذين العاملين ظهرت مدارس تتخطى بينها وشمالاً بإعمال الرأي تارة والاستحسان والقياس تارة أخرى وفي خضم هذه الأزمة ظهر فكر الإمام الصادق عليه السلام فياضاً عملاً ما جعل الناس يشدون إليه الرجال لأشباع حاجاتهم الفكرية وما زاد مصداقية الإمام وانجداب الناس إليه بالإضافة إلى سيرته الناصعة وأخلاقه الرفيعة مقالته حديسي حديث أبي وحديث رسول الله عليه وآله وسلامه، فتراه للناس النبي عليه وآله وسلامه في صورة الإمام الصادق عليه السلام كونه حاملاً للعلوم النبوية الإلهية فترى العلماء في مختلف البلاد يقولون حدثني جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، لكن سرعان ما بدأ ذوو المصالح والسياسيون بإعاد الناس عن الإمام لنشرهم بين الناس أنه يدعو إلى نفسه لكن معين الإمام لم ينضب فاستفاد منه الشيعة وخسره الآخرون فذهبوا لمخالفته مع أنهم حضروا مجلسه ودرسوه عند أمثال أبي حنيفة النعمان القائل: "لولا السنستان لهلك النعمان".

وببدأ الإمام بتربية أصحابه تربية علمية على مختلف الأصعدة واختيار البارزين منهم وأعطائهم القواعد وأمرهم بالتبليغ فعلى سبيل المثال هشام بن سالم ومؤمن الطاق برزوا في الجانب العقائدي فأمرهم بالتصدي في هذا الجانب بقوله هشام كلام أهل المدينة. أما زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم الذي تتلمذ على يد الإمام الباقي ثم الصادق عليه السلام، فكان يقول لزرارة مثلاً: أجلس في المسجد وافت الناس فإني أحب أن يرى في شيعتي مثلك... وغيرهم من تلامذة الإمام الذين حملوا فكره ونشروه بين

العباد والبلاد وبصورة عامة، فإن أغلب ما وصل إلينا من أحاديث فقهية أو عقائدية هي من كلام الإمامين الバاقر والصادق عليهما السلام، فنلاحظ محمد بن مسلم يقول: حفظت أربعين ألف حديث من أبي جعفر في الحلال والحرام.

وخلاصة القول: صحيح أن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام أسساً للمذهب الأصول والفروع العملية لكن هذا لا يعني أن الأئمة الذين سبقوهم لم يقوموا بذلك، بل لأن الحاجة هي التي أبرزت الإمامين كقوة علمية في ذلك الوسط، وهذا ما استدعي تصدي الباقررين الصادقين عليهما السلام لهذا الجانب، والذي لم يكن متاحاً في عهد أمير المؤمنين عليهما السلام مثلاً، أو في عهد الإمام زين العابدين عليهما السلام حيث الحصار السياسي وغيره... هذه جملة من أمور كثيرة أدت إلى نسبة الشيعة للإمام الصادق عليهما السلام حيث عرفوا بالجعفريّة، إلا أن منشأهم وبدايتهم مع بداية الإسلام العظيم، فالمؤسس الأول للتشيع هو رسول الله عليهما السلام.

ونسأل الله عزوجل أن يُعجل في فرج إمامنا صاحب العصر والزمان ويوفقنا لتطبيق الإسلام الذي أسسه رسول الله عليهما السلام وحافظ عليه أهل البيت و يجعلنا من الشابتين على ولایة أمیر المؤمنین والائمة المعصومین عليهما السلام والحمد لله رب العالمين.

المواهش:

- (١) صفات الشيعة، الشيخ الصدوق، ص.٢
- (٢) الغدير، العلامة الأميني، ج.٢، ص.١٧٩
- (٣) الدر المنشور، السيوطي، ج.٦، ص.٣٧٩
- (٤) سورة البينة: ٧

ابن أبي الحيط بين الاعتزال والتشيّع

حسن عبدالله القصاب

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلوة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين،
محمد وآلـه الطيبين الطاهرين.

مقدمة البحث

قد يتصور البعض بأن تهمة التشيع لعلي ابن أبي طالب عليه السلام عندما تطلق على بعض الأعلام والعلماء تسبّب لهم التضعيف والخدش في صحة ما ينقله أو ما يرويه، وقبل قبول هذا التضعيف أو التهمة يجب علينا أن ننظر في هذه التهمة ونجعلها في قفص البحث، ولا يمكننا أن نتنازل للخصم لأي إشكالٍ وشبهة يطرحها، ونسايره في مبانيه الخاطئة، بل يجب على العلماء تبيين الآراء الصحيحة من السقية، وتوضيح المباني الصحيحة من الخاطئة، وتفهيم الطرف الآخر من المخالفين خطأ ما يتوهمنون، لا المسایرة لما يدعون والقبول بما يقولون.

نعم، يوجد صنفان من المخالفين: الأول: يمكنه إقناعه بهذه الحقيقة ويمكنك إلزامه بأقوال هؤلاء الرجال والأعلام، والصنف الثاني: وهم المتشددون والمتعصّبون والذين لا يقبلون الحق بتاتاً ويرفضون كل فكرة تناقضها وتطرحها عليهم، نحن لا يمكننا أن نناظر الصنف الثاني ونستدل عليه بما ورد عن هؤلاء الأعلام -كابن أبي الحديد المعتزلي- ولكن أقول: حتى لو أنك استدلت على كلامك وعقيدتك بما يطرحه ابن تيمية فإنه سيماطل عن الحق ويرفضه.

وفي هذا البحث أسعى لكي أسلط الضوء أولاً على ضابطة التشيع، وكيف نحكم

بأنَّ فلاناً شيعياً أو لا؟ وهذه كبرى البحث، وفي المقام الثاني: نرى ونطبق هذه الكبرى على الأعلام الذين أطلقوا عليهم هذه التهمة، والمقام الثالث: نستشهد على ما نذهب إليه من بعض كتبه ونبين جملة من عقائده وأرائه حتى يتبيَّن الحق في النسبة أو بطلانها، لنحصل على نتيجة وهي صحة الاحتجاج على الخصم بما ورد في كتب المخالفين المتهمين بالتشييع أو لا.

المقام الأول: في بيان من هم الشيعة وأهم عقائدهم؟

الشيعة كلمة أصلها (شيع)، وقد ذكر اللغويون تحت هذه المادة أنها تُطلق على الجماعة والفرقة التي لها أفكار ومعتقدات واحدة يشتراكون فيها.

وعند المتكلمين والفقهاء أن الشيعي هو من تابع علىَّ ابن أبي طالب واعتقد بإمامته، وفي هذا الصدد نستشهدُ بعض كلمات أهل اللغة في معنى مفردة (الشيعة):

١- قال الخليل ابن أحمد الفراهيدي رحمه الله في كتابه العين (المتوفى في القرن الثالث): "والشِّيَعَةُ: قومٌ يَتَشَيَّعُونَ، أي: يَهُوُونَ أَهْوَاءَ قَوْمٍ وَيَتَابِعُونَهُمْ. وَشِيَعَةُ الرَّجُلِ: أَصْحَابُهُ وَأَتَبَاعُهُ. وَكُلُّ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا عَلَىْ أَمْرٍ فَهُمْ شِيَعَةٌ".^(١)

٢- قال ابن منظور في كتابه لسان العرب (المتوفى في سنة ٧١١ هـ): "القَوْمُ الَّذِينَ يَجْتَمِعُونَ عَلَىِ الْأَمْرِ... وَأَصْلُ الشِّيَعَةِ الْفِرْقَةُ مِنَ النَّاسِ، وَيَقْعُدُ عَلَىِ الْوَاحِدِ وَالْاثْنَيْنِ وَالْجَمْعِ وَالْمَذْكُورِ وَالْمَؤْتَمِنِ بِلِفْظٍ وَاحِدٍ وَمِعْنَى وَاحِدٍ، وَقَدْ غَلَبَ هَذَا الْإِسْمُ عَلَىِ مَنْ يَتَوَالَى عَلَيْهِ وَأَهْلَ بَيْتِهِ (رَضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ) حَتَّىٰ صَارَ لَهُمْ اسْمًا خَاصًّا فَإِذَا قِيلَ: فَلَانُّ مِنَ الشِّيَعَةِ عُرِفَ أَنَّهُ مِنْهُمْ... وَأَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْمُشَايِعَةِ؛ وَهِيَ الْمُتَابِعَةُ وَالْمُطَاوِعَةُ؛ قَالَ الْأَزْهَرِيُّ -صَاحِبُ مَعْجَمِ تَهْذِيبِ الْلُّغَةِ- : وَالشِّيَعَةُ قَوْمٌ يَهُوُونَ هُوَ عِتَرَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَوَالُونَهُمْ".^(٢)

٣- قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (المتوفى في سنة ٣٩٥):
”الشيعة: الأعوان والأنصار“^(٣).

نكتفي بهذا المقدار من علماء أهل اللغة، ونلاحظ أنَّ اللغويين قد أخذوا من لفظة الشيعة هي إجتماعهم على أفكار معينة وينتفقون عليها، وهذه اللفظة واضحة عند ابن منظور فهو أكثر من فضل في معنى الشيعة، وذكر بأنَّ هذه اللفظة تطلق على من يُتابع ويوالى عليًّا ابن أبي طالب وأهل بيته عليهما السلام.

نستعرض بعض كلمات علماء أهل السنة في معنى الشيعة ومنهم:

١- الشهريستاني في الملل والنحل (المتوفى ٥٤٨ هـ):

”الشيعة هم الذين شايعوا عليًّا وقالوا بآياته وخلافته نصًا ووصايةً إما جليًّا وإما خفيًّا واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بحقيقة من عنده“^(٤)، وذكر الشهريستاني بعض المعتقدات الأساسية للشيعة نذكرها حتى يقف عليها المنصف: ”وقالوا ليست الإمامة قضية مصلحية تُناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم (أي العامة)، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين لا يجوز للرسل عليهم الصلاة والسلام إغفاله وإهماله ولا تقويضه إلى العامة وإرساله. ويجتمعهم (أي الشيعة) القول بوجوب التعين والتنصيص وثبتوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوابًا عن الكبار والصفائر والقول بالتولي والتبرير قولاً وفعلاً وعقدًا إلا في حال التقى“^(٥).

٢- ابن خلدون في تاريخه (المتوفى ٨٠٨ هجرية):

”إعلم أنَّ الشيعة لُفَّة هم الصحبُ والأتباعُ، ويُطلقُ في عُرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليٍّ وبنيه حَفَّاظَتْه“^(٦).

وبعد ذلك يستعرض ابن خلدون مسألة الإمامة ورأي الشيعة فيها فيقول:

"ومذهبهم جميعاً متفقين عليه أنَّ الإمامة ليست من المصالح العامةِ التي تُفُوضُ إلى نظرِ الأمةِ وتعيينُ القائمُ بها بتعيينِهم (أي تعين الأمة)، بل هي ركنُ الدينِ وقاعدةُ الإسلامِ، ولا يجوزُ لنبيٍ إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة، بل يجبُ عليه تعين الإمام لهم، ويكونُ مخصوصاً من الكائِن والصَّفَر..."⁽⁷⁾

٣- محمد فريد وجدي في كتابه دائرة معارف القرن العشرين:
”والشيعة هم الذين شایعوا علیاً في إمامته و اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، ويقولون بعصمة الأئمة من الكبائر و الصغائر و القول بالتألي و التبری قولاً و فعلًا إلا في حال التقى إذا خافوا بطش ظالم“^(٨)

ونقفُ على كلمات أحد العلماء الإمامية في هذا الصدد، حيث يقول العالمة السيد محسن الأمين رحمه الله صاحب كتاب أعيان الشيعة: ”قال المرتضى رحمه الله في كتاب العيون والمحاسن من كتاب المجالس للمفید: هم (أئمّة الإماميّة) القائلون بوجوب الإمامة والعصمة ووجوب النص، وإنما حصل لها هذا الاسم في الأصل لجمعها في المقالة هذه الأصول، وقال السمعاني في الأنساب: الإمامية جماعة من غلاة الشيعة، وإنما اُتّقِبوا بهذا اللقب لأنهم يرون الإمامة لعلي وأولاده ويعتقدون أنه لا بد للناس من الإمام وينتظرون إماماً سيخرج في آخر الزمان يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

أقول (والقول للأمين): تبرأ الإمامية الاتنا عشرية من كل غالٍ في أحدٍ من أهل البيت مخرج له عن درجة العبودية...”^(٩).

بعد هذا الإستعراض الموجز لبعض كلمات اللغويين وبعض العلماء من كلا الفريقين نخرج بنتيجة مهمة وحساسة، وهي المحور الأساسي في بحثنا هذا. والنتيجة هي: أنَّ المعيارَ والضابطةَ لإطلاقِ ونسبةِ التشيعِ للآخرين تعتمدُ على اثناء هذا الفرد إلى أمر المؤمنين وأهل بيته الطاهرين علَّا لهم، والاعتقادُ بامامتهم

وموالاتهم والبراءة من أعدائهم، والالتزام بسائر العقائد التي قررها علماء الإمامية في مصنفاتهم، وهذه العقائد هي التي تُعتبر فيصل بين المذهب الشيعي والمذهب المخالف له، وأمّا لو اعتقد بشيءٍ من عقائد الشيعة الإمامية من دون التوسيع الكامل لهم والبراءة الكاملة لأعدائهم فلا يُعتبر هذا الفرد شيعياً بالمصطلح الخاص.

بعد استخلاص هذه النتيجة يجدر بنا أن نوضح للقارئ الكريم أنَّ مصطلح التشيع قد يُطلق ويراد به معنىًّا غيرَ الذي ذكره آنفاً وذلك بسبب ملاكات مختلفة، ولمزيد من البيان والإيضاح أنقلُ لك - أيها القارئ الكريم - كلاماً لسماعة العلامة الحقّ الشيخ السبحاني عليه السلام حيث يقول:

"١. الشيعة: من أحبَّ علياً وأولاده باعتبارهم أهل بيت النبي ﷺ الذين فرض الله سبحانه مودتهم، قال ﷺ: «فُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى»^(١٠)، والشيعة بهذا المعنى تعمُّ كل المسلمين إِلَّا النواصب، بشهادة أنَّهم يُصلون على نبيِّهم وآله في صلواتهم وأدعياتهم ويتلذّلون الآيات النازلة في حقِّهم صباحاً ومساءً...".

ويُكمل فيقول: "٢. الشيعة: من يُفضلُ علياً على عثمان أو على الخلفاء عمّا مع اعتقاده بأنَّه رابع الخلفاء، وإنما يقدم لاستفاضة مناقبه وفضائله عن الرسول الأعظم ﷺ، والتي دونها أصحاب الحديث في صحاحهم ومسانيدهم...".

ويضيف المعنى الثالث فيقول: "٣. الشيعة: من يُشایع علياً وأولاده باعتبار أنَّهم خلفاء الرسول ﷺ وأئمة الناس بعده، نصبهم لهذا المقام بأمر من الله سبحانه"^(١١).

بعد ذكر ما قاله العلامة الحقّ عليه نقول: إنَّ المعنى الأول والثاني لا يمكننا التسامح في إطلاقهما على المذهب الشيعي المعروف الآن وال منتشر في العالم الإسلامي، فالأخير إذا أعتبرنا أنَّ الحبة هي الأساس لم يكن هناك أي فرق بين المسلمين، ولا يكن تقسيم المسلمين إلى سُنة وشيعة.

والمعنى الثاني (وهو تفضيل الإمام علي على عثمان أو سائر الخلفاء) لا يمكن الإعتماد عليه أيضاً كضابط صحيح للتفريق بين الشيعي والسنّي، والسبب يرجع إلى أنَّ علماء المحرح والتعديل استخدموه هذا النبز (الشيعي والتشييع) لإسقاط الرواية والروايات التي فيها شمة تشيع، فلا يجدون طريقة للطعن في هذه الروايات إلا اتهامهم بالتشييع، فترفض الروايات، ولكن هل هذه النسبة صحيحة أم لا؟! لا يهتمون بها. وهل هذا ميزانٌ صحيحٌ في المحرح والتعديل؟ فهو موضوع يحتاج إلى بحثٍ مستقل.

فيبيقي المعنى الثالث هو الذي يحمل الضابطة الصحيحة للتفريق بين الشيعي من السنّي، وهي اعتبار الاعتقاد بإمامية علي ابن أبي طالب والأئمة من ذريته عليهما السلام، والقول بأنهم منصوبون بأمر الله تعالى، والقول بعصمتهم جميعاً عليهما السلام، وهذه من أهم العقائد التي يتلزم بها سائر الموالون لأهل البيت ويعتقدون إمامتهم، وهم المسّمون بالشيعة الإمامية الثانية عشرية.

المقام الثاني: هل ابن أبي الحديد شيعي؟!

وبعد ذكر المقام الأول نكون قد تعرّفنا على الضابط في كون الشخص منتمياً إلى المذهب الشيعي، وبعبارة أخرى (يتشييع)، وهو كونه ينتمي فعلاً إلى العقائد الإمامية، ولا تكفي التُّهمة والشبهة.

ومن أهم تلك العقائد هي القول بأنَّ الخليفة بلا فصل بعد رسول الله ﷺ هو الإمام علي ابن أبي طالب عليهما السلام، وأنه منصوب من قبل الله ، وأنَّ الأئمة الاثني عشر كلّهم معصومون، وأنَّ الإمامة في ولديه الحسينين عليهما السلام، وبعد الحسين إلى علي ابن الحسين زين العابدين ثم في ولده إلى الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن المهدي المنتظر أهل الكمال.

نبذة عن ابن أبي الحميد

هو عز الدين بن هبة الله بن محمد بن الحسين بن أبي الحميد المدائني، أبو حامد: عالم بالأدب، وله شعر جيد واطلاع واسع في التاريخ، ولد في المدائني في عام ٥٨٦هـ وانتقل إلى بغداد وخدم الدوادين السلطانية وبرع في الإنشاء، وكان حظياً عند الوزير ابن العلقمي. وكان فقيهاً متكلماً جديلاً ثاقب النظر، وله من المصنفات تزيد على الخمسة عشر مصنفاً، مات سنة ٦٥٥هـ ١٢٥٨م.

القول في مذهبة

أما فيما يرتبط بذهب ابن أبي الحميد، فلو رجعنا إلى بعض كتب التراجم والتاريخ نجد أن بعض المؤرخين ينسبه إلى الإعتزال من دون أي تردد أو شك أو غمز في هذه النسبة، في حين أن البعض الآخر ينسبه تارة إلى الإعتزال وأخرى إلى التشيع، ويبدو أن السبب الذي جعل هذا البعض ينحي هذا المنحى هو التعصب الأعمى، فهو يريد تضليل الرجل بأي شكل كان.

النموذج الأول:- الذي قال بأنه معتزلي:

١- الكبي صاحب كتاب (فوات الوفيات) المتوفى سنة ٧٦٤هـ، حيث قال: "... عبد الحميد بن هبة الله بن محمد بن أبي الحميد عز الدين المدائني المعتزلي الفقيه الشاعر الأديب..."^(١).

٢- الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨هـ) في تاريخه قائلاً: "... المدائني المعتزلي الفقيه الشاعر الأديب..."^(٢)، ويقول الذهبي عندما وقف لترجمة أخيه الموفق (أخوه عبد الحميد): "... وكانا من كبار الفضلاء وأرباب الكلام والنظم والنشر والبلاغة، والموفق أحسنهما عقيدة، فإن العز معتزلي، أجارنا الله"^(٣).

٣- الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤هـ) في الوفي بالوفيات: "... المدائني المعتزلي
الفقيه الشاعر ...".^(١٥)

٤- الزركلي صاحب (الأعلام) (المتوفى سنة ١٤١٠هـ) قال: "... عبد الحميد ...
بن أبي العميد، أبو حامد، عز الدين: عالم بالأدب، من أعيان المعتزلة، له شعر جيد
وإطلاع واسع في التاريخ...".^(١٦)

النموذج الثاني:- الذي نسب إليه الاعتزال والتشييع:

ابن كثير في البداية والنهاية (المتوفى سنة ٧٧٤هـ)، حيث قال: "وفيهما كمل شرح
الكتاب المسمى بنهج البلاغة في عشرين مجلداً مما ألقه عبد الحميد بن داود بن هبة
الله بن أبي العميد المدائني الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمي، لأنّه كان شيعياً
معتزلياً".^(١٧) ويقول في نفس الجزء: "ابن أبي العميد عز الدين المدائني الكاتب
الشاعر المطبق الشيعي الغالي، له شرح نهج البلاغة في عشرين مجلداً...".^(١٨)

فهو تارةً ينسبه إلى الإاعتزال وأخرى إلى التشييع بل يعبر بالغالي، فهذا الأمر إن
دل على شيء فهو يدل على تحبّط ابن كثير في إصدار الأحكام والنسب لجميع من
يخالفونه في المذهب والإعتقداد، وأنّه لا يُفرّق بين الاعتزال ومذهب التشييع، وهو أمرٌ
واضح من يجعل له نصيب للتأمّل في المذاهب والفرق.^(١٩)

وعلى كل حال، فلو أردنا أن نبحث ونتحرّر من الخلفيات التي نبني بها أفكارنا
ومعتقداتنا، ورجعنا إلى شرحه الكبير والمعلوم (شرح نهج البلاغة) وتصفحنا
الكتاب لوجدنا بأن ابن أبي العميد يُصنّف نفسه في ضمن أتباع المذهب المعتزلي،
وعبارته في مقدمة كتابه خير دليل وشاهد على ذلك، ولا يحتاج الباحث والتأمّل
الكثير من الجهد والنصب لكي يتعرّف على مذهبه.

إليكم بعض الشواهد التي يمكننا تلمس مذهب ابن أبي الحديد وبوضوح، وأنه يُصرّح في بعضها بأنه من مذهب المعتزلة، وفي آخرى من كلماته ينتقد آراء الشيعة الإمامية، وخصوصاً فيما يرتبط بالخلافة والإمامية، والتي ذكرنا سابقاً بأن هناك عقائد أساسية عند الإمامية حتى يُطلقوا اسم التشيع عليه.

الشواهد تحكم

الشواهد في نسبته إلى مذهب المعتزلة:

١- عندما بدأ في ذكر رأي المعتزلة في الإمامة والتفضيل والبغاء والخوارج قال: "القولُ فيما يذهب إليه أصحابنا المعتزلة في الإمامة..."^(٢٠). فإنَّ عبارة أصحابنا المعتزلة واضحة الدلالة على أنه من المعتزلة، ولو كان في مذهبِ يخالف المعتزلة لما اعتمد على كلمة أصحابنا، وكان من الأنسب أن يقول "ذهب المعتزلة مثلًا في الإمامة ..." من دون ذكر أصحابنا.

٢- قوله: "اتفقَ شيوخنا كافّة رحمهم الله، المتقدمون والتأخرون والبغداديون والبغداديون على أنَّ بيعة أبي بكر الصديق بيعةٌ صحيحةٌ شرعية، وأنّها لم تكن عن نصٍّ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبتَ بالإجماع...". يتضح من هذه الكلمة أنه معتزلي يرى ويقول ما تقوله شيوخ المعتزلة سواء من البصريين أو البغداديين.

ولو تأملنا بيسراً ورجعنا إلى السبب الأساسي للخلاف بين السنة والشيعة نجده في خلافة الخلفاء، وأنَّ الشيعة عقيدتهم فيها كون أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام هو الخليفة والإمام المنصوب من قبل الله تعالى، وأنَّ أهل السنة يعتقدون بأنَّ أبو بكر هو الخليفة الذي اختاره الناس للخلافة. فلو كان ابن أبي الحديد كما يزعم البعض من المتعصّبين شيعياً لذهبَ لما تقوله الشيعة الإمامية في أهم مسألة

عقائدية، ونراه قد عرض رأيهما في الخلافة من دون أي خلاف أو ذكر للخلاف عند المعتزلة.

٣- حينما ذكر اختلاف المعتزلة في مسألة التفضيل، وذكر الأقوال والعلماء الذين اختلفوا فيها، بين تفضيل الخلفاء على أمير المؤمنين عليهما السلام وبين تفضيله عليهم. فيقول: "وَمَا نَحْنُ فِي ذَهَابٍ إِلَى مَا يَذَهَّبُ إِلَيْهِ شِيوخُنَا الْبَغْدَادِيُّونَ، مِنْ تَفْضِيلِهِ عَلَيْهِ..."^(٢١). وقد ذكرنا في النبذة أن ابن أبي الحديد قد انتقل إلى بغداد وعاش فيها حتى توفي، فهو ينسب نفسه إلى طائفة علماء المعتزلة البغداديين.

٤- حينما ذكر رأي علماء المعتزلة في حكم البغاء على أمير المؤمنين عليهما السلام فقال: "أَمَّا أَصْحَابُ الْجَمْلِ فَهُمْ عِنْ أَصْحَابِنَا هَالِكُونِ كَلُّهُمْ إِلَّا عَائِشَةُ وَطَلْحَةُ وَالزَّبِيرُ، رَحْمَهُمُ اللَّهُ فَإِنَّهُمْ تَابُوا، وَلَوْلَا التُّوْبَةُ لَحُكْمِ لَهُمْ بِالنَّارِ لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى الْبَغْيِ"^(٢٢). فهذا الشاهد بالإضافة إلى أنَّ فيه دلالات لفظية على كونه معتزلياً، فإنَّ رأيهما (أي المعتزلة) تجاه أصحاب الجمل مختلف عن رأي الشيعة الإمامية في السيدة عائشة وطلحة والزبير؛ فإنَّ الإمامية يقطعنون بأنَّ كلَّ من خرج وبغي على الإمام المعصوم فهو هالك، وأمَّا فذلكة التوبه فهي تحتاج إلى دليل خاص حتى يخرجوا من دائرة البغي على الإمام العادل.

الشواهد في مناقشة عقائد الشيعة:

١- يقول ابن أبي الحديد: "وَتَزَعَّمُ الشِّيَعَةُ أَنَّهُ خَوَطَ بِفِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - (أمير المؤمنين)..."^(٢٣) إلى آخر كلامه. فلو كان الرجل ينتمي إلى مذهب الشيعة لَمَّا عَبَّرَ بِلِفْظَةِ (تزعم الشيعة).

٢- في قوله: "وُدُّعَيْ بَعْدَ وَفَاتَ رَسُولُ اللَّهِ بِوَصِيَّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لِوَصَايَتِهِ إِلَيْهِ بِمَا أَرَادَهُ، وَأَصْحَابُنَا لَا يَنْكِرُونَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّ يَقُولُونَ: إِنَّهَا لَمْ تَكُنْ وَصِيَّةً بِالْخَلَافَةِ..."^(٢٤).

نستفيد مخالفته لرأي الإمامية من إنكاره كون الإمام علي وصيّ رسول الله ﷺ ، وهو خلافٌ لما يعتقد الشيعة الإمامية قاطبة، فإنّ رأي الإمامية أنها كانت وصاية ترتبط بالإمامية والخلافة من بعده ﷺ .

٣- في قوله: ”وَأَخْتُلَفُ فِي مَوْلَدِ عَلِيٍّ أَيْنَ كَانَ؟ فَكَثِيرٌ مِّنَ الْشِّيَعَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ وُلِدَ فِي الْكَعْبَةِ...“^(٢٥) . فإنّ استعمال لفظة يزعمون لا تتناسب والقول بأنّ مذهب التشيع بالمعنى الذي ذكرناه آنفاً مع أنّ الإمامية قاطبة قد أجمعوا على هذا القول، بل نقل ولادته في الكعبة جمهور من الصحابة والتابعين والمحدثين، خلافاً لما يزعمه ابن أبي الحميد^(٢٦).

٤- في شرحه لكتاب الإمام علي عليه السلام في المنافقين: «لا يُقاس بآل محمد من هذه الأمة أحدٌ... ولم خصائص حقّ الولاية، وفيهم الوصيّة والوراثة»، فقال ابن أبي الحديد: ”... ثم ذكر خصائص حق الولاية... فأمّا الإمامية فيقولون: أراد نصّ النبي عليه وعلى أولاده، ونحن نقول: لهم خصائص حقّ ولاية الرسول على الخلق”. ثم قال عليه السلام: «وفيهم الوصيّة والوراثة»، فأمّا الوصيّة فلا ريب عندنا أنّ علياً كان وصيّ رسول الله ﷺ ، وإن خالف في ذلك منْ هو منسوب عندنا إلى العِناد، ولسنا نعني بالوصيّة النصّ والخلافة، ولكن أموراً أخرى لعلّها -إذا لمحت- أشرف وأجل. وأمّا الوراثة فالأئمّة يحملونها على ميراث المال والخلافة، ونحن نحملها على وراثة العلم^(٢٧) .

نقول: لا يخفى بأنّ ابن أبي الحديد يذكر مواطن الخلاف بين رأي الإمامية وأهل السنة، وهو في أكثرها يقف ويفيد رأي أهل السنة وينقد رأي الشيعة الإمامية، فكيف ينسبون إليه التشيع وحاله هذا؟ أمّا بالنسبة إلى الوراثة، فالشيعة الإمامية يحملونها -بالإضافة إلى وراثة العلم- على وراثة الخلافة والإمامية من بعد النبي الأكرم ﷺ .

٥- شرحة لكلام الأمير عَلَيْهِ الْمَوْضِعُ: «... إِذْ رَجَعَ الْحُقُّ إِلَى أَهْلِهِ، وُنْقَلَ إِلَى مُتَّقْلَهِ»^(٢٨)
، فقال ابن أبي الحديد: "... وهذا يقتضي أن يكون فيما قبل في غير أهله، ونحن
نتأوّل ذلك على غير ما تذكره الإمامية"^(٢٩). فمنه يتبيّن بأنَّ الحق كان مع الخليفة
الأول لا مع علي بن أبي طالب عَلَيْهِ الْمَوْضِعُ، ولا يرى أيَّ حُقُّ لعلي بن أبي طالب عَلَيْهِ الْمَوْضِعُ في
أمر الخلافة والإمامية، بل يتأوّل ذلك بتاويل بعيد جدًا ليس هنا محل مناقشته.

٦- وقوفه على خطبة الشقشيقية فأورد على لسان مستشكل قائلًا: إن قيل:
يُنَوِّلُنَا مَا عَنْكُمْ فِي هَذَا الْكَلَامِ؟ أَلَيْسَ صَرِيحُهُ دَالًّا عَلَى تَطْلِيمِ الْقَوْمِ وَنَسْبَتِهِمْ إِلَى
اغتصابِ الْأَمْرِ! فَمَا قَوْلُكُمْ فِي ذَلِكِ؟ إِنْ حَكَمْتُمْ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ (أي بالغصب) فَقَدْ طَعْنَتُمْ
فِيهِمْ، وَإِنْ لَمْ تَحْكُمُوا عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فَقَدْ طَعْنَتُمْ فِي الْمُتَظَلِّمِ الْمُتَكَلِّمِ عَلَيْهِمْ (وَهُوَ عَلَى ابْنِ
أَبِي طَالِبٍ)!^(٣٠). قيل: أمّا الإمامية من الشيعة فتُجْرِي هذه الألفاظ على ظواهرها،
وتذهب إلى أنَّ النَّبِيَّ نَصَّ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَنَّهُ غُصِّبَ حُقُّهُ. وأمّا أصحابنا رحمهم
الله...».

فأخذ يؤوّل كلام الأمير الواضح في اغتصاب حقه والخلافة، ولسنا في صدد
بيان المازعة في الخلافة، وإنما نورد هذه الأمور حتّى يتبيّن للباحث الحقيقة في
مذهب ابن أبي الحديد، وجهل من ينسبه إلى مذهب الحق -الإمامية- مع هذا
الإصرار في تفنيد آراء الإمامية. وهناك الكثير من الشواهد التي كان يناقش فيها
معتقدات الإمامية أعرضنا عنها حتّى لا نُطيل على القارئ العزيز.

شواهد آخرى مقابلة

وهناك بعض الشواهد قد يتوجه منها المتوهّم أنَّ ابن أبي الحديد يتّشيع، ذكر
منها:

١- حول الخلفاء وبعض الأصحاب:

لقد أورد ابن أبي الحديد المعتزلي بعض المواقف التي لا يُحَبّذ ذكرها أهل السنة وال العامة، من قبيل ما ذكره في أخلاق الخليفة الثاني من الغلظة والخشونة والرعونة في تعامله مع الناس، حيث يقول: "وقد بقي هذا الخلق متوارثًا متناقلًا في محبيه وأوليائه إلى الآن -ويقصد الدعاية في علي ابن أبي طالب- كما بقي الجفاء والخشونة والوعورة في الجانب الآخر، ومن له أدنى معرفة بأخلاق الناس وعوائدهم يعرف ذلك" ^(٣١).

وينقل أيضًا عن أخلاق عمر يقول: "وكان في أخلاق عمر وأفاظه جفاء وungehie ظاهرة -يحسبه السامع لها أنه أراد بها ما لم يكن قد أراد، ويتوهم من تُحكى له أنه قصد بها ظاهراً ما لم يقصد، فمنها الكلمة التي قالها في مرض رسول الله ﷺ. ومعاذ الله أن يقصد بها ظاهرها! ولكنها أرسلها على مقتضى خشونة غريزته، ولم يتحفظ منها. وكان الأحسن أن يقول: ((مفمور)) أو ((مغلوب بالمرض))، وحاشاه أن يعني بها غير ذلك!" ^(٣٢).

ونراهً عندما يقف على أحداث عثمان فيقول فيها: "وخلالصة ذلك أن عثمان أحدث أحداثاً نَقِمَّها النّاس عليه، من تأميربني أميّة، ولا سيّما الفساق منهم وأرباب السّفه وقلة الدين، وإخراج مال الفيء إليهم، وما جرى في أمر عمّار وأبي ذر وعبد الله ابن مسعود جعفر بن عبد الله..." ^(٣٣) فأخذ ابن أبي الحديد يورد بعض الأحداث الأخرى.

فهذه الأحداث التي قالها ابن أبي الحديد لا يرتضيها المسلك الأموي من المسلمين الذين يعيشون في وسطنا، وهذا المسلك ذكرنا سابقاً وجوده وهم أتباع ابن تيمية وابن عبد الوهاب. وعندما نقف على مؤلف من هذا المسلك نجده يذكر نفس مبررات عثمان ويحاول جاهداً أن يُثبت صحتها، ويدافع دفاعاً مستميتاً لرده هذه الأحداث ومعارضة الأجلاء من الصحابة لعثمان بن عفان.

ولا يقفُ الأمر عند الدفاع وحسب، بل يجعل هذا المسلك من أفضل ما الف في هذا المجال لردّ شبهات الشيعة وغيرهم، فهم دائمًا ما يقتبسون وينشرون هذا الكتاب فيما بينهم^(٣٤).

نموذج آخر لا يرضي أهل السنة الإجهاض به وإعلانه صراحةً، لأنّه سيهدم ركن ركين وعقيدة يعتقد بها أهل السنة وهي عدالة جميع الصحابة، وهذا النموذج يذكره عندما خطب أمير المؤمنين بذري قار فمما ذكره زيد بن صوحان: ... ثم رفع يديه فقال: «اللهم إن طلحة والزبير قطعاني، وظلماني، وألب عليّ، ونكثا بيّ، فاحلّ ما عقدا، وانكث ما أبرما، ولا تغفر لهم أبداً، وأرهمما المساءة فيما عملا وأمراً»^(٣٥).

وقفة قصيرة

استطراداً أعلق على الكلمة التي قيلت في مرض رسول الله ﷺ، فأقول: حاول النسّاخ والمشرفين على طباعة الصحاح أن يخففوا من وطأة هذه الكلمة القاسية لرسول الله ﷺ، فمن يتبع النسخ والطباعة الجديدة نجد هم قد حذفوا، أو ذكروها على سبيل الاستفهام لتخفييفها فيقولون تارة: قال رجلٌ في الدار (هجر ...)، وفي طبعة أخرى: وكان في الدار عمر و... فقال قائلٌ: (أهجر ...). وأماماً هذا المقطع فإن ابن أبي الحديد يُسلّم بأن القائل هو الخليفة الثاني ولكنه يؤوّل.

فتعذر ابن أبي الحديد أنَّ عمرَ قد قالها، ولكنه لا يقصد منها معناها الظاهريّ، نعم نرمي جميع القرائن المحيطة بالحدث ونسمع تأول المعتزلي، والغريب أن المعتزلي يُعيّب على الإمامية في بعض الموضع في كتابه أنَّ الإمامية تأوّل بالتأويلات بعيدة جداً^(٣٦). نترك الحكم للمنصف!!

لا نقول بأن هذه أدلة على أنَّ ابن أبي الحديد شيعياً ولكن لو جمعنا القرائن التي

ذكرها في الشرح نجد الكثير منها لا يرتاح لها من ترثي على تقدير الصحابة وبني أمية، كمن يدافعون عن بني أمية ومعاوية ويزيد، فهذا الصنف من العامة لا يروق له ذكر هذه المخازي للصحابة وبني أمية.

وهذا نجد الذي ينسب ابن أبي الحديد إلى التشيع بل إلى الغلو هم من أصناف ابن كثير المتعصب وابن تيمية وابن عبد الوهاب، وهذه الثلة المنحرفة عقائدياً عن أمة محمد ﷺ.

وللأسف الشديد أن يكون أتباع هؤلاء المنحرفين إعلام مضلل وتضليل للأموال من أجل تحريف التاريخ وتقدير بنى أمية، وإصدار الكتب التي تُسيء إلى أهل البيت وبالخصوص أمير المؤمنين ووالده المؤمن (أبو طالب)، وينتقدون موقف أمير المؤمنين تجاه الخارجين عليه والمارقين عن ولائه^(٣٧).

٢- مساوئ بنى أمية:

سار ابن أبي الحديد في شرحه لنهج البلاغة في ذكر نبذ تاريخية لبعض الشخصيات التي كانت لها أدواراً في التاريخ الإسلامي، سواء كان الدور إيجابياً أو سلبياً.

وكما ذكرنا آنفاً بأنّ أحفاد بنى أمية لا يروق لهم ذكر مساوئ ومخازي أجدادهم، فشارت في نفوسهم حيّة الجاهلية تجاه ابن أبي الحديد المعترض عندما سطّر هذه الأمور، وكان الأولى بهؤلاء أن يخضعوا للأمر الواقع، لكنّه الحقد الدفين المتواتر منذ زمن هاشم وأمية، فسرى الحقد من بنى أمية إلى بنى هاشم، وهو الآن أيضاً سارٍ من أتباع أولئك إلى أتباع هؤلاء.

نسب معاوية الوضيع

معاوية بن أبي سفيان، نكّتهُ سوداء على جبين التاريخ الإسلامي، ويكتفيه ضعّةً أن يكون منسوباً لأربعة من قريش، وأمه آكلة الأكباد وهي تذكرة في مكة بفجور وعهر^(٣٨).

حقده لأمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ

ذكر المعزلي: "وكان معاوية على أنسٍ الدهر مبغضاً لعلي عَلَيْهِ الْكَلَمُ، شديد الانحراف عنه، وكيف لا يبغضه وقد قتل أخيه حنظلة يوم بدر، وخاله الوليد بن عتبة، وشرك عمّه في جده وهو عتبة... وقتل منبني عمّه عبد شمس نفراً كثيراً من أعيانهم وأمثالهم، ثم جاءت الطامة الكبرى واقعة عثمان، فنسبها كلها إليه بشبهة إمساكه عنه، وإنضواء كثير من قتاته إليه عَلَيْهِ الْكَلَمُ، فتأكّدت البغضة، وثارت الأحقاد، وتذكّرت تلك التّرات الأولى، حتى أفضى الأمر إلى ما أفضى إليه"^(٣٩).

ورد عن النبي الأكرم أنه قال: «حبٌّ عليٌّ إيمان وبغضه نفاق (بغضه كفر)».

ومعاوية كان مبغضاً لعلي ابن أبي طالب، فهو منافق على أقل تقدير، لو لم نحكم بكفره. سواء كان هذا البعض من أجل أخيه أو عمّه وبيني عبد شمس أو لغيرها من الأمور التي ذكرها ابن أبي الحديد في مقالته.

وآخر ما ختم ابن أبي الحديد قوله في معاوية أن قال: "ومعاوية مطعون في دينه عند شيوخنا رحمهم الله، يرمي بالزنقة"^(٤٠).

فما بعد الرندة شيء يذكر، فهو منافق وكافر وأخيراً زنديق، ويواصل حدثه عنه فيقول: "وقد ذكرنا في نقض السفيانية على شيخنا أبي عثمان الحاجط ما رواه أصحابنا في كتبهم الكلامية عنه (أي معاوية) من الإلحاد والتعرّض لرسول الله، وما

تظاهر به من الجبر والإرجاء، ولو لم يكن شيء من ذلك، لكن في محاربته الإمام ما يكفي في فساد حاله، لا سيّما على قواعد أصحابنا، وكونها بالكبيرة الواحدة يقطعون على المصير إلى النار والخلود فيها إن لم تكفرها التوبّة^(٤١).

حقد معاوية لشيعة علي عليه السلام

لقد سردَ ابنُ أبي الحديد المعتزلي بعض المواقف التاريخية التي قام بها معاوية بن أبي سفيان منها:

بسر بن أرطاة: وهو مبعوث معاوية إلى اليمن في جيش كثيف، وأمره أن يقتل كلَّ من كان في طاعة علي، فقتل خلْقاً كثيراً، وقتل فيمن قتل ابني عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وكانا غلامين صغيرين^(٤٢).

وقد أوردَ المعتزلي جملة من الواقع الجديرة بالمطالعة لمعرفة مدى حقد مبعوث معاوية إلى شيعة علي ابن أبي طالب عليهما السلام، وصحابة رسول الله عليهما السلام.

ومنها موقف بسر بن أرطاة من جابر بن عبد الله الأنصاري عليهما السلام، فيقول جابر: لما خفتُ بُساً وتواترت عنـه، قال لقومي: لا أمان لكم عندـي حتـى يحضر جابر، فأتوـني وقلـوا: نـنـشـدـكـ اللهـ لـمـ اـنـطـلـقـتـ مـعـنـاـ فـبـاـيـعـتـ، فـحـقـنـتـ دـمـكـ وـدـمـاءـ قـوـمـكـ، فـإـنـكـ إـنـ لـمـ تـفـعـلـ قـتـلـتـ مـقـاتـلـيـنـاـ، وـسـبـيـتـ ذـرـارـيـنـاـ. فـاسـتـنـظـرـتـهـمـ اللـلـيـلـ، فـلـمـ أـمـسـيـتـ دـخـلـتـ عـلـىـ أـمـ سـلـمـةـ فـأـخـبـرـتـهـاـ الـخـبـرـ، فـقـالـتـ: يـاـ بـنـيـ، اـنـطـلـقـ فـبـاـيـعـ، وـاحـقـنـ دـمـكـ وـدـمـاءـ قـوـمـكـ؛ فـإـنـيـ قـدـ أـمـرـتـ اـبـنـ أـخـيـ أـنـ يـذـهـبـ فـبـاـيـعـ، وـإـنـيـ أـعـلـمـ بـأـنـهـاـ بـيـعـةـ ضـلـالـةـ^(٤٣).

ولما انتهى بسر بن أرطاة من الإرهاب والقتل والتشريد لشيعة علي والآمنين في مكة المكرمة والمدينة المنورة كتب كتاباً إلى معاوية قائلاً: "أَحْمَدَ اللَّهَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ

أني سرتُ في هذا الجيش أقتل عدوك ذاهباً وجائياً لم ينكب رجل منهم نكبة، فقال معاوية: الله قد فعل ذلك لا أنت^(٤٤).

وقد أشار المعتزلي في نسبة عقيدة الجبر إلى معاوية وهذا شاهد بسيط على هذه العقيدة الفاسدة، وهي نسبة فعل العبد إلى فعل الله سُجَّلَهُ وَعَالَ. فيلزم من ذلك نسبة الظلم والقتل الذي فعله بسر إلى الله (تعالى الله علوًّا كبيرًا). وهناك الكثير من الشواهد التي ذكرها ابن أبي الحديد، أعرضنا عنها حتى لا يطول البحث في هذه المسألة.

القول الفصل

وبعد هذه الإطلالة السريعة على بعض الترجم والتاريخ وبعض الشواهد من كتاب ابن أبي الحديد، نجد الحقيقة ماثلة أمام أعين النصفين، ويتبين للقارئ الكريم أنَّ القول الفصل في مذهب عبد الحميد ابن أبي الحديد هو الإعتزال لا التشيع. وأنَّ الذين نسبوا إليه هذه النسبة كانت تؤثِّر فيهم البيئة التي يعيشون فيها، وتكون أحكامهم متأثرة بالأجواء التي هم فيها وعلى خلفيتها يحكمون.

والخلاصة التي أردتُ أن أصل إليها من هذا البحث هي صحة الإحتجاج على المخالفين بما ورد في كتاب ابن أبي الحديد وبالتحديد شرح النهج، وأنَّ إنكار هذا الأمر يُعدُّ جهلاً بالتاريخ والفرق الإسلامية.

المواهش:

- (١) كتاب العين للخليل ابن أحمد الفراهيدي مادة (شيع).
- (٢) لسان العرب مادة (شيع).

- (٣) معجم مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا مادة (شيع).
- (٤) الملل والنحل للشهرستاني: ج ١ ص ١٤٦.
- (٥) المصدر السابق.
- (٦) تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ١٩٦.
- (٧) تاريخ ابن خلدون: ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧.
- (٨) دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٤.
- (٩) أعيان الشيعة للسيد محسن الأمين: ج ١ ص ٢٠.
- (١٠) سورة الشورى الآية ٢٣.
- (١١) بحوث في الملل والنحل للعلامة الحق آية الله العظمى الشيخ السبحاني ج ٦ ص ٧ - ٩ بتصرّف يسير.
- (١٢) فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى ج ١ ص ٦٠٩.
- (١٣) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٤٨ ص ٢٠٢.
- (١٤) سير أعلام النبلاء للذهبي ج ٢٣ ص ٢٧٥.
- (١٥) الوافي بالوفيات للصفدي ج ١٨ ص ٤٦.
- (١٦) الأعلام لـ خير الدين الزركلي ج ٣ ص ٢٨٩.
- (١٧) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢١٢.
- (١٨) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٣ ص ٢٣٣.
- (١٩) ارجع إلى أي مصنف صنف في الملل والنحل والفرق الإسلامية تجدهم يذكرون الشيعة منفصلين كلياً عن المعتزلة. بل المعتزلة قد نشأت بعد قرن من الزمن في التاريخ الإسلامي.
- (٢٠) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٥.
- (٢١) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١٧.
- (٢٢) المصدر السابق: ص ١٧.
- (٢٣) المصدر السابق: ص ١٩.
- (٢٤) المصدر السابق: ص ١٩.

- (٢٥) المصدر السابق: ج ١ ص ٢٠.
- (٢٦) من أراد الإطلاع في هذا الأمر فعليه أن يرجع إلى كتاب الغدير للعلامة الشيخ عبدالحسين الأميني رحمه الله.
- (٢٧) شرح نهج البلاغة: ج ١ ص ١١٠ - ١١١.
- (٢٨) شرح النهج: ج ١ ص ١١٠ من كلامه في المنافقين.
- (٢٩) شرح النهج: ج ١ ص ١١١.
- (٣٠) شرح النهج: ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٣.
- (٣١) شرح النهج: ج ١ ص ٢٩.
- (٣٢) شرح النهج: ج ١ ص ١٤٢.
- (٣٣) شرح النهج: ج ١ ص ٣٤٨.
- (٣٤) الكتاب هو (العواصم من القواسم) مؤلفه ابن العربي (الناصبي) وتحقيق محب الدين الخطيب. وكذلك (منهاج السنة) لابن تيمية الحرّاني.
- (٣٥) شرح النهج: ج ١ ص ٢٢٧.
- (٣٦) شرح النهج: ج ١ ص ١٢٣ ، في مسألة تأويل كلمة (وعصى آدم ربّه فنوى) وتنزيه نبي الله آدم عن المعصية، وحمل الكلمة الغواية العدول عن الأولى.
- (٣٧) من يريد الإطلاع على هذه الكتب فليرجع إلى الرسائلات الجامعية من جامعة الملك فيصل بالرياض.
- (٣٨) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٦ بتصريف يسير.
- (٣٩) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٧ - ٢٤٨.
- (٤٠) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩.
- (٤١) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩.
- (٤٢) شرح النهج: ج ١ ص ٢٤٩ بنصرف يسير في المتن.
- (٤٣) شرح النهج: ج ٢ ص ٢٦٤ - ٢٦٥.
- (٤٤) شرح النهج: ج ٢ ص ٢٦٩.

بحث في التوسل

مفهومه - أنواعه - الأدلة على مشروعيته

أحمد محمود اللواتي

الهدف من البحث

يهدف هذا البحث - باختصار شديد - إلى بيان حقيقة التوسل ومشروعيته من خلال استعراض الأدلة النقلية والبراهين العقلية ومن خلال توزيعه إلى أنواعه وأقسامه المختلفة. كل ذلك لما أداه التوسل من جدل واسع عند بعض الأفراد من المسلمين والذين قاموا على ضوء فهمهم السطحي له بالسرعة إلى تكفير القائلين به وحتى الذهاب إلى ما هو أبعد من ذلك وهو جواز قتلهم..... وما لحقه ذلك من ويلات أصابت المسلمين من حينها.

منهجية البحث

البحث ينقسم إلى عدة أقسام يبدأ ببيان معنى التوسل في اللغة والاصطلاح ثم يشرع في سرد أنواع التوسل وبيان معانيها والأدلة عليها، وبعدها يتسع في توضيح النوع الأخير منه - وهو التوسل بالمعصومين والصالحين - وتدعميه بالأدلة العقلية والنقلية. والبحث عبارة عن حصيلة مجمعة مما كتبه العلماء الأعلام في مختلف الكتب المتفقة وفيه محاولة لمehlerة الأبحاث المترقبة واختصار ما ذكره علماؤنا في بيان مشروعيته - جزاهم الله خير الجزاء - الذين بذلوا النفس والنفيس في سبيل خدمة هذا الدين وأوضحوا معالله وأموراً أخرى كثيرة منها التوسل ومشروعيته لما أشاره

التوسل من خلاف على ما ذكرناه في البداية.
وفي آخره يسرد البحث بعض الإشكالات الواردة والرد عليها انتهاءً بخاتمة
توضيحفائدة من فوائد التوسل وذكر أهمية من أهمياته.

تعريف التوسل في اللغة والاصطلاح

التوسل في اللغة:

قال الجوهرى في الصحاح -مادة وسل-: "الوسيلة هي ما يتقرب به إلى الفير،
والجمع الوسيل أو الوسائل ويقال توسل فلان إلى ربه بوسيلة أي تقرب إليه بعمل"^(١).
وقال القرطبي في تفسيره: "الوسيلة هي القربة -نقاً عن أبي وائل والحسن
ومجاهد وقتادة وعطاء والسدي وابن زيد وعبدالله بن كثير- وهي فعيلة من توسلت إليه
أي تقربت"^(٢). وقال ابن منظور في لسان العرب: "توسل إلى الله بوسيلة أي تقرب إليه
بعمل ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا تقرب إليه، والوسيلة هي القربة والدرجة والمترلة
 عند الملك"^(٣).

وقال الخليل في كتاب العين: "التوسل لغة من وسلت إلى ربي وسيلة أي عملت
 عملاً أقرب به إليه وتوسلت إلى فلان بكتاب أو قرابة أي تقربت به إليه"^(٤). وقال ابن
 الأثير في النهاية: "الوسيلة هي القربة وما يتوصل به إلى شيء ويقرب به"^(٥).

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: "الوسيلة هي التوصل إلى الشيء برغبة وهي
 كالقربة"^(٦). وقال ابن فارس في معجم المقايس: "الوسيلة هي الرغبة والطلب ويقال
 وسل إذا رغب والواسل الراغب"^(٧). من هنا يتضح أنَّ معنى الوسيلة -في هذا المقام-
 في اللغة بمعنى القربة والتقارب إلى الله عزوجل، وهي ليست بمعنى الواسطة والتوسط كما
 يتبادر إلى الذهن في بادئ الأمر.

التوسل في الاصطلاح:

يعرف الشيخ جعفر السبحاني في كتاب التوسل أو الاستغاثة بالأرواح بالقول: "هو أن يتقرب العبد إلى الله تعالى بشيء يكون وسيلة لاستجابة الدعاء ونيل المطلوب، وجعل هذا الشيء الذي له قدر ومرتبة طريق للدعاء".^(٨)

ويعرفه في كتاب التوسل في الشريعة الغراء بقوله: "التوسل هو أن يقدم العبد إلى ربه شيئاً ليكون وسيلة إلى الله حتى يقبل دعاءه ويجيبه إلى ما دعا وينال مطلوبه، مثلاً إذا ذكر الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ومجداته وقدسه وعظمته ثم دعا بما بدا له فقد اتخذ أسماءه وسيلة لاستجابة الدعاء ونيل مطلوبه ومثله سائر التوسلات".^(٩)

يقول العلامة الطباطبائي في هذا المقام: "حقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري مكارم الشريعة وهي ليست إلا اتصال معنوي بما يوصل بين العبد وربه، ولا رابط يربط العبد بربه إلا دلة العبودية، وأماماً العلم والعمل فإنهما من لوازمه وأدواتها كما هو ظاهر".^(١٠)

يظهر لنا من التعريف السابقة للعلماء الأعلام أن التوسل عبارة عن طريق يتخد العبد ليتقرّب به إلى الله تعالى ويظهر له كل معانٍ العبودية والولاء تعبداً بهذا المسلك ويبين للباري من خلاله تضرّعه وحاجته وأيضاً شكره وامتنانه على نعمه، ويطلب منه -به- غفران ذنبه.

أنواع التوسل

١- التوسل بالله تعالى وبصفاته وأسمائه:

عندما يكون الله سبحانه هو منطلق الوجود ومحور حركة هذا الكون بما فيه، وعندما يكون هو المثبت والمعاقب والخالق والرازق..... فيجوز عندئذ التوسل به أو

بأسمائه وصفاته بل إنّ هذا يعد من منطلق الثقة به والاعتماد والتوكّل عليه، فنحن نجد أنّ الله سبحانه قد أمر عباده في كتابه المجيد بالتوسل به وطلب القربى منه فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١١). وقال: ﴿وَإِذَا سَأَلْكَ عَبْدِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(١٢). قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(١٣).

ولذلك كان حقاً على كل من اعترف بالعبودية لله أن يتولّ به أو بصفاته وأسمائه سواء كاننبياً أو ولياً أو صالحاً أو غيره... فقد جرى على ذلك أئمة الهدى الطاهرين، فهذا النبي ﷺ يقول: «اللهم إني أعوذ بك -برضاك- من سخطك وبعفافتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»^(١٤) وتبعه الإمام زين العابدين عاش عليه من بعده في الطريق فناجى ربه بقوله: «يا غوث كل مخنوّل فريد ويا عضد كل محتاج طريد» ثم يطلب منه أن يقضي حاجاته ويفك عنه ما ابتلي به وهذا في الصحيفة السجادية.

وقد روي عن الرضا عاش عليه من جده البارق عاش عليه أنه كان يدعو الله في شهر رمضان بقوله «اللهم إني أسألك بما أنت فيه من الشأن والجبروت وأسألك بكل شأن وحده وجبروت وحدها، اللهم إني أسألك بما تجني بي به حين أسألك فأجبني يا الله...» وهو من أدعية السحر المعروفة. ولذا كانت كتب الأدعية مليئة بهذا النوع من التوسل - مثل كتاب مفاتيح الجنان الذي يحوي دعاء الجوشن الكبير والذي يتولّ - بجمله - بأسماء الله وصفاته وكذا الصحيفة السجادية الواردة عن الإمام السجاد عاش عليه. وغيرها الكثير من الأدعية التي نقلتها لنا سيرة الرسول وأهل بيته الأطياب...

٢- التوسل بالقرآن الكريم:

كما يتبيّن لنا في مباحث العقائد والحديث عن حدوث القرآن، أنّ كتاب الله هو

المنزل على رسوله بهدف تعليم الناس شرع الله وبيان أحكامه، وبالتالي يكون التوسل بالقرآن توسل بفعل الله سبحانه، وهو كالتوسل بأسمائه وصفاته.

روي عن عمران بن الحصين أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن واسأّلوا الله تبارك وتعالى به، قبل أن يجيء قوم يسألون به الناس -أي أهل الحساب-»^(١٥). ويقول أمير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة: «فاسأّلوا الله به -أي بالقرآن- وتوجهوا إليه بمحبه، ولا تسأّلوا به خلقه، إنه ما توجه العباد إلى الله تعالى بمثله» ثم يقول: «وأعلموا أنه شافع مشفع وقاتل مصدق وأنه من شفع له القرآن يوم القيمة شفع فيه»^(١٦). وروي عن رسول الله ﷺ: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيمة»^(١٧).

يتضح لنا من خلال ما سردناه من روایات جواز العمل بهذا النوع من أنواع التوسل والحدث عليه من قبل نبی الرحمه، مع العلم بأن الروایات واردة من كتب الفریقین.

ويتضح وجود هذا النوع من التوسل في كتب الأدعية، فالإمام السجّاد في الصحيفة السجادية يقول: «واحاطط بالقرآن عنا نقل الأوزار»^(١٨). ثم يطلب من الله أن يخفف عن الإنسان سكرات الموت وأهواله متوجهاً ومتوسلاً بالقرآن.

وورد عن أهل البيت عليهم السلام في دعاء رفع المصاحف -وهو ما يدعى به في ليالي القدر-: «اللهم إني أسألك بكتابك المنزل وما فيه وفيه اسمك الأكابر.... أن تجعلني من عتقائك من النار»^(١٩).

٣- التوسل بالأعمال الصالحة:

يوضح القرآن الكريم هذا النوع من التوسل عندما يحكي قصة النبي إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ويبين أن سبب رفعهما للقواعد وبناء البيت الحرام هو التقرب

إلى الله، وطلب الحاجات منه عن طريق التوسل بهذا العمل.

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَاهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمَنْ ذُرِّيْتَنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتَبِّعْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢٠).

ويذكر القرآن صنف من الناس يتولون إلى الله بعملهم الصالح - وهو الإيان بالخاص - ليغفر لهم الذنب ويقيهم من عذاب النار وهو يشيد بهم فيقول: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(٢١).

يقول العلامة الطباطبائي في شرح هذه الآية: "وفيها إظهار للعبودية بذكره تعالى بالربوبية واسترحام منه تعالى.... والجملة ليست في مقام الامتنان عليه بل استتجاز لما وعد الله عباده أن يغفر لمن آمن منهم ولذلك فرعوا إليه بفاء التفريع - نتيجة لإيمانهم العق"^(٢٢).

بالإضافة إلى توضيح القرآن لهذا النوع من التوسل فإنه حث على التقرب إلى الله بالعمل الصالح لدرجة أن المتبع قد يجد في كل آياته ذكر لذلك فيقول:

﴿إِلَيْهِ يَصْنَعُ الْكَلْمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾^(٢٣)، ﴿وَبَشِّرُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(٢٤)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًا﴾^(٢٥)، ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٢٦).

وقد روى عن العلامة الطبرسي: "أن أصحاب الكهف النفر الثلاثة الذين دخلوا في غار فانسد عليهم فقالوا: ليدع الله تعالى كل واحد منا بعمله حتى يفرج الله عنا، ففعلوا فتجahim الله"^(٢٧).

ونلاحظ في حديثنا عن هذا النوع من التوسل أن العبادة مقرونة دوماً بنية

القرابة لله، ونجد الرسائل العملية تتحدث دوماً عن عدم قبول العمل بدون استحضار هذه النية، وهو من الأدلة الواردة لشرعنة هذا النوع من التوسل.

٤- التوسل بدعاء الغير:

ويقصد بهذا النوع من التوسل التقرب إلى الله بطلب المؤمن من غيره أن يدعوه له فيكون حاله حال المتتوسل إلى الله بدعاء الغير له.

وينقسم هذا التوسل إلى عدة أقسام منها:

أ- دعاء المؤمن لأخيه المؤمن:

يذكر الله سبحانه في كتابه العظيم: ﴿الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلَا إِخْرَجْنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ﴾^(٢٨). تدل هذه الآية على مشروعية دعوة المؤمن للمؤمن بظاهر الغيب وتشيد بن يقوم بذلك.

ويظهر لنا من سيرة النبي ﷺ الحث على هذا النوع من التوسل فقال لأصحابه: «إن رجلاً من أهل اليمن يقدم عليكم يقال له أوس، فمن لقيه منكم فليأمره فليستغفر لكم»^(٢٩). وروي أيضاً عن نبي الرحمة ﷺ: «إن دعوة المسلم مستجابة لأخيه بظاهر الغيب»^(٣٠).

وروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول «سلاوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله»^(٣١). وفي الحديث دلالة واضحة المضمون على أن النبي ﷺ توسل إلى الله بدعاه أمه له وإذا كان النبي ﷺ يعمل بهذا التوسل، فال المسلمين أولى أن يتمسكون بهذه الوسيلة.

ب - دعاء المعصوم للمؤمنين في حياته:

حينما نبحر في بحر القرآن الكريم نرى الكثير من الآيات الموضحة والذاكرة

هذا النوع من التوسل، سواء في شريعة خاتم الأنبياء محمد ﷺ أو من قبله من أنبياء الشرائع، فعلى سبيل المثال لا الحصر ذكر القرآن في سورة يوسف قصة أخوة يوسف عليهما السلام وتوسلهم بدعاء أبيهم فقالوا له: ﴿يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ ثم رد عليهم مؤيداً لفكيرتهم بقوله ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾^(٣٢).

وعند ذكر القرآن لخاتم الأنبياء والمرسلين والمكانة عالية التشريف في محكم الآيات يذكر القرآن دعاء النبي ﷺ لغيره ومشروعيته بل استجابة دعائه لهم في قوله: ﴿وَكُونُ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَابًا رَّحِيمًا﴾^(٣٣). وأما في سيرة النبي ﷺ فقد وردت عدة حوادث دعا فيها النبي بفنون الدعوات بناءً على طلب الناس.

منها ما رواه البخاري ومسلم من أنّ رجلاً دخل على النبي ﷺ وهو يخطب في المسجد يوم الجمعة وطلب منه أن يدعو الله ليعينهم بالמטר نظراً للجدب وأشاره فدعا رسول الله ﷺ له بذلك، فطلعت سحابة ولما توسيط السماء أمطرت فقال الأعرابي بعدها: والله ما رأينا الشمس سبتاً -أي أسبوعاً كاملاً^(٣٤).

بقيت ملاحظة لا بدّ من ذكرها في هذا المقام، وهي عدم صحة المساواة بين دعاء المؤمن لأنبيائه، ودعاء النبي ﷺ لغيره. صحيح أنّ لدعاء المؤمن حمرة ومقام رفيع عند الباري جَنَّةُ عَلَيْهِ الْمَرْءُ ولكن أين ذلك من دعاء النبي ﷺ؟!... وهذا تمّ التفريق في هذا البحث بين دعاء المعصوم للمؤمنين ودعاء المؤمن لأنبيائه المؤمن.

ج - التوسل بالمعصوم بعد مماته:

وسألتني الحديث عنه في النوع اللاحق لما يتطلبه من مقدمات وبراهين وأدلة عقلية ونقلية...

٥- التوسل بالمعصومين - الأنبياء والأئمة - والصالحين:

وينقسم هذا النوع من التوسل وبجذبه إلى ثلاثة أقسام:

أ- التوسل بدعاء المعصوم أو الصالح في حياته:

وقد تقدم الحديث عن التوسل بدعاء المعصوم في البحث السابق، بالإضافة إلى ما يتعلّق بدعاء الصالح المؤمن لأنّيه.

ب- التوسل بهم في حياتهم:

يقول صاحب كتاب الزيارة والتسلّل: " المراد بالتسلّل هنا هو التوسل بالمعصومين والصالحين بأنفسهم وذواتهم لما لهم عند الله من شأن ومتزلة" ^(٣٥) وما يدل على المشروعية ما روي في السيرة النبوية.

فقد روي عن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي ﷺ فقال: أدعُ الله أن يعافياني يا رسول الله، فقال عليه السلام: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت فهو خير لك. فقال الضرير: فادعه، فأمره عليه السلام أن يتوضأ ويصلّي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إنيأتوجه بك إلى الله ربِّي في حاجتي لتقضي الله شفعه في»، قال ابن حنيف: فوالله ما تفرّقنا وطال بنا الحديث حتى دخل علينا كأن لم يكن به ضر. ^(٣٦)

وروي أن الخليفة عمر بن الخطاب كان -إذا قحطوا- استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإننا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا» قال: «فيسقون». ^(٣٧)

ج- التوسل بالمعصومين عليهما السلام بعد مماتهم:

هذا البحث يحتاج إلى مقدمتين ثم ذكر الأدلة العقلية والنقلية، بالإضافة إلى

بيان الفرق بين الشرك والتتوسل. وهو يشمل الحديث عن التوسل بهم مباشرة أو بجاههم وحقهم أو بعقولهم.

المقدمة الأولى:- حياتهم في عالم البرزخ:

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(٣٨). وروي عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(٣٩).

وهنا دلالة على أن الموت هو عملية انتقال من حياة إلى أخرى مختلف طابعها عن الطابع الذي نعرفه وهو البرزخ، كما يتبيّن أنّ الذي يقضي حياته في سبيل الله لا يعتبر ميتاً بل حيّ في عالم البرزخ. وإذا كان المقصود من الآية السالفة الذكر أن المقتول في سبيل الله محصور بالشهيد، وصدقنا بهذا المعنى، فكيف يتصور أن يكون الشهداء أحياء ولا يكون النبي وأهل العصمة -وهم القادة- أحياء؟!

المقدمة الثانية:- سماعهم لمن يتحدث معهم:

يقول الشيخ جعفر كاشف الغطاء عليه السلام: "إنهم يسمعون الكلام ويردون الجواب كما في حياتهم، غير أنّ الله حبس سمع الناس إلا قليلاً من الخواص.... ولا ينافي ذلك إطلاق اسم الموت عليه". ثم يتتابع بقوله "روى أبو داود في مسنده عن أبي هريرة مرفوعاً عن النبي ﷺ قال: «ما من أحد يسلم علي إلا رد الله روحه حتى أرد عليه»"^(٤٠).

وروي عن النبي ﷺ: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة، فإن صلاتكم معروضة علي». قالوا: كيف تعرض عليك وأنت رميم، فقال: إن الله حرم على الأرض لحوم الأنبياء»^(٤١).

ونقرأ في نهج البلاغة أن الإمام علياً عليه السلام عندما عاد من صفين بلغ مقبرة كانت خلف سور الكوفة، فخاطب الموتى فقال كلاماً في تقلب الدنيا ثم قال: «هذا ما عندنا

فما خبر ما عندكم» ثم أضاف ﷺ «أما لو أذن لهم في الكلام لأخربوكم أنّ خير الزاد التقوى»^(٤٢). وروى ابن عباس عن النبي ﷺ: «ما من رجل يمر بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه فيسلم عليه إلا عرفه ورد عليه السلام»^(٤٣).

ويدل ما استعرض من روایات على سماع الميت لمن يخاطبه ولكن الباري جعل بيننا وبينهم حجاباً، ألا نرى أن المسلمين بأجمعهم يسلمون على النبي ﷺ خمس مرات في اليوم أثناء صلاتهم -على أقل تقدير-؟! ألا يستدعي عدم رد النبي للسلام -ولو كانت هناك فائدة مجازية للمسلم- ضرباً من ضروب العبث؟! خاصة وأنه لا يستمع إلى المسلمين عليه؟! ألم يصرح النبي ﷺ تصریحاً واضحاً بسماع المؤمن الميت للمؤمن الحي وهو يسلم عليه؟!

وتؤكدأ لما ورد عن سماع الأنبياء لمن يسلم عليهم أو يخاطبهم ويتحدث معهم ما يتم فعله عند زيارته النبي ﷺ وما ورد من أخذ إذن الزيارة قبل الدخول إلى حرمته. فقد قال الشيخ المفيد رحمه الله إذا أراد الزائر أن يستأنذن لدخول حرم النبي ﷺ: "إذا وردت مدينة النبي ﷺ وأردت الدخول فقف على الباب وقل: اللهم إني وقفت على باب من أبواب بيوت نبيك... ثم تقول: اللهم إني أعتقد حرمة نبيك في غيبته كما أعتقدها في حضرته وأعلم أنّ رسالك وخلفائك أحياء عندك يرزقون، يرون مقامي ويسمعون كلامي في وقتني هذا ويردون على سلامي وأنّك حجبت عن سمعي كلامهم...الخ"^(٤٤).

يتضح من المقدمتين الآفتي الذكر أنّ المعصومين عليهم السلام أحياء في عالم آخر يسمعون الكلام ويرددون السلام، إلا أنّ هناك حاجب يمنعنا عن سماع ما يقولون. أمّا إثبات الدليل على جواز التوسل بهم ومخاطبتهم وبث الشكوى عندهم فسيأتي الحديث عنه في النقاط الآتية.

الدليل على عدم ممانعة العقل للتسلل

قبل الشروع في بيان جواز التسلل، لا بدّ من تعريف معنى العبادة.

يعرف الشيخ السبحاني العبادة بقوله: "العبادة ليست سوى إظهار الخضوع أمام موجود يعتقد بأنه إله وربّ أو مفوض إليه الأفعال الإلهية، فلو كان الخضوع خالياً عن هذا الاعتقاد فلا يعد عبادة ولا شركاً فيها"^(٤٥).

وانطلاقاً من هذا التعريف المتفق عليه -حق عقلاً-، لا نجد أي مانع عقلي من أن يوسط الإنسان أحداً يملك خاصية قبول الدعوة من باب أنّ دعوته أسمع عند الله، لما لهذا الوجيه من مكانة عند الباري ﷺ وهذه الواسطة لا تكون بنحو تستقل بفعلها عن المتوجه الحقيقي وهو الله بل يقوم بدور الأعرف بالباري. كالوزير والملك عندما يريد العوام أن يتقرّبوا إلى الملك ويطلبوا منه ما يحتاجون ويريدون، فإنهم يوسطون الوزير ويسألونه أن يقضي حاجاتهم، فيقوم هو بدوره بالحديث مع الملك كونه الأقرب لديه والأعرف بحاله وبالتالي يكون دوره دور الوسيط المتمكن من إجابة الطلب.

الفرق بين التسلل والشرك

الشرك الذي قد يتحقق من الناس دون التفات هو اتخاذ الأسباب والاعتقاد بأنّها المسيبة بذاتها من غير تدخل إرادة الله كالتاجر عندما يعتقد أن فطنته وطريقته في التجارة هي لوحدها -بنحو مستقل- الطريق المؤدي لربحه واكتسابه للخيرات؛ فإن ذلك يعد شركاً إن لم يعتقد أنها آلة تؤدي إلى الربح بإذن الله.

أمّا طلب الحاجة من الناس -سواء كانت الحاجة دينية أو دنيوية كشفاء المرض وكشف البلاء- فإنه لا يعد من الشرك، وإنما هو معنى التسلل الحقيقي لأنّه لا يقصد

إشراك المتossl إلـيـه في كـشـفـ الضـرـ -كـمـا ذـكـرـنـا فـي الدـلـيلـ العـقـليـ .-

ونـحنـ نـرـىـ تصـرـيـحـ القرآنـ -فـيـ قـصـةـ الإـتـيـانـ بـعـرـشـ بـلـقـيـسـ -نـرـىـ النـبـيـ سـلـيـمانـ
يـسـتـعـيـنـ بـأـصـفـ بـنـ بـرـخـيـاـ لـيـجـلـبـ لـهـ بـلـقـيـسـ وـعـرـشـهـ،ـ وـهـذـاـ لـاـ يـنـافـيـ التـوـحـيدـ لـأـنـ
الـاسـتـعـانـةـ بـأـخـرـ لـتـحـقـقـ الـمـرـادـ وـلـوـصـولـ إـلـىـ الـمـقـصـودـ بـنـ لـاـ يـعـتـقـدـ أـنـ إـلـهـ أـوـ أـنـ شـرـيكـ
لـلـبـارـيـ لـاـ تـنـافـيـ ذـلـكـ؛ـ حـيـثـ أـنـ الـمـسـتـعـانـ بـهـ لـهـ صـفـاتـ مـكـتـسـبـةـ مـنـ اللـهــ تـعـيـنـهـ عـلـىـ
تـحـقـقـ مـرـادـ الـمـسـتـعـينـ.

"فالـشـرـكـ لـاـ يـكـونـ شـرـكـاـ -ـمـعـ دـمـ الـاعـتـقـادـ بـالـشـرـيكـ -ـخـصـوصـاـ أـنـ الشـرـكـ أـمـرـ
قلـبـيـ" (٤).

"لـاـ يـكـونـ الشـرـكـ شـرـكـاـ إـلـاـ إـذـاـ كـانـ الـمـخـضـوـعـ لـهـ مـنـعـوـتـاـ بـأـحـدـ الـنـعـوـتـ الـمـنـعـوـتـةـ
بـالـعـنـاوـيـنـ الـثـلـاثـةـ الـآـتـيـةـ:ـ ١ـ.ـ أـنـهـ إـلـهـ.ـ ٢ـ.ـ أـنـهـ رـبـ.ـ ٣ـ.ـ أـنـهـ مـفـوضـ إـلـيـهـ فـعـلـ إـلـهـ" (٤٧).

ويـقـولـ الشـيـخـ نـاصـرـ مـكـارـمـ الشـيرـازـيـ فـيـ هـذـاـ المـقـامـ:ـ "ـوـالـعـجـبـ هـنـاـ أـنـ يـدـعـيـ
الـبـعـضـ أـنـ هـذـاـ التـوـسـلـ نـوـعـ مـنـ الـشـرـكـ،ـ حـيـثـ أـنـ الـمـرـوـفـ عـنـ الـشـرـكـ هـوـ القـوـلـ بـوـجـوـدـ
مـنـ يـشـارـكـ اللـهـ فـيـ صـفـاتـهـ وـأـعـمـالـهـ" (٤٨).

الـدـلـيلـ النـقـليـ عـلـىـ مـشـرـوعـيـةـ التـوـسـلـ

أـ.ـ الدـلـيلـ مـنـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ:

يـقـولـ اللـهـ تـبـارـكـ وـتـعـالـىـ:ـ ﴿يـاـ أـيـهـاـ الـذـيـنـ أـمـنـواـ اـتـقـوـاـ اللـهـ وـأـتـبـعـواـ إـلـيـهـ الـوـسـيـلـةـ
وـجـاهـدـواـ فـيـ سـبـيـلـهـ لـعـلـلـكـمـ تـفـلـحـوـنـ﴾ (٤٩).

ماـيـهـمـنـاـ فـيـ هـذـاـ المـقـامـ هـوـ بـيـانـ أـنـ كـلـ مـاـ ذـكـرـ فـيـ هـذـاـ الـبـحـثـ -ـمـنـ أـنـوـاعـ
الـتـوـسـلـ يـعـدـ وـسـيـلـةـ،ـ وـبـالـتـالـيـ يـكـونـ التـوـسـلـ بـالـمـعـصـومـ أـحـدـ مـصـادـيقـ هـذـهـ الـوـسـيـلـةـ
وـلـعـلـ ذـلـكـ مـنـ أـعـظـمـهـاـ رـتـبـةـ لـأـنـ الـبـارـيـ يـقـولـ:ـ ﴿قـلـ مـاـ أـسـأـلـكـمـ عـلـيـهـ مـنـ أـجـرـ إـلـاـ مـنـ

شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا^(٥٠)، وَيَقُولُ: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَةُ فِي الْقُرْبَى ﴾^(٥١).

وَعِنْ جَمِيعِ الْآيَةِ الْأُولَى بِالثَّانِيَةِ يَتَضَعَّفُ أَنْ مَعْنَى السَّبِيلِ هُوَ الْمَوَدَةُ فِي الْقُرْبَى وَلِتَوْضِيحِ مَعْنَى الْقُرْبَى نَذْكُرُ هَذِهِ الرَّوَايَةَ، وَلَمْنَ أَرَادِ الْإِسْتِزَادَةَ فَإِنْ ذَلِكَ يَطْلُبُ مِنْ مَحْلِهِ.

ذَكَرَ الزَّمَخْشَرِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ وَالْمَالِكِ الْنِيَّاشَابُورِيُّ فِي مُسْتَدِرِكِهِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْ مَعْنَى الْقُرْبَى فَأَجَابَ: «عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا، حَرَمَتِ الْجَنَّةَ عَلَى مَنْ ظَلَمَ أَهْلَ بَيْتِيْ وَآذَانِيْ فِي عَتْرَتِيْ....الخُّ». .

ب - الدليل من الروايات والسيرات:

١- ما روی عن النبي ﷺ أنه قال: «من خرج من بيته للصلوة وقرأ (اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق مشاي هذا و...الخ) أقبل بوجهه واستغفر له ألف ملك»^(٥٢).

والدعاء هنا يتولى بحق السائلين بشكل عام وهي غير مخصصة بزمان أو مكان معين - وما يهمنا هو الزمان - وإن من السائلين أهل العصمة ﷺ فالداعي يتولى بشكل من الأشكال بحقهم إلى الله .

٢- أنشدت صفية بنت عبد المطلب عمة النبي ﷺ بعد وفاته وقالت في رثائه على مرأى ومسمع من الصحابة: "ألا يا رسول الله أنت رجاونا. و كنت بنا برأً ولم تكن جافية"^(٥٣). ولم يعرض عليها أحد عند مخاطبتها للنبي ﷺ بالقول (أنت رجاونا)

٣- روی البیهقی أنّ رجلاً كان مختلفاً إلى عثمان بن عفان في حاجة له وكان

عثمان لا يلتفت إليه، فشكراً الرجل الأمر لعثمان بن حنيف، فأمره أن يقول: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبينا محمد نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى رب ليقضي لي حاجتي» ثم أمره أن يذكر حاجته ففعل وقضيت له حاجته عند عثمان بن عفان. ثم إن الرجل خرج من عنده ولقي عثمان بن حنيف وقال له: «جزاك الله خيراً ما كان لينظر في حاجتي حتى كلمته في» فأجابه: «ما كلامته ولكنني سمعت رسول الله يأمر ضريراً بفعل ذلك»^(٥٤).

وفي هذه الرواية دليل واضح على عمل صحابة الرسول ﷺ بالتوسل وهم في عهد عثمان بن عفان.

٤- ما فعله أبو علي الخال شيخ الحنابلة حيث قال: "ما همني أمر فقصدت قبر موسى بن جعفر فتوسلت به إلا سهل الله تعالى لي ما أحب"^(٥٥).

٥- ما روي عن أوس بن عبد الله قال: قحط أهل المدينة قحطًا شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي ﷺ فاجعلوا منه كوى إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف قال ففعلوا فمطرنا مطرًا حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمى عام الفتق^(٥٦).

٦- ما وري في كتب الأدعية عن الأئمة علية السلام حيث يقول علي عليه السلام: «اللهم بحق محمد وآل محمد عليك... أن تعطيني... ثم يطلب الحاجات»^(٥٧).

ويقول الإمام الحسين علية السلام في دعاء عرفة من مفاتيح الجنان: «اللهم إنا تتوجه إليك في هذه العشية التي فرضتها وعظمتها بمحمد نبيك...».

إشكالات وردود

أورد البعض إشكالات يعتقد أنها كفيلة لإيقاف عملية التوسل وبالخصوص

التوسل بالمعصومين عليهما السلام، ولكن العلماء الأعلام قاموا ببيان هذه الإشكالات والرد عليها برد علمي منها ما ذكره الشيخ جعفر السبحاني في كتابه التوسل. ومنها:

الإشكال ١: يقول سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. والتسل نوع من أنواع الاستعانة بغير الله والآية تدل على حصر الاستعانة واحتضانها بالله وحده.

الرد:

١- إن الاستغاثة بالناس والاستعانة بهم لا يتنافى مع حصر الاستعانة بالله لأن الاستعانة بهم يكون باعتقاد أن الله هو المؤيد لهم، فلا يكون عملهم بداعي الاستقلال -كما ذكرنا سابقاً- بل بعون الله وتوفيقه والذي هو رب الأرباب.

٢- يقول الله تعالى: ﴿وَاسْتَعِنُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاطِئِينَ﴾^(٥٨). هذا في الوقت الذي يحصر الاستعانة به، فإن قلنا بالتنافي بين الآيتين سقطت بذلك حجية القرآن كله! ولكن الواقع أن لا تنافي بينهما؛ لأن الاستعانة بالله تكون بالاستعانة بالصبر والصلوة وغيرها مثل التسل.

يقول السيد الخوئي نقلاً في هذا المقام وفي تفسير الآية: "لا مانع من استعانة الإنسان في مقصده بغير الله من المخلوقات أو الأفعال فليس الاستعانة منحصرة بالله، بل المراد منها استعداد القدرة على العبادة منه والاستزادة من توفيقه لها -أي العبادة- حتى تتم وتخلاص"^(٥٩).

الإشكال ٢: يقول الله تعالى: ﴿وَتَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٦٠). ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾^(٦١). فهو يصرح ^{عَزَّلَ} أنه أقرب إلينا من أي شيء آخر ويعبر عن مدى هذا القرب. وبسبب

ذلك نقول ما الداعي إلى التوسل والله أقرب المقربين بل إن العمل بالتوسل مخالف لما يريد الله منا وهو الدعاء المباشر له.

الرد:

١- إن التوسل بالمعصوم عليه السلام هو بحد ذاته عملية تقرب إلى الله، وهو بنفسه يحقق مقصداً أيضاً هما القربة منه -كما قلنا- ونيل الحاجات والطلبات لالمتوسل بهم مكانة مؤثرة في استجابة الدعاء.

٢- إننا إذا أخذنا الآية بظاهرها ولم نفسرها بالطريقة الصحيحة نصل إلى نتيجة تقول بعدم الحاجة إلى التقرب إلى الباري بقراءة القرآن أو الدعاء، بل إنه لا داعي أن يتولى الإنسان بالأعمال الصالحة؛ لأنَّ الله أقرب إلينا من حبل الوريد فمعرفته بالحال تغنى عن السؤال والتقارب بما يجب! وهذا ما يسمى بالجواب النصي.

خاتمة في الحاجة إلى التوسل

إن الحاجة تنطلق من أن للناس عدّة من المنطقات المختلفة والدوافع المتنوعة لإدخال واسطة تقربهم إلى الله منها: قضاء الحاجات الدنيوية، تفريج الكربات، شفاء الأمراض، التعلق الشديد بالمتوسل وحبه والشفاعة في اليوم الآخر.

والشفاعة دافع في نفس المتوسل لما لها من أهمية في الآخرة. ليس المقام هنا بإثبات قدرة المتوسل به على الشفاعة لأن لذلك مجالاً آخر وبحث مختلف موسع. إلا أن الخاتمة تقتضي بيان أهمية التوسل في الحياة الدنيوية واعتباره طريق موصل إلى الله. يقول السيد الخوئي قدس سره: "على هذا ليس مخلوق أن يستشعف بمخلوق مثله ويجعله واسطة بينه وبين ربه هذا كله إذا لم تكن بإذن من الله، وأما إذا إذن الله

بالشفاعة لأحد فإن الاستشفاع به يكون نحواً من الخضوع لله والتعبد له. ويستفاد من القرآن الكريم أن الله تعالى قد أذن لبعض عباده بالشفاعة إلا أنهم لم ينوهوا بذلك، فـعـدا الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ والروايات الواردة عن النبي الأكرم وأهل بيته عليهم السلام في هذا الموضوع متواترة^(١). ونقل هذه الرواية المؤثرة والتي تبين دور التوسل في نيل الشفاعة كخاتمة للبحث. قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيمة هل تدرؤن بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيمة الأولين والآخرين في صعيد واحد ويسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنوا الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يتحملون فيقول الناس: ألا ترون ما بلغكم؟ ألا تظرون من يشفع إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض عليكم بآدم فيأتون آدم فيردهم ويأتون نحواً وإبراهيم وموسى وعيسى فيردوهم كآدم خاتمين ثم يأتون محمداً عليه وآله صلوات الله عليه وآله وسلام فيقولون: يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا عند ربك ألا ترى ما نحن فيه؟... فأنطلق فاتني تحت العرش فأقع ساجداً لربني ثم يفتح الله علي شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي ثم يقال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه واسفع تشفع فأرفع رأسي فأقول: أمتني يا رب أمتني يا رب فيقال: يا محمد أدخل من أمتلك من لا حساب عليهم، ثم قال: والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وحيراً وكما بين مكة وبصري»^(٢).

- تم بحمد الله و توفيقه -

المواهش:

(١) ج ٤ ص ١٤٩٧.

(٢) ج ٦ ص ١٥٩.

- ٢١٣ ص ١٥ ج (٣).
- ٢٩٨ ص ٧ ج (٤).
- ١٨٥ ص ٥ ج (٥).
- ٥٢٣ ص (٦).
- ١١٠ ص ٦ ج (٧).
- ١٠٢-١٠١ ص (٨).
- ١٨ ص (٩).
- ٣٢٨ ص ٥ ج الميزان (١٠).
- ٦٠ . الآية: غافر (١١).
- ١٨٦ . الآية: البقرة (١٢).
- ٨ . الآية: الأعراف (١٣).
- ٣٥٦٦ ح ٥ ص ج الترمذى سنن (١٤).
- ٦٠٨ ص ٤ ج ٤٤٥ ص ٤٤٥ والبىهقى مسند أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ (١٥).
- ١٧ . خطبة نوح البلاحة (١٦).
- ٦٦٣٧ ح ٤٤٣٧ مسند أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ (١٧).
- ٤٢ . الدعاء السجادية الصحيفة (١٨).
- . شهر رمضان أدعية الجنان مفاتيح (١٩).
- ١٢٨ - ١٢٧ : الآية البقرة (٢٠).
- ١٦٩ . آل عمران: (٢١).
- ١١١ ص ٣ ج الميزان (٢٢).
- ٢٥ . فاطر: (٢٣).
- ٢٥ . الآية البقرة: (٢٤).
- ٩٦ . مريم: (٢٥).
- ٤ . سباء: (٢٦).

- (٢٧) مجمع البيان: ج ٣ ص ٤٥٢.
- (٢٨) الحشر: ٥٩.
- (٢٩) صحيح مسلم: ح ٢٠٤٢.
- (٣٠) مسنن أحمد بن حنبل ١٩٥/٥.
- (٣١) مسلم في الصحيح ٤/٤، الترمذى ٥٨٩/٥.
- (٣٢) يوسف: ٩٧ - ٩٨.
- (٣٣) النساء: ٦٤.
- (٣٤) رواه البخاري كتاب الاستسقاء باب ٦٤٣، صحيح مسلم في نفس الكتاب.
- (٣٥) ٢٣٧ ص.
- (٣٦) صحيح الترمذى ح ٣٥٧٨. كتاب الدعوات، سنن ابن ماجة في حديث ١٣٨٥، أحمد بن حنبل ١٣٨/٤.
- (٣٧) صحيح البخاري كتاب صلاة الاستسقاء ج ٢/٣٢، وسنن البيهقي في الكتاب نفسه ج ٣٥٢/٣.
- (٣٨) البقرة ١٥٤.
- (٣٩) البيهقي في حياة الأنبياء، والشوكاني في نيل الأوطار، وابن عساكر في تاريخ دمشق، ج ١٣ ص ٣٢٦.
- (٤٠) منهاج الرشاد لمن أراد المراد ص ٥٦٧.
- (٤١) كنز العمال ج ١ ح ٢١٤١.
- (٤٢) نهج البلاغة، الكلمات القصار رقم ١٣٠.
- (٤٣) ابن عساكر في تاريخ دمشق والمخطيب في تاريخ بغداد.
- (٤٤) بحار الأنوار: ج ٧ ص ١٦٠.
- (٤٥) الإلهيات ج ٢ ص ١٠١.
- (٤٦) ليالي بيشاور ص ١٤٦٧.
- (٤٧) الإلهيات ج ٢ ص ١٠١.

- .١٢٣) الكشكوك العقلائي ص .٤٨)
- .٣٥) المائدة (٤٩)
- .٥٧) الفرقان: (٥٠)
- .٢٣) الشورى (٥١)
- .٥٦٢/١) مسند أحمد بن حنبل ج ٣ ح ٢١، وصحيحة حافظ القزويني (٥٢)
- .٣٦/٩) الطبراني في ذخائر العقبى ص ٢٥٢، ومجمل الزوائد (٥٣)
- .١٦) المعجم للطبراني ج ٩ ص (٥٤)
- .١٢٠) تاريخ بغداد ج ١ ص (٥٥)
- .٤٣) سنن عقد الدرامي ج ١ ص (٥٦)
- .٥١) الصحيفة العلوية للسماهييجي ص (٥٧)
- .٤٥) البقرة (٥٨)
- .٤٨٠) البيان في تفسير القرآن ص (٥٩)
- .١٦) ق (٦٠)
- .١٨٦) البقرة (٦١)
- .٤٨٠) البيان ص (٦٢)
- .٤٦/٨) البخاري ٦، ٨٤-٨٥، مسلم ١٢٧/١-٣٠، أحمد بن حنبل ٤١٢/٢، بحار الأنوار ج (٦٣)

رجال البحرين (خير أهل المشرق)

(القسم الثاني)

محمد علي العربي

كـ بـسـمـ اللـهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ، تـعـرـضـنـاـ فـيـ القـسـمـ الـأـوـلـ مـنـ هـذـاـ مـقـالـ لـجـملـةـ مـنـ
أـصـحـابـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـلـهـ الـبـحـرـانـيـنـ، الـذـيـنـ اـخـتـصـ بـعـضـهـمـ بـالـرـوـاـيـةـ عـنـهـ عـلـيـهـ وـلـهـ أـوـ صـحـبـتـهـ
أـوـ النـظـرـ لـوـجـهـ الـمـبـارـكـ أـوـ أـنـهـ وـرـدـ فـيـ أـخـبـارـ الـرـوـاـةـ أـوـ كـانـ مـنـ الـمـعـدـودـيـنـ مـنـ تـلـكـ
الـطـبـقـةـ، وـكـانـ مـنـهـمـ اـشـتـرـكـ فـيـ طـبـقـةـ أـصـحـابـ النـبـيـ عـلـيـهـ وـلـهـ طـبـقـةـ أـمـيرـ
الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـهـ، وـهـذـهـ جـمـلـةـ أـخـرـىـ مـنـ طـبـقـاتـ رـجـالـ الـبـحـرـينـ، نـذـكـرـهـاـ غـيرـ
مـسـتـوـعـيـنـ وـلـاـ حـاـصـرـيـنـ، وـنـلـتـزـمـ فـيـهـاـ بـالـتـفـصـيلـ فـيـ بـعـضـ الـمـوـاـرـدـ لـلـحـاجـةـ لـلـتـبـيـيـهـ
فـيـهـاـ عـلـىـ الصـحـيـحـ؛ـ مـرـاعـاـتـ لـلـاختـصـارـ وـمـقـتضـيـ الـحـالـ الـذـيـ بـنـيـ عـلـيـهـ هـذـاـ مـقـالـ.

فـمـنـ مـنـ غـيرـ مـاـ ذـكـرـنـاـ:

١- رـشـيدـ الـهـجـرـيـ [مـنـ أـصـحـابـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ وـالـحسـنـيـنـ وـعـلـيـ بـنـ
الـحسـنـ عـلـيـهـ]:

بـضـ الرـاءـ وـفـتـحـ الشـينـ، رـشـيدـ الـبـلـاـيـاـ كـماـ وـصـفـهـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـهـ^(١)ـ، عـدـهـ
الـشـيـخـ مـنـ أـصـحـابـ أـمـيرـ الـمـؤـمـنـيـنـ عـلـيـهـ^(٢)ـ وـالـمـحـسـنـ^(٣)ـ وـالـحسـنـ^(٤)ـ وـعـلـيـ بـنـ
الـحسـنـ عـلـيـهـ^(٥)ـ، وـهـوـ بـابـ الـحسـنـ عـلـيـهـ كـمـاـ فـيـ تـارـيـخـ الـأـئـمـةـ^(٦)ـ وـمـنـاقـبـ اـبـنـ
شـهـرـآـشـوبـ^(٧)ـ.

خـلـطـ كـثـيرـ مـنـ مـصـنـفـيـ الـعـامـةـ فـيـ تـرـجـمـتـهـ فـقـالـوـاـ الـفـارـسـيـ، قـالـ اـبـنـ حـجـرـ فـيـ
الـإـصـابـةـ:ـ رـشـيدـ بـالـتـصـفـيـرـ الـفـارـسـيـ مـولـيـ بـنـيـ مـعـاوـيـةـ مـنـ الـأـنـصـارـ وـمـنـ قـالـ فـيـهـ رـشـيدـ

الهجري فقد وهم لأنه آخر متاخر من صفار التابعين وأتباعهم^(٨).

تحقيق في (هجر) اليمانية والبحرانية ونسبة الهجريين

قد قيل في نسبة (هجريين) أنهم أهل هجر، وهي مكانان: أحدهما في اليمن والآخر في البحرين على قول، وقيل ثلاثة بزيادة هجر القريبة من المدينة^(٩)، وفي القولين نظر.

قال السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) في الأنساب: "الهجري: بفتح الهاء والجيم وكسر الراء في آخرها. هذه النسبة إلى هجر، وهي بلدة من بلاد اليمن من أقصاها وقلان هجر معروفة. المشهور بهذه النسبة: أبو عبد الله الزبير بن جنادة الهجري المعلم.. وابن بريدة.. وأبو تميلة.. وأبو سهل عوف بن أبي جميلة الأعرابي العبدى الهجرى، من أهل هجر، كان يسكن التجيب، وهو من ساكني البصرة، واسم أبي جميلة زينة.. وأبو إسحاق إبراهيم بن مسلم الهجرى العبدى، من أهل الكوفة.. وأبى الأحوص.. ورشيد الهجرى. يروى عن أبيه، عداده في أهل الكوفة، كان يؤمن بالرجعة"^(١٠).

وكما ترى، فإنه توهם كون العبديين أهل هجر اليمن، فخلط بينهم وبين الهجريين من أهل هجر البحرين، أو أنه عدتها من بلدان اليمن وهو وهم آخر.

وتبعه في التعريف والخلط ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) في اللباب فقال: "الهجرى بفتح الهاء والجيم وكسر الراء هذه النسبة إلى هجر وهي بلدة من بلاد اليمن وهي مدينة معروفة ينسب إليها كثير من الناس منهم أبو عبد الله الزهر بن جنادة الهجرى المعلم يروى عن عطاء وابن بريدة روى عنه عيسى بن يونس وأبو تميلة ورشيد الهجرى يروى عن أبيه عداده في أهل الكوفة كان يؤمن بالرجعة وتكلم في ذلك بالكوفة فقطع زياد لسانه وصلبه"^(١١).

لكن صريح الحموي (ت ٦٢٦ هـ) في معجم البلدان أن قوماً عدوها من اليمن وأخرون جعلوها قصبة مستقلة، قال عند حديثه عن البحرين: "قيل هي قصبة هجر، وقيل: هجر قصبة البحرين، وقد عدها قوم من اليمن وجعلها آخرون قصبة برأسها. وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة"^(١٢).

ومن عدها من بلاد اليمن الحميري في كتابه الروض المعطار في خبر الأقطار أرض البحرين في جملة بلاد اليمن، حيث صرخ في ترجمة (جناجا) بقوله: "جناجا: جزيرة في البحر من جزائر البحرين باليمن، منها أبو سعيد الجنابي القائم بدعة القرمطي الظاهر في بلاد القطيف من بلاد اليمن، حسبما يأتي ذكر ذلك في حرف القاف والزاي إن شاء الله تعالى، ودخل أبو سعيد هذا مدينة هجر من بلاد اليمن سنة سبع وثمانين ومائتين بعد حصار أربع سنين، فدخل على قوم هلكوا جوعاً وهزاً وبعد أن كان الوباء وقع فيهم فمات منهم خلق، وقتل منهم القرمطي ثلاثة ألف فطرحهم أحيا في النار، ونجا قليل منهم إلى جزيرة أول، ولم يبق من أهل هجر يومئذ إلا عشرون رجلاً"^(١٣). ومن المعلوم أن القطيف من بلاد هجر البحرين، وأن حوادث القرامطة لم يكن موضعها إلا هجر ثم الإحساء، التي ألحقت بعد القرامطة بالبحرين.

وإن قيل: أن ما تقدم لا يصرف النسبة -أعني هجري- إلى هجر البحرين ولا ينفي صريح قولهم بتعدد التسميات والموضع لهجر.

أجيب: أنه يشهد على أن رُشيداً وغيره من الهجريين من بلاد هجر البحرين لا اليمن ولا غيرها قول ابن دريد في الاشتقاد: "فبنوا عبد الله هم الذين بهجر، قدموها البصرة مع عبد قيس، فسموا الهجريين"^(١٤).

وتسميتهم هذه لزمتهم في البصرة وغيرها كالكوفة، وقدومهم للبصرة كان قبل تأسيس الكوفة بسنوات، ثم انتقل قسم منهم إلى الكوفة قوي وجودهم زمن

تشرفها بسكنى أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ فِيهَا، كما هو واضح من كثرة العبدية المجريين القيسيين فيها، كما سيمر عليك.

ويؤيده عدم الشاهد على التمييز في النسبة إلى هجر البحرين أو اليمن، فثبت أن هجر البحرين المراد في نسبة المجريين - ومنهم رشيد وكثير آخرون يرون عليك عن قريب - هي بلاد البحرين أو هجر بالتحديد، وقد يتسامح فيطلق على الكل اسم هجر كما أشرنا إليه في القسم الأول من هذا المقال.

ولعل منشأ الاشتباه هو ما ذكره ابن خلدون في تاريخه: أن البحرين "تعرف ببلاد هجر، ومنها القطيف وهجر والعسیر وجزيرة أول والإحساء، وهجر هي باب اليمن من العراق"^(١٥). فألحقها بعض بأطراف بلاد اليمن وجعلها آخرون من أعمال العراق، وحسبها آخرون من توابع اليمامة، وهو كله واقع من متاخر مؤرخي العامة ومن تابعهم من اللاحقين لهم في النقل. وساعد على هذا الخطأ تسمية بعض بلدان اليمن بهجر مضافة إلى ناحية منها، كهجر كحلان مثلاً، ولا زال بعض المناطق فيها تسمى بهذا النحو.

ذكر الحافظ في تذكرة الحفاظ سبب شهادته (رضوان الله عليه) فقال في حديث طوبل: "فقال له قيس الأرقب أفلأ تعرف أصحاب علي؟، فقال: نعم، قال فتعرف العارث الأعور؟، قال: نعم، لقد تعلمت منه حساب الفرائض والعد فخشيت على نفسي منه الوسواس فلا أدرى ممن تعلم، قال: فهل تعرف بن صبوة؟ قال: نعم، لم يكن بفقهه ولم يكن فيه خير، قال: فهل تعرف صعصعة بن صوحان؟ قال: كان رجلاً خطيباً ولم يكن بفقهه، قال: فهل تعرف رشيد الهمجي؟ قال الشعبي: نعم، بينما واقف في المجريين إذ قال لي رجل: هل لك في رجل يحب أمير المؤمنين؟ قلت: نعم، فأدخلني على رشيد، فلما رأني أشار بيده إلى وأنشاً يحدث، قال: خرجت حاجاً فلما قضيت نسكي قلت لو

أحدثت عهداً بأمير المؤمنين، فمررت بالمدينة فأتتني باب علي، فقلت لإنسان: استاذن لي على سيد المسلمين، فقال: هو نائم، وهو يظن أنني أعني الحسن، فقلت: لست أعني الحسن إنما أعني أمير المؤمنين وأمام المتقين وقائد الغر المحجلين، قال: أو ليس قد مات؟، فقلت: أما والله إنه ليتنفس الآن بنفس حي ويعرق من الدثار الثقيل، فقال: أما إذا عرفت سر آل محمد فادخل وسلم عليه واجز، فدخلت على أمير المؤمنين فأنبأني بأشياء تكون، فقلت لرشيد: إن كنت كاذباً فلمنك الله وقمت، وبلغ الحديث زياداً فبعث إلى رشيد فقطع لسانه وصلبه^(١٦).

فتراه ما جعل لعلي من صحبه الذين يعرفهم فقيهاً أو عاقلاً حتى إذا بلغ صعقة (رضوان الله عليه) ولم يجد ما ينقص شأنه قال: "كان رجلاً خطيباً ولم يكن بفقيه"، وهو يشبه بما قاله الفرزدق - مع فارق المذهب - في الكميّة لما اسمعه الأخير شعراً فحسده الفرزدق فقال له: "أنت خطيب"، قال السيد المرتضى عليه السلام في أماليه: "إنما سلم له الخطابة ليخرجها من أسلوب الشعر، ولما بهره من حسن الأبيات وأفれط بها إعجابه، ولم يتمكن من دفع فضلها جملة عدل في وصفها إلى معنى الخطابة"^(١٧)، والشعبي لما بهره أمر صعقة لم يحر جواباً إلا أن وصفه بالخطابة دون الفاقة والرواية.

ولما بلغ صاحب رشيد الهمجي (رضوان الله عليه) رماه بما رماه وحرف ما قال، وهو كذب عليه عليه السلام، فقد روى الرواندي في الخرائج وغيره في دلائل إمامية الحسن عليه السلام بعد أبيه ومعاجزه التي رأها رشيد وجماعة، قال: "عن يحيى بن أم الطويل عن رشيد الهمجي قال: دخلنا على أبي محمد عليه السلام بعد مضي أبيه أمير المؤمنين عليه السلام فتذاكرنا له شوقنا إليه، فقال الحسن: أتريدون أن تروه؟ قلنا: نعم، وأنى لنا بذلك وقد مضى لسبيله؟! فضرب بيده إلى ستر كان معلقاً على باب في صدر المجلس،

فرفعه فقال: انظروا من في هذا البيت فإذا أمير المؤمنين عليه السلام جالس كأحسن ما رأيناه في حياته! فقال: هو هو ثم خلى الستر من يده فقال بعضاً: هذا الذي رأيناه من الحسن كالذي نشاهد من دلائل أمير المؤمنين ومعجزاته ^(١٨).

والصحيح في سبب استشهاده ما رواه الكشي بسنده إلى أبي حيان البجلي، عن قنواة بنت رشيد الهمجي، قال: "قلت لها: أخبريني ما سمعت من أبيك؟ قالت: سمعت أبي يقول: أخبرني أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا رشيد كيف صبرك إذا أرسل إليك دعي بني أمية فقطع يديك ورجليك ولسانك، قلت: يا أمير المؤمنين آخر ذلك إلى الجنة؟ فقال: يا رشيد أنت معي في الدنيا والآخرة. قالت: فوالله ما ذهبت الأيام حتى أرسل إليه عبيد الله بن زياد الداعي، فدعاه إلى البراءة من أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن ييرأ منه، فقال له الداعي: فبأي ميتة قال لك تموت؟ فقال له: أخبرني خليلي أنك تدعوني إلى البراءة منه فلا أبرء فتقدموني فقطع يدي ورجلتي ولسانني، فقال والله لأكذبن قوله فيك. قال: فقدموه فقطعوا يديه ورجليه وتركوا لسانه، فحملت أطراف يديه ورجليه فقلت: يا أبى هل تجد لما لآ أصابك؟ فقال: لا يا بنية إلا كالزحام بين الناس، فلما احتمناه وأخرجناه من القصر اجتمع الناس حوله، فقال: أيتونى بصحيفة ودوات أكتب لكم ما يكون إلى يوم الساعة، فأرسل إليه العجام حتى يقطع لسانه، فمات رحمة الله عليه في ليلته ^(١٩).

وُدُفِنَ بباب التخييلة من الكوفة وقبره بقرب قرية ذي الكفل ^(٢٠).

واستشهاده وصحبه رضوان الله عليهم أمر مشهور، وأخباره وغرائبه كثيرة لا يسعها هذا المختصر، حتى أن الأصحاب كانوا يتناقلون حديث استشهادهم على الولاية ويؤلفون الكتب فيها، وقد عد منها كتاب محمد بن السائب في مقتل رشيد الهمجي وميثم التمار وجويرية بن مسهر العبدي ^(٢١).

٢- وقنواه بنت رشيد الهمجي أو قنوة:

عدها الشیخ فی عداد من روین عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام^(٢٢)، وهي امرأة داود الرقي كما في رجال البرقى^(٢٣). تقدم ذكرها.

٣- أبو سعيد بن رشيد الهمجي، ابن لرشيد الهمجي نفسه:

واسمه سلم بن سعيد الهمجي، والد إبراهيم، وقيل أنه والد سليمان أبو طاهر، لم يذكره.

٤- محمد بن سهل البحرياني [من أصحاب الباقر عليهما السلام]:

لم يذكره، ولقبه لانتسابه للبحرين على احتمال راجح، من أصحاب الباقر عليهما السلام. ذكره الكشي في خبر ابن بزيع عن الباقر عليهما السلام في مدح صفوان ومحمد سنان، قال: "حدثني محمد بن قوله، قال: حدثني سعد عن أحمد بن هلال عن محمد بن إسماعيل بن بزيع أن أبا جعفر عليهما السلام كان لعن صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان فقال: إنهم خالفا أمري، قال: فلما كان من قابل، قال: أبو جعفر عليهما السلام محمد بن سهل البحرياني: تول صفوان بن يحيى ومحمد بن سنان فقد رضيت عنهم".^(٢٤).

٥- بكر بن أحمد، الأشج [من أصحاب أبي جعفر الثاني عليهما السلام]:

هو ابن أحمد بن إبراهيم بن زياد بن موسى بن مالك بن يزيد الأشج، أبو الحسن^(٢٥) كما في أسانيد الصدوق في العيون وغيره، وتقدمت ترجمة الأشج العصري أو أشج بن عبد قيس، وقيل القصري^(٢٦) وهو مصحف؛ لرواية الصدوق عنه بلفظ الأشج العصري في العلل^(٢٧) بطريق محمد بن أحمد بن يوسف البغدادي.

من أصحاب أبي جعفر الثاني عليهما السلام، وصرح النجاشي بضعفه، قال رحمه الله: "بن زياد بن موسى بن مالك بن يزيد الأشج أبو محمد الذي يقال له أشج بنى أعمص الوارد

على النبي ﷺ في وفدي عبد القيس روى عن أبي جعفر الثاني ع و هو ضعيف . له كتب منها : كتاب الطهارة كتاب الصلاة كتاب الزكاة كتاب المناقب . قال أبو عبد الله بن عياش : حدثنا أبو الحسن علي بن محمد بن جعفر بن رويدة العسكري الحداد قال : حدثنا بكر بها ^(٢٨) . كذا ضعفه ابن الغضائري وتبعه - كالنجاشي - ابن داود ، قال : " ضعيف يروي الغرائب ويعتمد المجاهيل وأمره مظلم " ^(٢٩) ، وقال : " يزعم أنه من ولد أشج بنى أعمص ". وفي فهرست الشيخ : " بكر بن أحمد بن زياد : له كتاب الطهارة والصلاحة " ^(٣٠) ، دون توصيف .

ويقوى في تضعيفات النجاشي أخذه من أستاذته أمحمد بن الغضائري المعلوم المسلك في التضليل ، ووصفه بأنه يروي الغرائب مشعر بسبب تضعيفه كما هي عادته ^{عليه السلام} ، والعدمة ملاحظة أخبار الراوي .

حيث روى الشيخ الصدوق ^{عليه السلام} في الحصول بسنده إلى بكر بن أحمد التصري ^(٣١) قال : حدثنا زيد بن موسى قال : حدثني أبي موسى بن جعفر ، عن أبيه جعفر بن محمد ، عن أبيه محمد بن علي ، عن أبيه علي بن الحسين ، عن أبيه الحسين بن علي ، عن أبيه علي بن أبي طالب ^{عليه السلام} قال : خرج أبو بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وغير واحد من الصحابة يطلبون النبي في بيت أم سلمة فوجدوني على الباب جالسا فسألوني عنه ، فقلت : يخرج الساعة ، فلم يلبث أن خرج وضرب بيده على ظهره فقال : كبير يا ابن أبي طالب ؟ فإنك تخاصم الناس بعدي بست خصال فتخصمهم ، ليست في قريش منها شيء ، إنك أو لهم إيمانا بالله ، وأقوامهم بأمر الله عز وجل ، وأفواهم بعهد الله ، وأرفأهم بالرعية ، وأعلمهم بالقضية ، وأقسمهم بالسوية ، وأفضلهم عند الله عز وجل ^(٣٢) .

كذلك روى عن السيدة الطاهرة فاطمة بنت علي بن موسى الرضا ^{عليه السلام} بسنده

عال عن المعصومين عليهم السلام إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال: «لا يحل لمسلم أن يروع مسلما»^(٣٣).

وفي عيون الأخبار كذلك بسند الصدوق إليه قال: حدثني أبو محمد الحسين بن علي بن محمد بن علي بن موسى عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «ليلة أسرى بي ربي جَنَانَ رأيت في بطان العرش ملكا بيده سيف من نور يلعب به كما يلعب علي بن أبي طالب عليه السلام بذاته الفقار وأن الملائكة إذا اشتقوا إلى وجه علي بن أبي طالب عليه السلام نظروا إلى وجه ذلك الملك فقلت: يا رب هذا أخي علي بن أبي طالب عليه السلام وابن عمي؟ فقال: يا محمد هذا ملك خلقته على صورة علي يعبدني في بطان عرشي تكتب حسناته وتسبحه وتقديسه لعلي بن أبي طالب عليه السلام إلى يوم القيمة».

وفيه دلالة على بقاء بكر إلى بعد الجواب عليه السلام بعفين، وليس في قوله: (يلعب به) ضعف يضر بمعنى الخبر؛ إذ المحارب لعبه برممه وسيفه وقت درابه ونزله، والمراد أنه شبيه لصورة علي عليه السلام كما أن للمؤمنين قثلا وصورة لهم في السماء تحاكى أفعالهم الخيرية، وهذا مفاد جمع من الأخبار.

وفي مناقب القمي (ح ٤١٢ هـ) بطريقين إلى بكر بن أحمد، قال: حدثني محمد بن علي [النقي]، عن أبيه، قال: حدثني موسى بن جعفر، عن أبيه، عن محمد بن علي عليهم السلام، عن فاطمة بنت الحسين، عن أبيها وعمها الحسن بن علي عليهم السلام قال: حدثنا أمير المؤمنين [علي بن أبي طالب عليه السلام] قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «(لَا دخلت الجنة رأيت فيها شجرة تحمل الحلبي والحلل، أسفلها خيل بلق، ووسطها حور العين، وفي أعلىها الرضوان. قلت: يا جبرئيل من هذه الشجرة؟ قال: هذه لابن عمك أمير المؤمنين إذا أمر الله الخليقة بالدخول إلى الجنة يؤتى بشيعة علي حتى يتنهى بهم إلى هذه الشجرة فيلبسون الحلبي [والحلل]، ويركبون الخيل البلق، وينادي مناد: هؤلاء شيعة

عليه صبروا في الدنيا على الأذى فأنكر موهب اليوم^(٣٤).

وأقرب منه نقله السيد بن طاوس في التحصين عن كتاب (نور الهدى والمنجي من الردى)^(٣٥).

وفي العيون بسنده إلى بكر بن أحمد بن محمد بن [العصرى] عن أبي محمد العسكري عن آبائه عن الباقي عليه السلام قال: «أوصى النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه إلى علي والحسن والحسين عليهم السلام، ثم قال في قول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَفْرَادٌ﴾، قال: الأئمة من ولد علي وفاطمة إلى أن تقوم الساعة». وفيه دلالة على بقائه إلى زمن العسكري عليه السلام.

فإذا اتضحت معاني جملة من أخباره بان سبب تضعيف ابن الغضائري له، إلا أن يقال أن ما اطلع عليه ابن الغضائري أكثر من هذا وأدل على مدعاه، ولكننا لعلنا بسلوك ابن الغضائري وطريقته نعلم إلى أن هذه الأخبار ومثلها هي الداعي لتضييقه بضم توصيفه برواية الغرائب، ولكونه قليل الرواية في الأحكام أو لغلبة روايات الفضائل على مروياته لم يكثر مترجموه كما هو حال كثير من الرواية.

٦- عبد الله بن ثابت بن يعقوب بن قيس بن إبراهيم العقسي البحرياني [لم يرو عنهم بال مباشرة]:

أبو محمد القاضي المقرئ النحوي، وفي بعض الكتب النجراوي وهو تصحيف البحرياني؛ لكونه منتسباً لعبد قيس وسكن بغداد ثم زار دمشق وغيرها وتوفي بالرميلة إحدى قرى البحرين "بني محارب بن عمرو بن وديعة العقبسيين، والرميلة أيضاً: قرية لبني عامر من بني عبد القيس بالبحرين"^(٣٦)، ويؤكد ما جاء في حاشية تاريخ دمشق لابن عساكر: "في المطبوعة: أبو محمد العقسي التوزي البحرياني. ومثلها في مختصر ابن منظور ١٢ / ٥٣ وتاريخ بغداد ٩ / ٤٢٦".

كان حافظاً شاعراً كثير السفر جداً، حتى قال في كثرة سفره وطريقته في العلم
شعرًا اشتهر نقله، ونقلناه فيما ذكره الخطيب وابن عساكر مثله.

قال الخطيب في تاريخه: "سكن بغداد وروى بها عن أبيه" ثم ذكر غيرهم، قال:
"أخبرنا محمد ابن عبيد الله بن الفضل الكيال قال: قال لنا محمد بن الهيثم -أبو بكر
المقرئ- أنشدنا عبد الله بن ثابت المقرئ:

إذا لم تكن واعياً حافظاً فعلمك في البيت لا ينفع
وتحضر [بالجهل] في موضع وعلمك في البيت مستودع
ومن يك في دهره يكن دهره هكذا يرجع

أخبرني الحسن بن أبي بكر قال: قال عثمان بن أحمد الدقاد: توفي عبد الله بن
ثابت أبو محمد في سنة ثمان وثلاثمائة، ودفن بالرملية. قلت: وبلغني عنه أنه قال: ولدت
في سنة ثلاثة وعشرين ومائتين في آخرها^(٣٧).

وقال ابن عساكر: "عبد الله بن ثابت بن يعقوب بن قيس بن إبراهيم بن عبد الله
أبو محمد [العقبسي التوزي البحرياني] القاضي المقرئ، قدم دمشق وحدث بها عن أبيه
و...". ثم ذكر شعره مشيراً لكثرة أسفاره وترحاله:

"حتى مت أنا في حل وترحال وطول سعي يادبار واقبال
وناح الدار لا أنفك مفترباً عن الأحبة لا يدرؤن ما حالي
في مشرق الأرض طوراً ثم مغربها لا يخطر الموت من حرصي على بالي
ولو قفت أثاني الرزق في دعة إن القنوع الفنا لا كثرة المال"^(٣٨)

خاتمة في ذكر جمع منهم

وبعد أن تم ما ذكرنا من أصحاب النبي ﷺ وأهل بيته الطاهرين ورجال الحديث والأسانيد البحرينيين، نختم المقال بذكر قائمة أخرى غير مترجمة بأسماء آخرين، ولو استوعب الباحث أسماءهم وأحوالهم لخرج مؤلف كبير، ويجب التنبيه إلى أن أكثرهم من عبد قيس وينسبون لها فيقال العبداني والعقبسي نسبة سماوية لا قياسية، أو ينسبون لجدتهم بكر بن وائل فيقال لهم البكري، أو ينسبون لربيعة فيقال الربعي، وينسب بعضهم إلى مسمع فيقال المسمعي، أو إلى بلدتهم قريب البصرة (مسمع) فكذلك، أو إلى البحرين فيقال بحراني، أو هجر فيقال هجري على ما حققناه، ويعلم ذلك بتتبع أسماء آبائهم وأجدادهم لا بالنسبة فقط.

فمنهم:

- ٧- صعصعة بن صوحان بن حجر بن الحارث العبداني.
- ٨- زيد بن صوحان العبداني أخو صعصعة.
- ٩- سيحان بن صوحان العبداني أخو صعصعة وزيد.
- ١٠- جويرية بن مسهر العبداني.
- ١١- بكر بن محمد العبداني العابد الكوفي.
- ١٢- بكر بن عبد الله الأشج.
- ١٣- أبي الوكيل البحريني، أبو لبيد المراء الهجرين، وال الصحيح الهجري فإن الهجرين مكان باليمن والسبة إليها البحريني، وقيل المخزومي، ونسبة النجراني إليه تصحيف، وفي الوسائل: "البحريني ثم الهجري" ^(٣٩) خطأ، وفي مصدره: "البحرياني المراء الهجرين"، وكلاهما خطأ، وال الصحيح: "البحرياني الهجري".

- ١٤ - عبد الله بن بكير المجري.
- ١٥ - علباء بن دراع الأسيدي.
- ١٦ - صيفي بن فسيل الشيباني.
- ١٧ - أبو سعيد عقيصان.
- ١٨ - من بني تيم الله بن ثعلبة.
- ١٩ - عبد الله بن حجل.
- ٢٠ - عبد الله بن الحارث بن بكر.
- ٢١ - رباح بن الحارث بن بكر.
- ٢٢ - الوليد بن عروة المجري.
- ٢٣ - مسمع بن سيار وقيل ابن مالك، وفدى على النبي ﷺ ثم رمي بالردة كثير ممن منع الزكاة وامتنع عن البيعة في عهد الأول وقتل بالبحرين، وهو أبو المسامة كما قيل.
- ٢٤ - مالك بن مسمع، وقيل عبد الملك.
- ٢٥ - مسمع بن عبد الملك [مالك]^(٤٠) بن مسمع، أبو سيار الملقب كردين بكسر الكاف والدال، أبو سنان، شيخ بكر بن وائل بالبصرة و وجهها وسيد المسامة، يقال إن الصادق علّيَّ قال له أول ما رأه: ما اسمك؟ قال: مسمع، فقال: ابن من؟ فقال: ابن مالك، فقال: بل أنت مسمع بن عبد الملك^(٤١). أقول: لهذا تجده عندنا غالباً ابن عبد الملك وفي تراجم العامة غالباً وفهارسهم ابن مالك، وقيل أن عبد الملك ومالك أخوان.
- ٢٦ - عامر بن عبد الملك بن مسمع.
- ٢٧ - عبد الله بن بكير المجري.
- ٢٨ - محمد بن علي بن عبد الرحمن العبد^٣ القيسبي.

- ٢٩- عبد العزيز العبدى.
- ٣٠- سفيان بن مصعب العبدى.
- ٣١- عبد الله بن جرير العبدى
- ٣٢- خليل العبدى.
- ٣٣- علي بن الحسن العبدى.
- ٣٤- أبو المارود زياد بن المنذر العبدى.
- ٣٥- مساعدة بن زياد العبدى.
- ٣٦- أبو هارون العبدى.
- ٣٧- علي بن الحسن العبدى.
- ٣٨- أبو عمر العبدى، أو أبو عمرو.
- ٣٩- أبو عثمان العبدى.
- ٤٠- عمرو بن خليفة العبدى.
- ٤١- أبو سلام العبدى.
- ٤٢- إسماعيل بن إبراهيم العبدى.
- ٤٣- الحسن بن عرفة العبدى.
- ٤٤- إبراهيم بن نعيم العبدى، أبو الصباح الكنافى من عبد القيس، ونسب إلى بني كنانة لأنه نزل فيهم.
- ٤٥- الحسين بن حماد بن ميمون العبدى.
- ٤٦- جفير بن الحكم العبدى.
- ٤٧- عبد الله بن أبي يعفور العبدى.
- ٤٨- عبد الله بن أحمد بن حرب بن مهزم بن خالد بن الفزر العبدى أبو هفان،

له شعر في المذهب، وبنو مهزم بيت كبير بالبصرة في عبد القيس شيعة، وعبد الله هو الذي جمع ديوان أمير المؤمنين عليه السلام، وطبع مراراً، ولا بن جني شرح عليه طبع معه.

٤٩- أذينة بن سلمة (مسلمة) العبدى.

٥٠- عبد الله بن حذيفة العبدى.

٥١- أبو نصرة العبدى.

٥٢- فرات بن الأحنف العبدى، فرات بن أبي يحيى، يرمى بالغلو والتفريط في القول، ومنشأ التهمة رواية الكرامات والمعيبات عن الأئمة عليهم السلام^(٤٢)، ولم نجد في مروياته ما يوجب رمييه بالغلو، إلا أن تكون قد محصت قبل تدوينها في الكتب المشهورة.

٥٣- رقيد بن مصقلة العبدى.

٥٤- نجم بن حطيم [و] قيل: ابن خطيم العبدى.

٥٥- بشر بن الصلت العبدى.

٥٦- الحسن بن السري العبدى الأنباري يعرف بالكاتب.

٥٧- الحسين بن الرماس العبدى.

٥٨- حفص بن سليم العبدى.

٥٩- عبد الله بن زياد البحراوى.

٦٠- حميد بن السري العبدى الكوفى.

٦١- خالد بن السري العبدى الكوفى.

٦٢- حريث بن عمير العبدى.

٦٣- عقبة الهمجى.

- ٦٤- مهدي بن حرب الهمجي.
- ٦٥- عبد الرحمن بن المنذر العبدى.
- ٦٦- عبد الملك أبو سنان العبدى البصري.
- ٦٧- عبد الأعلى بن زيد أبو شاكر العقدي (العبدى) الكوفي.
- ٦٨- علي بن السرى العبدى.
- ٦٩- داود بن علي العبدى.
- ٧٠- عبد الله بن محمد الحصيني العبدى، سكن الأهواز.
- ٧١- المختار بن زياد العبدى، بصرى ثقة.
- ٧٢- إبراهيم بن مهزم الأسدى من بني نصر، ابن أبي بردة.
- ٧٣- مهزم الأسدى.
- ٧٤- عامر بن عبد قيس، من الزهاد الثمانية، كان مع (علي عاشئته).
- ٧٥- عمر بن محمد بن عبد الرحمن بن أذينة بن سلمة بن الحارث، شيخ أصحابنا البصريين ووجهم، روى عن أبي عبد الله عاشئته بكتابته.
- ٧٦- محمد بن معمر القيسى البحارنى أبو عبد الله، الشاعر.
- ٧٧- العباس بن يزيد بن أبي حبيب البحارنى، يعرف بعباسوية.
- ٧٨- ذكريا بن عطية البحارنى.
- ٧٩- مالك بن المنذر بن الجارود، كان عامل البصرة لخالد بن عبد الله القسri.
- ٨٠- عبد الله بن محمد بن عبد الله العقسي.
- ٨١- عبد الله بن محمد بن الحسين بن الحفا العقسي الشاعر.
- ٨٢- أم خالد العبدية.
- وبهذا يتم هذا الموجز الذي جمع ما يقرب من مائة اسم لرجال البحرين في

الأسانيد والأخبار النبوية والإمامية على النبي وآلـهـ أـفـضـلـ الـصـلـوـاتـ السـنـيـةـ،ـ والـحـمـدـ
لـلـهـ رـبـ الـعـالـمـيـنـ.

المواهـشـ:

- (١) اختيار معرفة الرجال ٢٩٠ : ١.
- (٢) رجال الشيخ ٥٥٦.
- (٣) رجال الشيخ ٩٣١.
- (٤) رجال الشيخ ٩٧٨.
- (٥) رجال الشيخ ١١١٢.
- (٦) تاريخ الأئمة للبغدادي: ٣٢.
- (٧) مناقب آل أبي طالب ٣: ٣٢٣.
- (٨) الإصابة ٤٠٤: ٢.
- (٩) انظر القاموس المحيط ١٥٨: ٢، مادة هجر.
- (١٠) الأنساب ٦٢٧: ٥، باب الماء والجيم.
- (١١) اللباب ٣٨١: ٣، باب الماء والجيم.
- (١٢) معجم البلدان ٣٤٧: ١.
- (١٣) الروض المعطار في خبر الأقطار: ١٧٦.
- (١٤) الاشتقاد: ٤١١.
- (١٥) تاريخ ابن خلدون ٣٠٠: ٢.
- (١٦) تذكرة الحفاظ ٨٤: ١.
- (١٧) أمالى السيد المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد) ٨٤: ١.
- (١٨) الخرائج والجرائح ٨١٠: ٢.
- (١٩) اختيار معرفة الرجال ٢٩١: ١.

- (٢٠) تاريخ الكوفة: ١٠٢.
- (٢١) فهرست النجاشي: ر ١١٦٦.
- (٢٢) رجال الشیخ: ر ٤٠١٤.
- (٢٣) رجال البرقی: ر ٦٣.
- (٢٤) اختیار معرفة الرجال: ر ٩٦٥.
- (٢٥) يأتي تخریجه.
- (٢٦) الخصال: ٣٣٦.
- (٢٧) عيون أخبار الرضا علیه السلام: ١: ٧٥-٧٦/ ح ٣٢٧.
- (٢٨) فهرست النجاشي: ر ٢٧٨.
- (٢٩) رجال ابن الغضائري: ١: ٤٤، رجال ابن داود: ر ٢٥٥.
- (٣٠) فهرست الطوسي: ر ١٢٨.
- (٣١) وهو مصحف العصري.
- (٣٢) الخصال: ٣٣٦.
- (٣٣) عيون أخبار الرضا علیه السلام: ١: ٧٥-٧٦/ ح ٣٢٧.
- (٣٤) مائة منقبة: ١٧١.
- (٣٥) التحصين: ٥٤٠.
- (٣٦) حاشية تاريخ دمشق: ٢٧/ ١٧٨.
- (٣٧) تاريخ بغداد: ٩: ٤٣٣.
- (٣٨) تاريخ دمشق: ٢٧: ١٧٦.
- (٣٩) الوسائل: ٢٧: ١٩١، ب ١٣ من أبواب صفات القاضي.
- (٤٠) المخلاصة: ١٧١.
- (٤١) المخلاصة: ١٧٢.
- (٤٢) منها ما رواه الطبری في دلائل الإمامة: ٤٥٩: "عن فرات بن الأحنف، قال: كنت مع أبي عبد الله علیه السلام ونحن نريد زیارة أمیر المؤمنین (صلوات الله عليه)، فلما صرنا إلى الشویة نزل فصلی

ركعتين، فقلت: يا سيدى، ما هذه الصلاة؟ قال: هذا موضع منبر القائم، أحببت أنأشكر الله في هذا الموضع. ثم مضى ومضيت معه حتى انتهى إلى القائم الذى على الطريق، فنزل فصلى ركعتين، فقلت: ما هذه الصلاة؟ قال: ها هنا نزل القوم الذين كان معهم رأس الحسين عليه السلام في صندوق، فبعث الله بِرْهَنَ طيرا فاحتمل الصندوق بما فيه، فمر بهم جمال، فأخذوا رأسه، وجعلوه في الصندوق وحملوه، فنزلت وصليت ها هنا شكر الله. ثم مضى ومضيت معه حتى انتهى إلى موضع، فنزل وصلى ركعتين، وقال: ها هنا قبر أمير المؤمنين (صلوات الله عليه)، أما إنه لا تذهب الأيام حتى يبعث الله رجلا متحنا في نفسه بالقتل، يبني عليه حصنا فيه سبعون طاقا. قال حبيب بن الحسين: سمعت هذا الحديث قبل أن يبنى على الموضع شيء، ثم إن محمد بن زيد وجه فبني عليه، فلم تمض الأيام حتى امتحن محمد في نفسه بالقتل .

العرف ودوره في استنباط الحكم الشرعي

(القسم الثاني)

عادل عبد الحسين الهناني

كما ألمّا الأمر الثاني: وهو صلاحية العرف لتحديد موضوعات الحكم الشرعي، فالبحث فيه من جهتين أيضاً:

أمّا الجهة الأولى: وهي البحث عن صلاحية العرف ومرجعيته لتحديد موضوعات الأحكام وبيان مفهوم الموضوع وحدوده، فنقول: إنَّ الشارع تارة يجعل الأحكام على موضوعات مختربة، وأخرى يجعلها على موضوعات عرفية إِلَّا أنَّ الشارع تصدى لبيان حدودها بنفسه، وثالثة يجعل الحكم على موضوع عرفي دون أن يتصدى لبيان حدوده.

أمّا الأول: فمثاله كيفية الصلاة والوضوء والتيمم... الخ، ولا ريب في هذا الفرض أنَّ المرجع لتشخيص موضوعات الأحكام هو الشارع نفسه، إذ من غير المعقول أن يخترع الشارع موضوعاً ثم يحيل تشخيصه للعرف أو غيره، فلا سبيل إذن للتعرف على مثل هذه الموضوعات إِلَّا مراجعة الشارع، وهذا واضح.

وأمّا الثاني: وهو ما لو كانت موضوعات الأحكام عرفية، بمعنى أنَّ للعرف مفاهيم محددة لهذه الموضوعات إِلَّا أنَّ الشارع تصدى بنفسه لبيان حدودها، وذلك مثل مفهوم الحيض والسفر والاستطاعة.

وفي مثل هذا الفرض لا مرجعية للعرف أيضاً في تشخيص موضوعات الأحكام بعد أن تصدى الشارع لتشخيصها وبيان حدودها، إذ أنَّ نفس تصدى الشارع لذلك

إلغاءٌ لمرجعية العرف وأنَّ المفاهيم التي هي محددة عند العرف على سعتها أو ضيقها ليست هي موضوعات الأحكام، نعم لو كان تصدِّي الشارع لتشخيص الموضوع بنحو إضافة بعض القيود على الموضوع العرفي أو إلغاء بعض القيود فإنَّ ذلك لا يلغي مرجعية العرف في المقدار الذي لم يتصدِّي الشارع لتهذيبه، لو استظهرنا من الأدلة أنَّه ليس للشارع مفهوم مباین للمفهوم العرفي، غايتها أنَّه لم يجعل الحكم على الموضوع العرفي على سنته أو ضيقه، ففي مثل هذا الفرض يكون المرجع في تشخيص الموضوع هو العرف إلَّا في المقدار الذي تصدَّى الشارع لبيانه وتهذيبه إمَّا بإلغاء بعض القيود أو الأجزاء أو بإضافة قيود ليست دخيلة بحسب المفهوم العرفي.

وأمّا الثالث: وهو ما لو كانت موضوعات الأحكام عرفيَّة، ولم يتصدِّي الشارع لتشخيصها وبيان حدودها، وهنا لا ريب في مرجعية العرف في تشخيص موضوعات الأحكام، إذ أنَّ ذلك هو المستظهر من عدم تصدِّي الشارع لتشخيص الموضوعات، إذ لا معنى لأنْ يجعل الشارع حكمًا على موضوع له مفهوم محدَّد عند العرف ويكون الشارع مريداً لمفهوم آخر غير ما يفهمه العرف ومع ذلك لا يتصدِّي لبيانه رغم أنَّ الخطاب الذي جعل فيه الحكم على موضوعه كان ملقيًّا لغرض ترتيب الأثر عليه والتحرك عنه، وذلك ما يُعبِّر عن أنَّ موضوع الحكم الشرعي إنَّما هو ذلك المفهوم المحدَّد لدى العرف.

وأمّا الجهة الثانية: وهي مرجعية العرف لإثبات أو نفي تحقق الموضوع خارجاً، وهي تختلف عن الجهة الأولى من حيث أنَّه حتى لو لم نقل بمرجعية العرف في تشخيص مفاهيم الموضوعات فإنَّ من الممكن القول بمرجعية العرف لإثبات أو نفي تتحقق الموضوع الشرعي خارجاً، فلو افترضنا أنَّ الشارع هو الذي حدَّد مفهوم الفقير وأنَّه الذي لا يملك قوت سنته فإنَّ من الممكن أنْ يُحيل المكلفين إلى العرف للتحقق

من أنَّ زيداً يملك قوت سنته أو لا يملك، وهذا هو معنى مرجعية العرف لإثبات أو نفي تحقق الموضوع الشرعي خارجاً.

وكيف كان فلا ريب في أنَّ للعرف هذه الصلاحية^(١)، وذلك بعد أن كانت الأحكام الشرعية معمولة على نهج القضايا الحقيقة، أي معمولة على موضوعاتها المقدرة الوجود، فإنَّ ذلك يعطي أنَّ الشارع ليس بقصد التتحقق من وجود موضوعات الأحكام خارجاً أو عدم وجودها، إذ أنَّ ذلك إنما هو شأن القضايا الخارجية، وعليه يكون التتحقق من وجود الموضوع أو عدم وجوده إنما هو من وظيفة المكلفين^(٢)، ومن الواضح أنَّ لا سبيل للمكلف لإنجاز تتحقق الموضوع خارجاً أو عدم تتحقق إلا بالرجوع إلى العرف، إذ أنه الوسيلة العقلائية للتتحقق من ذلك، ولما لم يخترع الشارع وسيلة أخرى لإنجاز موضوعاته فإنَّ ذلك يُعبر عن إمضائه لهذه الوسيلة العقلائية^(٣).

ثم إنَّ الملاحظ أنَّ إثبات تتحقق الموضوع أو نفيه عند العرف مختلف باختلاف المجتمعات والأزمنة وال الحالات، فهل أنَّ ذلك مانع عن الرجوع إلى العرف في التتحقق من وجود موضوع الحكم أو عدم وجوده؟
الظاهر أنَّ ذلك لا يمنع عن الرجوع إليه، إذ أنَّ هذا الاختلاف لا يُعبر عن التباين في ضابطة التتحقق من وجود الموضوع عند العرف.

فمثلاً: لو كان الفقير بحسب نظر الشريعة هو من لا يملك مؤنة سنته له ولديه، فإنَّ ضابطة تتحقق هذا الموضوع خارجاً بنظر العرف لا تختلف باختلاف الظروف والمجتمعات، إذ أنَّ غاية ما تقتضيه الظروف والمتغيرات هو تبدل مصاديق الموضوع ذي المفهوم المحدّد والمطرد، فالمؤنة التي كان يملكتها الشخص كانت تكفيه لسنة كاملة، وذلك لقلة عياله أو لعدم طرؤ ما يوجب النفقة الزائدة، فلا يعد معها فقيراً، إلا أنه لو

اتفق ما يوجب النفقة الرائدة كما لو طرأ عليه أو على أحد عياله مرض أو اتفق ارتفاع قيم الأجناس فأصبحت النقود التي بحوزته قاصرة عن استيعاب مؤنته ومؤنة عياله، في حين أنَّ مقدارها في العام السابق كان كافٌ لغطية مؤنته ومؤنة عياله لعدَّ فقيراً، وهكذا حينما يختلف المجتمع أو تكثر الحاجات والضرورات.

وهذا المعنى مطرد في تمام الموارد التي يتوهم اختلاف الضوابط العرفية فيما هو الحقُّ لوجود الموضوع وعدم وجوده، فإنَّ الواقع أنَّ الضوابط لا تختلف وأنَّ الذي يختلف هو مصاديق الموضوعات، فإنَّ الشيء الواحد قد يكون مصداقاً للموضوع في زمن ولا يكون مصداقاً له في زمن آخر أو في مجتمع آخر أو في حالة أخرى. ولمزيد من التوضيح نذكر مثلاً آخر وهو لباس الشهرة فإنَّ له معنىً منضبطاً عرفاً وأنَّ تتحققه خارجاً معناه انطباق ذلك الضابط العرفي على لباس معين، وهذا القدر لا يختلف باختلاف المجتمعات والأزمنة، والاختلاف إنما ينشأ من جهة اختلاف الظروف الموضوعية من مجتمع لآخر، وهذه الظروف هي التي تستوجب الاستيحاش من لباس معين واستهجان لبسه، فيكون بذلك من لباس الشهرة في حين أنَّ هذا اللباس نفسه قد يكون مألفاً في مجتمع آخر نتيجة ظروفه الموضوعية المختصة به، وهذا ما يستوجب انتفاء أن يكون هذا اللباس مصداقاً للباس الشهرة في ذلك المجتمع.

وبهذا يتضح أنَّ منشاً الاختلاف في حكم العرف بتحقق الموضوع وعدم تتحققه إنما ينشأ من أنَّ الأفراد الخارجية قد تكون منطبقاً لمفهوم موضوع الحكم الشرعي وقد لا تكون منطبقاً لذلك المفهوم بسبب انتفاء الخصوصيات المأخوذة في المفهوم عن ذلك الفرد، وانتفاء الخصوصيات أو وجودها يخضع في كثير من الأحيان للظروف الموضوعية، وهذا هو السرُّ في اختلاف حكم العرف بتحقق الموضوع أو عدم تتحققه.

ثم إنَّ العرف في إثباته أو نفيه لموضوع الحكم الشرعي -خارجًا- على
قسمين^(٤):

القسم الأول: أن يكون الحكم مبنياً على الدقة في التطبيق.

القسم الثاني: أن يكون مبنياً على المساحة في ذلك، لأن يحكم على ما يقل عن
المن^٥ بثقال بأنه من^٦، مساحةً في نقص المثقال والغض عن ذلك بلحاظ المن، وإن كان
لا يتسامح عن المثقال بلحاظ المثقالين.

وما نفينا عنه الريب هو ثبوت صلاحية العرف لإثبات أو نفي تحقق موضوع
الحكم الشرعي خارجاً بلحاظ القسم الأول، وأما القسم الثاني فلا موجب لحجيته،
لأن مساحات العرف ما لم ترجع إلى تعين المفهوم فلا عبرة بها، وبيان ذلك: أن
مساحات العرف تارة توجب التوسعة في مفهوم اللفظ كالمُنْ^٧ مثلا، فيعد الجامع - بين
ما يقل بثقال وما لا يقل - مثنا، وكذا في مفهوم الحنطة والشعير فإن العرف يرى سعة
المفهوم وشموله للمشتمل على الخلط من تراب ونحوه، غير المنفك عنه غالباً، بل لا
يخصه بالخاص الذي هو فرد نادر^(٨) وهذا راجع إلى تعين المفهوم والذي يتحكم
نظر العرف فيه، وهنا لا مشكلة.

وآخرى لا يوجب ذلك - التوسعة - و يعد المفهوم شيئاً معيناً ثم يتسامح في
تطبيق ذلك المفهوم على ما لا ينطبق عليه حقيقة، وهذا بحسب الحقيقة راجع إلى
التزيل في الحكم. وإن شئت فعبر عنه بالحكومة، فيعطي لما ينقص عن المن^٩ بثقال
حكم المن، لأنَّه يوسع مفهوم المن^{١٠} فيحكم بالبراءة على من اشتغلت ذمته بمن^{١١} بأداء
ما نقص عنه بيسير. والشاهد على أن التسامح في التطبيق لا يوسع مفهوم الدوال،
هو عدم تسامحهم في لفظ واحد في مورد، مع تسامحهم فيه في مورد آخر، ألا ترى
تسامحهم بثقال بل أزيد في بيع من^{١٢} أو مد^{١٣} أو صاع من تراب، بما لا يتسامحون به بل

وبدونه في بيع مَنْ وغیره من ذهب ونحوه، ولا ريب أن مفهوم الأوزان والمكاييل لا يختلف باختلاف الموزونات والمكيلات. ولذا أصرّوا على عدم مراجعة العرف في التطبيق^(٦) - ويقصدون العرف المساجي^(٧) - فنجدهم يحكمون ببطلان عقد الزواج بل حرمه الأبدية لو تزوجت المرأة قبل انقضاء عدتها ولو بساعة مع الالتفات إلى أنها في العدة، وبانفعال الماء الذي نقص عن الكر ولو بقدر غرفة^(٨) ، وبعدم التقصير فيما دون المسافة ولو بخطوة^(٩) ، يقول الإمام الخميني تَعَّثُّ : "... لأن مبني مخاطبات الشرع معنا كمخاطبات بعضنا مع بعض، ولا شبهة في أن المخاطبات العرفية لا تكون مبنية على الدقة العقلية لا مفهوما ولا في تشخيص المصاديق، فإذا قال (اغسل ثوبك من الدم) فكما أن مفهومه يؤخذ من العرف كذلك المعلول عليه في تشخيص المصدق هو العرف، فلون الدم دَمْ عقلا لكن لا يجب غسله لعدم كونه دما عرفا بل هو لون الدم، ... لأن الميزان في تشخيص المفاهيم والمصاديق نظر العرف بحسب فهمه ودقته لا مع التسامح العرفي، فإذا كان للمفهوم مثلاً ثلاثة مصاديق: أحدها مصدق برهاني عقلي لا سبيل للعرف إلى تشخيصه ولو مع الدقة وعدم التسامح كلون الدم، فإن العرف لا يدرك استحالة انتقال العرض وأنَّ المترافق أجزاء صفار جوهرية، فلا يكون اللون دمأً في أدق نظر العرف، ولا يتسامح في سلب الدَّمَيَّة عنه، وثانية مصدق عرفي من غير تسامح عرفي، بل يكون مصداقاً بدقتها العرفية، وثالثها مصدق مسامحي لدى العرف، كإطلاق (الألف) على عدد ناقص منه بواحد أو اثنين، وإطلاق (الرطل) على ما نقص بمثال أو درهم، ولا إشكال في أن هذا الإطلاق مسامحي مجاني يحتاج إلى التأول، فميزان تشخيص موضوعات الأحكام هو الثاني، لا الأول وهو معلوم، ولا الثالث إلا مع قيام قرينة حالاً أو مقالاً على تسامح المتكلم، وإلا فأصالحة الحقيقة محكمة..."^(١٠)، ويقول في موضع آخر: "ليس التسامح العرفي في شيء من الموارد ميزاناً، لا في تعين المفهوم ولا في

تشخيص المصاديق، بل المراد من الأخذ من العرف هو العرف مع دقته في تشخيص المفاهيم والمصاديق، وأن تشخيصه هو الميزان مقابل تشخيص العقل الدقيق البرهاني...”^(١١)، ويقول في موضع ثالث: ”... وقد ذكرنا في محله أن موضوعات الأحكام تؤخذ من العرف لكن لا على وجه المسماحة بل على نحو الحقيقة والدقة العرفية وإن لم يكن على نحو الدقة العقلية...”^(١٢).

وينبغي التنبيه هنا إلى أن هناك فرقاً بين التسامح في التطبيق والخطأ في التطبيق، فإن التسامح كثيراً ما يكون مورداً للالتفات - ولو ارتکازاً - ومع ذلك لا يؤثر في التراجع عن ما وقع العزم عليه، كما أنه قد يكون التسامح لخائه مغفولاً عنه فيتخيل كون البناء على أساس الدقة مع كونه مبنياً واقعاً على المساحة، ولكن بحيث لو نُبِّه لم يؤثر في التراجع. وفرقنا فيما تقدم - بين ما إذا كان التسامح راجعاً إلى تحديد المفهوم فمقبول، وأما إذا كان راجعاً إلى التطبيق فلا، إلا أن يكون التوسع في التطبيق كاشفاً عن التوسع في المفهوم كما في موارد صدق الhtك والوهن.

أما التطبيقات الخاطئة للعرف فلا عبرة بها أصلاً، بل لو نبه العرف على الخطأ لتراجع عن صدق اللفظ بما له من مفهوم على المورد. ومثاله وجوب السجود عند الاستماع لقراءة آيات السجدة، فلو استمع شخص لآية من آيات السجود الواجب الأربع من مثل التلفاز والإذاعة، فربما يعتبر العرف ذلك استماعاً ل القراءة فيوجب السجود، ولكن ذلك مبني على خطئه في التطبيق، فإن القراءة عبارة عن الصوت المعتمد على الفم، وحد سماعه محدود بشعاع خاص لا يكاد يتحقق في غيره، أما الآلات التي يكون الاستماع بتوسطها فلما كان العرف البسيط يتخيله وسيطاً لنقل الصوت، فيتخيل أن نفس الصوت الصادر من القارئ ينتقل إلى السامع، مع أنه ينتقل عبر الآلة، وهو صوت آخر مشابه للصوت الأصلي نوع مشابهة، شأنه

بالنسبة إلى الصوت الأصلي شأن الصورة المنقوشة بالنسبة إلى ذي الصورة. وهذا التطبيق لما كان مبنيا على خطأ العرف فليس هو معتبرا، ولذا لو نبه عليه والتفت إلى خطئه في تحليل ما تصوره لرجوع عن حكمه^(١٣).

وأما الأمر الثالث: وهو مرجعية العرف لتحديد المراد من الخطابات الشرعية، فلا ريب في ثبوت هذا الدور للعرف، إذ هو الوسيلة العقلائية المتبعة في مقام التعرف على مرادات المتكلمين، وقد أمضى الشارع هذه الوسيلة، وبذلك تثبت دليليتها وكاشفيتها عن مرادات الشارع من خطاباته، وأما ما هو الدليل على إمساء الشارع لذلك وما هو حدود ذلك الإمساء فهذا ما تتصدى لإثباته مباحث حجية الظهور، فراجع.

عرف المتكلم أو المخاطب؟

لا شبهة في أن العرف المحكم في تعين حدود مفاهيم الألفاظ هو العرف السائد في زمان النص، فلا عبرة بالمفاهيم المستحدثة للألفاظ. كما أن العبرة في معاني الألفاظ إنما هي بمعانيها في لغة العرب لا بالأوضاع غير العربية وإن استعملت في لغة العرب. وعلى تقدير على عرف زمن النص و المعنى العربي للمفهوم، قد يتافق عرف المتكلم مع عرف المخاطب في تحديد معاني ألفاظ الخطاب فلا كلام، وقد يختلف، فيبحث حينئذ عن المرجع، فهل هو عرف المتكلم أو هو عرف المخاطب أو عرف البلد. ومرجع هذا البحث إلى أن المتكلم هل هو ملزم ببراعة عرف المخاطب؟ أو أنه غير ملزم؟ أو أنه موظف بالالتزام بعرفه هو دون عرف المخاطب؟ وهل أن المخاطب ملزم بحمل الألفاظ على المعاني التي توافق عرف المتكلم؟ أو على تلك التي توافق عرفه هو^(١٤)، أو لا بد لهما من الالتزام بعرف الحال الذي ألقى فيه النص؟ في المسألة

وجوه بل أقول، العمدة منها أربعة:

القول الأول: الأصل أن كل متكلم فإنه يتكلم وفقاً لأصول المعاورة الرائجة بحسب العرف والمجتمع الذي يعيش فيه، فلا بد من حمل الكلام على عرفة فإنه هو من ألقى الكلام وهو الأدرى بمراده من كلامه، فلا معنى لحمل كلامه على معنى آخر غير المعنى المتعارف عليه في عرفة، وقد ذهب إلى هذا القول من المتأخرین السيد الخوئي^(١٥) وفaca لصاحب المواهر^(١٦) والسيد المرتضى^(١٧). ويحتاج لهذا القول بأن: حقيقة اللفظ الذي استعمله المتكلم إنما هو مصطلحه لأنَّه معناه الموضوع له عنده، بخلاف مصطلح المخاطب فإنه خلاف المعنى الموضوع له عنده فيكون مجازاً للفظ المفروض، كما يقتضيه احتجاج بعض القائلين بترجيح عرف المتكلم بأن الاستعمال مجرد عن قرينة المجاز يحمل على الحقيقة لأصلَّةِ الحقيقة، وعرف المتكلم هو الحقيقة عنده فليحمل عليه^(١٨). وربما يؤيد هذا القول بما ورد عن أبي طالب عبد الله بن الصلت قال: كتب الخليل بن هاشم إلى ذي الرئاستين وهو والي نيسابور: أن رجلاً من الجوس مات وأوصى للفقراء بشئ من ماله فأخذته قاضي نيسابور فجعله في فقراء المسلمين فكتب الخليل إلى ذي الرئاستين بذلك فسأل المأمون فقال: ليس عندي في هذا شيء، فسأل أبو الحسن عليه السلام فقال أبو الحسن عليه السلام: «إنَّ الجوسي لم يوص لفقراء المسلمين، ولكن ينبغي أن يؤخذ مقدار ذلك المال من مال الصدقة فيرد على فقراء الجوس»^(١٩).

القول الثاني: أن العبرة بعرف المخاطب، وذهب إلى هذا القول العلامة^(٢٠) قديث، واستدل له بأنَّ المتكلم لا بد له من سوق الألفاظ على وفق اصطلاح المخاطب وإلا كان إغراء بالجهل.

القول الثالث: التوقف لعدم قافية أدلة كلا القولين المتقدمين.

القول الرابع: التفصيل بين صور مختلفة من علم المتكلم والمخاطب بعرف بعضهما وجهلهما به^(٢١).

والصحيح: أن المتكلم إذا كان ملتفتا إلى عرف المخاطب فالمدار عليه لأن الأصل كون المتكلم في مقام التفهم الذي لا يتم إلا برعاية عرف المخاطب ما لم يقم قرينة على الإجمال وإذا لم يكن ملتفتا فالمدار على عرفه لأنه الأعرف ببراده، ولكن الأصل فيه الالتفات، وأما الرواية المتقدمة في القول الأول فلا ربط لها ب محل الكلام، فإن موردها اختلاف المتكلم والمتلقى لكلامه كالوصي، ومحل الكلام في اختلاف عرف المتكلم والمخاطب.

إثبات معاصرة العرف^(٢٢)

المتحصل من كل ما تقدم أن التعارف في نفسه وبأي شكل افترض لا يكون مصدراً من مصادر التشريع نعم تكون دليლته على الحكم الشرعي راجعة لكشفه عن تقرير الشارع وإمضائه، هذا في العرف العملي، وأما العرف المتبعد في الموضوعات فحججته من باب انصراف النصوص إليه.

والعرف إنما يكشف عن تقرير المعصوم عليه السلام إذا توفرت فيه أمور ثلاثة:

- ١- وجود العرف في زمان المعصوم عليه السلام، وهذا ما يسمى بالمعاصرة لزمان المعصوم، إذ لو لم يكن هناك عرف في زمان المعصوم عليه السلام فلا معنى لدعوى تقريره لذلك العرف؛ باعتبار أن التقرير نسبة بين المقرر والمقرر الذي هو في المقام العرف، فإذا لم يوجد عرف في زمان المعصوم عليه السلام - وهو المقرر - فلا معنى للتقرير.
- ٢- عدم ردع الشارع للعرف، إذ لو صدر الردع من المعصوم عليه السلام عما انعقد عليه العرف فلا يجوز التمسك به، ووجه ذلك واضح؛ لأن العرف لا حجية له بالذات

بل الحجية للإمضاء المقارن أو المستكشف، أو غير ذلك من أنحاء الملازمة، فإذا كان العرف يتصرف بالحجية من باب إمضاء الشارع فمع الردع ترتفع الحجية.

٣- إثبات الملازمة بين عدم الردع وبين الإمساء.

وحيث إنَّ إثبات معاصرة «العرف» للمعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ يختلف نوعاً ما عن إثبات معاصرة «سيرة العلاء» للمعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ؛ فإنَّا نذكر هنا الطرق التي ذكرت لإثبات معاصرة العرف للمعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ ونكتفي في الأمرين الثاني والثالث بما ذكر في المباحث الأصولية.

أما أن معاصرة العرف تختلف عن معاصرة السيرة، فذلك لما عرفت: من أن العرف هو عبارة عن صدور فعل واحد من كثيرين على نحو التكرار، ومن الواضح: أن مثل هذه الأعراف تختلف باختلاف المجتمعات، بلحاظ الزمان الواحد وبلحاظ الأزمنة المختلفة الخ.

وعليه: لا يمكن التمسك بأيٍّ عرفٍ واقعٍ في زمان معين لإثبات كون هذا العرف معاصرًا للمعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ؛ لعدم اتحاد الأعراف وحصول التغير والتحول فيها خلافاً للسيرة، إذن لا بد من ذكر طرق أخرى لإحراز معاصرته للمعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ.

وقد ذكرت في المقام عدة طرق^(٢٣):

الطريق الأول: وجود نقلٍ تاريجي معتمد -كحصول توافرٍ أو وجود قرائن محتفظة بالخبر تدل على صدقه أو وجود خبر ثقة- على انعقاد عرفٍ في زمان المعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ، فعندما يمكن التمسك بهذا العرف، مع عدم ردع المعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ عنه.

الطريق الثاني: أن تتفحَّص البديل والخيارات وأن أيًّا منها هو الواقع في زمان المعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ، فإذا كانت البديل -إلا واحداً منها- مما يكون الأخذ بها عسيراً تعين الأخذ بالبديل الذي لا عسر فيه والقول بأنه هو الواقع في زمان المعصوم عَلَيْهِ الْمُبَارَكَةُ، مثل

عرف الاعتماد في تحديد مفهوم الثمن والمثمن على بلد العقد لا بلد البائع.

الطريق الثالث: كون العرف في زماننا كاشف عن العرف في زمان المعصوم عليهما السلام،

من قبيل تعارف الناس على التحية بطريقة معينة في هذا الزمان، كالتبجيل والمعانقة عند التلاقي، فنستكشف وجود مثل هذا العرف في زمان المعصوم عليهما السلام أيضاً.

والصحيح: إنه لا يمكن أن تستكشف من العرف الواقع في زمان على أنه عرف

واقع في زمان المعصوم عليهما السلام، فمجرد انعقاد عرف في زمان لا يدل على وجود مثله لا في ذلك الزمان ولا في زمان آخر؛ وذلك لأن الأعراف محل اختلاف ويكون لكل منها مشخصاته وخصوصياته وموارد انعقاده. نعم مع إحراز الاشتراك في المخصوصيات يمكن ذلك.

الطريق الرابع: أن يكون الفعل الذي انعقد عليه «العرف» كما لا بديل له ممكن

بحسب العادة، كما في الأخذ بخبر الولي فيما يتعلق بما هو ولي عليه، فإن بديل العمل بخبر الولي هو العمل بالقطع، ومن الملاحظ أن هذا البديل متعرّض إن لم يكن متذرّ، فإن الاعتماد على قول الولي ليست موارده قليلة، وعليه: فلو كان العمل في زمان

المعصوم عليهما السلام على خلاف ما انعقد عليه العمل في زماننا هذا الوجب أن يُنقل إلينا بنحو أكيد وبّين واضح، فعدم نقل ذلك البديل يدل على عدم وجوده، فيتعين أن يكون العمل موافقاً لما هو موجود في هذا الزمان.

الطريق الخامس: أن يكون «العرف» راسخاً رسوخاً قوياً في زمان المعصوم عليهما السلام،

ويكون مورد انعقاده محل ابتلاء بنحو العموم من دون اختصاصه بطائفة دون طائفة أو شخص دون شخص، فإذا تحقق هذان الأمرين كان لازم انعقاد ذلك «العرف» أنه مع وصول الردع عنه نستكشف عدم رضاه، وإلا علمنا بموافقته له؛ وذلك لما ذكر في علم الأصول من أن إقدام العرف والعقلاء على مثل هذا الفعل -الذي يكون محل

ابتلاء بالنسبة إلى العموم - يهدد أغراض الشارع، فإذا كانت دائرة العرف تشمل أو تتدخل مع دائرة التشريع وجب على العقلاء أن يسألوا الشارع عن حكم ذلك الفعل، ووجب على الشارع - إن لم يسألوا - أن يردعهم عن ذلك الفعل إن كان ذلك الفعل منافيًّا لأغراضه، فإذا سألوا وردعهم الشارع ووصل لنا الردع، لم يكن الأخذ بذلك العرف، وهذا خلف حيث فرضنا عدم وصول ردع منه. وإذا سألوا وردعهم الشارع ولم يصل إلينا ردع - وهو موهم بحساب الاحتمالات لفرض كثرة الابتلاء بالفعل -، أمكن الأخذ والعمل بالفعل لكافية عدم وصول الردع لنا. وإذا لم يسألوا ولم يردعهم الشارع: فإما أن يكون ذلك من جهة موافقة الشارع لهم، فيثبت جواز العمل بالفعل أيضًا، وإما أن يكون من جهة احتمال عدم سؤالهم أصلًا وهذا لا من شأنه إلا الغفلة، ولا يتحمل الغفلة فيهم جميعًا. والحاصل: إنه يثبت إمضاء الشارع وأنه لا مانع من الأخذ به مثل هذا العرف الخاص.

فثبت أن العرف ليكون حجة فلا بد من تحقق الشروط الثلاثة، أعني إثبات المعاشرة وإثبات عدم الردع والملازمة بين عدم الردع وبين إمضاءه. وهذا لا يكون العرف حجة في أمثل عقد التأمين أو عقد حق الامتياز أو بيع السرقة... الخ لتختلف الشرط الأول، ولا في مثل المعاملات الربوية بأنواعها أو اشتراط المرتهن الانتفاع من العين المرهونة... الخ وذلك لتختلف الشرط الثاني، فلا بد في أمثل كل ذلك من التماس دليل آخر غير العرف^(٤).

ثم إنه لا ينبغي أن يتوجه أحد العقلاء لمعاصر للمعصوم الحجة المنتظر عليه السلام، فسكته تقرير منه وإمضاء، بحجة أنه موجود بين ظهرينا، يشهد ما يدور بيننا، وعليه فلا يوجد عرف غير معاصر للمعصوم عليه السلام. فإن سكته عليه السلام في غيبته لا يدل على إمضاءه لا عقلاً ولا استظهاراً كما بُين ذلك مفصلاً في

الأصول^(٢٥).

تعارض العرف والشرع واللغة

للتعارض بين العرف والشرع واللغة صور نجملها في صورتين:

الصورة الأولى: فيما إذا كان مورد التعارض حقيقة شرعية وعرفية، وهنا تقدم الشرعية^(٢٦) بلا إشكال، وعلل تارة بأن العرف لا اطلاع له على خفايا ما ذكره الشارع وحده، وأخرى بأن عرف الشارع آكد من عرف العادة، وثالثة لأنها النصرف من كلام الشارع...إلخ.

الصورة الثانية: أن تكون هناك حقيقة عرفية إلى جانب الحقيقة اللغوية، بعد فرض عدم وجود حقيقة شرعية، وهنا تقدم العرفية على اللغوية، قال في فوائد الأصول: "... ولا عبرة باللغة إذا كان العرف العام على خلافها..."^(٢٧)، لأنها هي الظهور الم موضوع للحجية.

العرف في المسائل الفقهية

تتبع آراء الفقهاء يفضي للباحث أنهم راعوا العرف في كثير من الأحكام الفقهية باعتماد الأعراف والعادات في الجملة، وإن اختلفت مساحة مراعاتهم سعة وضيقاً، نستعرض هنا بعض النماذج من استفادات المذاهب الإسلامية من العرف في استنباطهم للأحكام الشرعية.

الإمامية

يقول الشيخ الطوسي في كتاب التجارة من مبسوطه: "المائلة شرط في الربا وإنما يعتبر المائلة بعرف العادة بالجهاز على عهد رسول الله ﷺ فإن كانت العادة فيه

الكيل لم يجز إلا كيلا فيسائر البلاد وما كان العرف فيه الوزن لم يجز فيه إلا وزنا في سائر البلاد^(٢٨). وفي كتاب الأعيان من الشرائع: "لو حلف: لا شربت من الفرات، حنت بالشرب من مائتها، سواء كرع منها أو اغترف بيده أو بإياء، وقيل: لا يحنث إلا بالكرع منها، والأول هو العرف"^(٢٩).

الحنفية

في باب السلم من مبسوطه، يقول السرخسي: "(ولا بأس بالسلم في العصير في حينه وزنا أو كيلا) لأنه يوزن أو يكال كاللين، وكذلك الخل لا بأس بالسلم فيه كيلا معلوما أو وزنا معلوما، لأنه يكال ويوزن وإعلام المقدار بذكر كل واحد منهما محصل، والأصل أن ما عرف كونه مكيلا على عهد رسول الله ﷺ فهو مكيل أبدا، وإن اعتاد الناس بيعه وزنا، وما عرف كونه موزونا في ذلك الوقت فهو موزون أبدا، وما لم يعلم كيف كان يعتبر فيه عرف الناس في كل موضع إن تعارفوا فيه الكيل والوزن جميما فهو مكيل وموزون، وعن أبي يوسف أن المعتبر في جميع الأشياء العرف لأنه إنما كان مكيلا في ذلك الوقت أو موزونا في ذلك الوقت باعتبار العرف لا بنص فيه من رسول الله صلى الله عليه [وآله] وسلم..."^(٣٠)، وفي مبحث المهر: "إذا سمي في المهر بيته، فالمراد منه متعال البيت عادة دون البيت المسمى، وهذا معروف بالعراق، يتزوج على بيت أو بيتين فيريدون متعال البيت مما تجهز به تلك المرأة وينصرف إلى الوسط من ذلك ... ثم قال أبو حنيفة رضي الله عنه قيمة البيت أربعون درهماً وقيمة الخادم أربعون ديناراً وقال أبو يوسف ومحمد رحهما الله تعالى هو على قدر الغلاء والرخص وليس هذا باختلاف في الحقيقة ولكن أبو حنيفة رحمه الله تعالى قصر فتواه على ما شاهده في زمانه"^(٣١).

المالكية

يقول مالك في رجل دفع إلى رجل مالا قرضا. فربح فيه رجحا. فقال العامل: قارضتك على أن لي الثلين. وقال صاحب المال: قارضتك على أن لك الثلث. قال مالك: "القول قول العامل. وعليه، في ذلك، اليمين. إذا كان ما قال يشبه قراض مثله. وكان ذلك نحوا مما يتقارض عليه الناس. وإن جاء بأمر يستنكر، ليس على مثله يتقارض الناس، لم يصدق. ورد إلى قراض مثله".^(٣٢).

الشافعية

لو حلف رجل لا يأكل لحماً، فأكل سكاً، لم يحيث؛ لأن السمك لا يسمى لحماً عرفاً، قال السيوطي: "لو حلف لا يجلس على بساط، أو تحت سقف أو في ضوء سراج لم يحيث بالجلوس على الأرض وإن سماها الله بساطاً، ولا تحت السماء وإن سماها الله سقفاً، ولا في الشمس وإن سماها الله سراجاً... فقدم العرف في جميع ذلك لأنها استعملت في الشرع تسمية بلا تعلق حكم وتکلیف...".^(٣٣)

الحنابلة

يقول ابن قدامة في معاطاة مغنيه: "ولنا أن الله أحل البيع ولم يبين كيفيته فوجب الرجوع فيه إلى العرف، كما رجع إليه في القبض والاحراز والتفرق، والمسلمون في أسواقهم وبياعاتهم على ذلك، وأن البيع كان موجودا بينهم معلوما عندهم، وإنما علق الشرع عليه أحکاما وبقاء على ما كان فلا يجوز تغييره بالرأي والتحكم...".^(٣٤)

العرف في المسائل الأصولية

كما لم تخل الأبحاث الأصولية في كثير من جنباتها من أبحاث كلامية وفلسفية

بل وعرفانية، كذلك لم تخال من الاستناد على العرف. ففي مبحث الاستصحاب الذي يعد من أمهات المسائل الأصولية، قال المشهور بعدم حجية الأصل المثبت وأن الاستصحاب لا يثبت لوازمه غير الشرعية، لكنهم استثنوا صورا منها صورة خفاء الواسطة، وبيان ذلك: قد يعد العرف الأثر المترتب على واسطة متربا على نفس المستصحب ويعتبرونه من أحكام المستصحب مباشرة، وذلك عندما تكون الواسطة خفية عليهم، ومثل الشيخ الأعظم قيل لذلك باستصحاب الرطوبة في الملائقي لإثبات نجاسة ملاقيه، مع أن النجاسة من آثار السراية عرفا، لا أنها من آثار رطوبة الملاقي، والسرایة والتأثر برطوبة الملاقي من لوازمه رطوبته، نعم هي لازم خفي، يقول الشيخ الآخوند قدس: "نعم لا يبعد ترتيب خصوص ما كان محسوبا بنظر العرف من آثار نفسه لخفاء ما بوساطته، بدعوى أن مفاد الأخبار عرفا ما يعمه أيضا حقيقة. فافهم" ^(٣٥). ولكن في النفس شيء من التوجيه المذكور لما تقدم من أن العبرة بالدقة العرفية لا بالسمات، ولعله لذلك أشار قدس حينما أمر بالفهم، وهذا ما استفاده بعض الأعلام ^(٣٦). وكذا استثنى صورة جلاء الواسطة ووضوحها بحيث يتنبع التفكير عرفا بين المستصحب والواسطة تنزيلا، كما لا يمكن التفكير بينهما واقعا، ويكون التعبد بأحدهما تعبدا بالآخر ^(٣٧).

وبالنسبة إلى وحدة القضية المتيقنة والمشكوكة، فهل الوحدة المعتبرة هي الوحدة بنظر العرف أم بنظر العقل أم بحسب دليل الحكم. فإذا كان المعتبر الوحدة بنظر العقل فسلام على الاستصحاب، وأما إذا كان بنظر دليل الحكم، فلا بد من الجمود على العناوين المأخوذة في لسان الدليل فإن بقيت وإلا فلا استصحاب أيضاً. وقد ذكر الآخوند أن العبرة بالاتحاد في نظر العرف ^(٣٨).

- (١) الرسائل ١: ١٨٤، ٢٢٨، الحكيم، عبدالصاحب، منتدى الأصول، تقريراً لأبحاث السيد محمد الروحاني، الاهادي، قم، ط ٢، ١٤١٦هـ، ١: ٢٨٨.
- (٢) وحيث أن الموضوع عرفي لا حسي فتشخيصه بالرجوع للعرف.
- (٣) الصدر، محمد باقر، دروس في علم الأصول الحلقة الأولى والثانية، تحقيق وتعليق مجمع الفكر الإسلامي، مجمع الفكر الإسلامي، قم، ط ٢، ١٤١٩هـ ص ١٥٧.
- (٤) القائني، محمد، المبسوط في فقه المسائل المعاصرة (المسائل الطبية/١)، مركز فقه الأئمة الأطهار عليهما السلام، قم، ط ١، ١٤٢٤هـ، ١: ٩٧.
- (٥) الخوئي، أبو القاسم الموسوي، موسوعة الإمام الخوئي، مؤسسة إحياء آثار الإمام الخوئي، قم، ط ٣، ١٤٢١هـ، ٢٣: ١٨ - ١٩.
- (٦) فوائد الأصول ٤: ٤٩٤، ٤٩٥، ٥٧٤، النجفي، محمد تقى البروجردي، نهاية الأفكار، تقرير بحث آغا ضياء الدين العراقي، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسین بقم المشرفة، قم، ط ٤، ١٤٢٢هـ، ج ٤، القسم الأول ص ١٨٩ - ١٨٨، موسوعة السيد الخوئي ت١٣: ٢٣، ٤٨ و ١٨ و ١٩١ - ١٩٠.
- (٧) أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه: ٣٠٧.
- (٨) اليزدي، محمد كاظم الطباطبائي، العروة الوثقى، تعلیق عدة من الفقهاء العظام، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسین بقم المشرفة، قم، ط ١، ١٤٢٠هـ مسألة ١٠٢.
- (٩) العروة الوثقى مسألة ٢٠٢.
- (١٠) الخميني، روح الله الموسوي، كتاب الطهارة، مؤسسة تنظيم ونشر آثار امام خمیني، قم، ط ١، ١٤٢١هـ، ١: ٧٢.
- (١١) الرسائل ١: ٢٢٧.
- (١٢) م.ن. ص ١٥٥.
- (١٣) نعم تستثنى صورة ما إذا كان ظاهر سياق الدليل الشمول مثل هذا الفرد العنائي كشمول قوله: النظرة سهم من سهام إيليس للنظر لصورة الأجنبية.
- (١٤) ذكر بعض الأفضل الصور المحتملة في اتحاد واختلاف عرف المتكلم والمخاطب، وقد أنهاها

بعضهم إلى ٧ صور اتحاد و ٨ صور اختلاف وفصل فيها، ولم نرى كثير ثرة في نقلها، فمن أراد فليرجع إلى: نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦، دور العرف والسيرة في استنباط الأحكام ص ٩٨ و ٩٩.

(١٥) موسوعة السيد الخوئي ٢ : ١٥٣.

(١٦) نسبة إليه في دور العرف والسيرة في استنباط الأحكام: ٩٨.

(١٧) نسبة إليه في نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦

(١٨) القزويني، علي الموسوي، تعليقة على معلم الأصول، تحقيق السيد علي العلوى القزويني، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، ط ١، ١٤٢٢ هـ ج ٢ : ٢٢٩ - ٢٢٨.

(١٩) الحر العاملی، محمد بن الحسن، تفصیل وسائل الشیعه إلى تحصیل مسائل الشريعة، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهما السلام لإحياء التراث، مؤسسة آل البيت عليهما السلام لإحياء التراث، ط ١، ١٤٠٩ هـ ١٩ : ٣٤٢ / أبواب كتاب الوصايا ب ٣٤ ح ١.

(٢٠) المختلف ١ : ١٨٦.

(٢١) راجع نظرية العرف بين الشريعة والقانون ص ٢٢٦، دور العرف والسيرة في استنباط الأحكام ص ٩٨ و ٩٩.

(٢٢) راجع بحث الأستاذ النمر، قسم السيرة (غير مطبوع).

(٢٣) وهذه الطرق تذكر أيضاً لإثباتات معاصرة سیرة المتشرعة لزمان المعصوم عليهما السلام أيضاً، باختلاف يسير بينهما.

(٢٤) أصول الفقه المقارن فيما لا نص فيه: ٣١٣.

(٢٥) دروس في علم الأصول، الحلقة الثانية: ١٣٩.

(٢٦) جامع المقاصد ٤: ١٦٧، الروضة البهية ٣: ٥٣٠.

(٢٧) فوائد الأصول ٤: ٥٧٤.

(٢٨) المبسوط ٢: ٩٠.

(٢٩) الحلي، أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن، شرائع الإسلام، مع تعليقات السيد صادق الشيرازي، انتشارات استقلال، قم، ط ٣، ١٤١٢ هـ، ٣: ٧١٥.

(٣٠) المبسوط :١٤٢ :١٤٢.

(٣١) م.ن :٥ :٦٩.

(٣٢) الامام مالك، كتاب الموطأ، صححه ورقمه وخرج آحاديشه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ، ٢: ٧٠١.

(٣٣) الأشباه والنظائر: ١٠٣.

(٣٤) ابن قدامة، عبدالله، المغني، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، بيروت، ٤: ٤.

(٣٥) الخراساني، محمد كاظم، كفاية الأصول، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين بقم المشرفة، قم، ط٧، ١٤٢٣هـ ص ٤٧٣.

(٣٦) الحكيم، محسن، حقائق الأصول، مكتبة بصيرتي، قم، ط٥، ١٤٠٨هـ ٢: ٤٨٥.

(٣٧) منتقى الأصول: ٦: ٢١٦.

(٣٨) كفاية الأصول: ٤٨٧.

حجية ظواهر القرآن عن صاحب المدائق

سعيد جعفر حماد

المصدر الأول للتشریع هو القرآن الكريم

كلا يخفى الخلاف الذي طال بين الأصوليين وبين الأخباريين في حجية ظواهر القرآن بل في جواز تفسيره وعدمه، وقد أفرط بعض الأخباريين حتى منع فهم شيء من القرآن الكريم حتى مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلا بتفسير من الأئمة الموصومين عليهما السلام كما حكى عن السيد نعمة الله الجزائري أنه قال: "وكنت حاضرا في المسجد الجامع في شيراز وكان المجتهد الشيخ جعفر البحرياني والشيخ المحدث صاحب جوامع الكلم (قدس الله روحيهما) يتناظران في هذه المسألة في جوازأخذ الأحكام من القرآن فانجر الكلام بينهما حتى قال له الفاضل المجتهد: ما تقول في معنى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١) فهل تحتاج في فهم معناها إلى الحديث؟ فقال: نعم لأننا لا نعرف معنى الأحادية ولا الفرق بين الأحد والواحد ونحو ذلك"^(٢).

وقد استعرض صاحب المدائق أدلة كلا الفريقين وقرر ابتداءً تعارض الأدلة من الجانبين، غير أنه أشار إلى أن أدلة المنع أكثر عدداً وأصرح دلالة، مما يظن في الوهله الأولى من كلامه هذا أنه يحرّم التفسير، ولا يرى حجية الظواهر، لكنه سرعان ما جمع بين أدلة الطريفين، واختار ما تبناه الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان، حيث قسم معاني القرآن إلى أربعة أقسام، وقسم واحد يجوز تفسيره والأخذ

بظاهره، وثلاثة أقسام لا يستطيع المجتهد تفسيرها^(٣).

أقسام المعاني القرآنية

الأول: ما لا أحد يعرفه سوى الله تعالى فلا يصح لأحد تكليف القول فيه ولا تعاطي معرفته، وذلك مثل قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٤)، ومثل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾^(٥)، إلى آخرها، فتفسير ما اختص الله بالعلم به غير صحيح.

الثاني: ما يكون له ظاهر، وظاهره مطابق لمعناه، فكل من كان يعرف اللغة العربية التي خاطب الله الناس بها عرف معناه، مثل قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾^(٦)، ومثل قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٧)، وغير ذلك.

الثالث: ما هو محمل لا ينبغي ظاهره عن المراد به مفصلاً، فمعرفته تحتاج إلى تفصيل في المراد منه، مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(٩)، وقوله: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾^(١٠)، وقوله: ﴿فِي أُمُوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ﴾^(١١)، وما أشبه ذلك.

فإن تفصيل أعداد الصلاة وأعداد ركعاتها، وتفصيل مناسك الحج وشروطه، ومقادير النصاب في الزكاة لا يمكن إلا ببيان النبي ﷺ ووحي من جهة الله تعالى فتكليف القول في ذلك خطأ من نوع منه.

الرابع: ما كان اللفظ في الآية مشتركاً بين معنيين فما زاد عليهما، ويكون أن يكون كل واحد منهما مراداً، فإنه لا ينبغي على المفسر أن يرجح أحد المعنيين أو المعاني وينسبه إلى مراد الله تعالى إلا بقول النبي أو إمام معصوم.

فجميع الروايات التي استدل بها الأخباريون على منع التفسير ومنع الأخذ

بظواهر الآيات إلا مع وجود نص من المعصوم جملها صاحب المدائق على القسم الثالث والرابع، وأما القسم الأول فهو خارج تخصصاً.

وأما القسم الثاني فلم ينبع صاحب المدائق من تفسيره والأخذ بظواهر آياته، وتفسير هذا القسم ما هو إلا توضيح لمعاني المفردات، حيث أنَّ بُعد الزمن وضعف اللغة العربية عند العرب بسبب اختلاط الشعوب أوجب غرابة كثير من معاني مفردات العربية.

وندעם تقسيم الشيخ بذكر شاهد عليه من الروايات رواه الطبرسي في كتابه الاحتجاج عن أمير المؤمنين عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ في حديث الزنديق الذي جاء إليه بأبي من القرآن زاعماً تناقضها حيث قال عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ في ضمن الحديث:

«إن الله جل ذكره بسعة رحمته ورأفته بخلقه وعلمه بما يحده المبدلون من تغيير كتابه قسم كلامه ثلاثة أقسام: فجعل قسماً منه يعرفه العالم والباهل. وقسماً لا يعرفه إلا من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه من شرح الله صدره للإسلام. وقسماً لا يعرفه إلا الله وأنبياؤه والراسخون في العلم. وإنما فعل ذلك لثلا يدعى أهل الباطل، المستولون على ميراث رسول الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ الْمُبَرَّكُ من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، ولقيودهم الاضطرار إلى الاتتمار لمن ولاه أمره (إلى أن قال): فأما ما علمه الجاهل والعالم، فمن فضل رسول الله في كتاب الله، فهو قول الله عَزَّوجلَّ: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(١٢).

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُوْا عَلَيْهِ وَسَلُّمُوا تَسْلِيْمًا﴾^(١٣) وهذه الآية ظاهر وباطن فالظاهر قوله: ﴿صَلُوْا عَلَيْهِ﴾ والباطن قوله: ﴿وَسَلُّمُوا تَسْلِيْمًا﴾ أي سلموا من وصاه واستخلفه، وفضلهم عليكم، وما عهد به إليه تسليماً، وهذا مما أخبرتك: أنه لا يعلم تأويله إلا من لطف حسه، وصفى ذهنه، وصح تمييزه^(١٤).

وال الحديث ليس فيه سوى ثلاثة أقسام ويرى صاحب الحدائق أن هذه الأقسام الثلاثة هي الأقسام الثلاثة التي بعد القسم الأول من تقسيم الشيخ؛ فرادف بين القسم الرابع من كلام الشيخ بالقسم الثاني من كلام الإمام علي عليهما السلام في الرواية، فما كان يحتمل فيه أكثر من معنى، فلا يرجح المفسر أحد المعاني إلا بقول من صفي ذهنه ولطف حسه، وهي صفة بحسب الظاهر منحصرة بالمعصومين عليهما السلام لأنهم هم التُّصَفُونَ بِتِلْكَ الصَّفَاتِ عَلَى الْحَقِيقَةِ^(١٥).

ورادف بين القسم الثالث من كلام الشيخ بالقسم الثالث في الرواية فلا يُعرف تفصيل الجمل إلا ببيان من النبي عليهما السلام بعد أن عرف معناه بالوحي، أو عن طريق تفسير الراسخين في العلم^(١٦).

وبما أنّ القسم الثاني والثالث في الرواية ينحصر تفسيرهما بالمعصومين عليهما السلام فقد يُشكّل باتحاد القسمين؛ مما هي الشمرة المترتبة على جعلهما قسمين مع إمكان جعلهما قسماً واحداً؟

أجاب صاحب الحدائق على ذلك بأنّ فرق الثالث عن الثاني بكونه قسماً يختص بتشريع الشرائع، ولا يعلمه إلا الله جل شأنه أو أنبياؤه عليهما السلام بالوحي إليهم، ومعرفة الأئمة عليهما السلام له إنما هو بالوراثة من الأنبياء، وهذا بخلاف القسم الثاني؛ فإنه مما يستخرجونه بصفاء جواهر أذهانهم ويستنبطونه بإشراق لوعم أفهمهم^(١٧).

ويُكَنُّ مناقشة انحسار المراد من «من صفا ذهنه ولطف حسه وصح تمييزه وشرح صدره للإسلام» في كلام الإمام علي عليهما السلام بالمعصومين عليهما السلام، وإن كانت هذه الصفات بحسب الحقيقة تختص بالمعصوم، حيث يمكن بالدقة سلب إطلاق هذه الصفات على غيره، إذ لا أحد سواهم من المسلمين إلا ولديه بعض الشوائب، لكن إطلاق الرواية إنما يحمل على ما ينصرف لدى العرف، والعرف يمكن أن يطلق هذه الصفات على

العالم الرباني ممن سواهم، وعلى هذا فيمكن شمول هذه الصفات لغير المعصومين عليهم السلام.

وإن أبىت إلا على انصرافها إلى المعصومين فإنه يمكن أن يُرْفَع اليد عن هذا الانصراف لقرائنا:

الأولى: أن الإمام عليه السلام بتقسيمه في مقام بيان مراتب فهم البشر للقرآن، وأن كل مرتبة لها نصيب في فهم القرآن يختلف عن المرتبة الأخرى سعة وعمقاً، فلو كان القسم الثاني والثالث منحصر بمرتبة المعصومين عليهم السلام لما كان داعي لجعلهما في قسمين، ولا يظهر من الرواية أن الإمام عليه السلام في مقام تقسيم مضمومين النصوص القرآنية.

الثانية: ابتدأ الإمام عليه السلام بذكر المرتبة الأدنى في فهم القرآن والتي تشمل كل من يعرف اللغة العربية، وانتهى بالمرتبة الأعلى من البشر الخاصة بالمعصومين، مما يُشعر بأن القسم الثاني ما بين المرتبتين، فلا يختص بالمعصومين ولا يشمل كل من علم باللغة.

الثالثة: تكرار أداة الحصر لكل مرتبة، فذكرها للمرتبة الأولى ثم للثانية ثم للثالثة، مما يُشعر بأن أصحاب المرتبة الأولى أكثر عدداً من أصحاب المرتبة الثانية، والثانية أكثر من الثالثة.

لكن تدفع هذه القراءن بقرينة أقوى توجب انصراف تلك الصفات إلى المعصومين، وهي قرينة المثال الذي ضربه الإمام عليه السلام لهم من يتصرف بتلك الصفات حيث جعله من الباطن، ويعلم من الخارج أن الباطن يختص تأويلاً بالمعصومين، بل حتى لو لم يصرح الإمام أنه من الباطن فإنه يفهم من نفس تأويل **﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾** بالتسليم لوصي النبي صلوات الله عليه وآله وسلامه وخليفته الذي عهد إليه أنه من التفسير

الباطن الذي لا يدركه إلا المعصومون عليهم السلام.

على أن القسم الثاني في الرواية هو القسم الرابع من كلام الشيخ -بناء على ما تبناء صاحب الحدائق- فهو مختص في ترجيح أحد المعاني المحتملة التي لا يحصل العلم بإرادة أحدها إلا ببيان المعصومين عليهم السلام.

وجعل القسم الثاني من تقسيم الشيخ منطبقاً على القسم الأول في الرواية ويرى إحكام دلالة هذا القسم من الآيات في معانيه، ولذا جوز الاستدلال به والأخذ بظواهره، وحكم على من يمنع ذلك بالمكابرة^(١٨).

وإذا كان مراد الأصوليين من حجية ظواهر القرآن هو هذا القسم، حيث لا يوجد ظهور للمجمل ولا للمشترك اللغطي في معنى معين فلا خلاف بين صاحب الحدائق والأصوليين. وعلى هذا القسم حمل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَفْفَالُهَا﴾^(١٩).

ويبدو من صاحب الحدائق أن بعض الأصوليين كانوا يظنونه وأمثاله أنه من يمنع من فهم القرآن الكريم، ولذا قال في ردّه على الاستدلال بالآية الآنفة على جواز تفسير كل القرآن من غير الأخذ من المعصومين: "إِنَّا لَا نَمْنَعُ فَهْمَ شَيْءٍ مِّنَ الْقُرْآنِ بِالْكَلِيلِ كَمَا يَدْعُونَ بَعْضَهُمْ، لِيَمْتَعَ وَجْهُ مَصْدَاقِ الْآيَةِ، فَإِنْ دَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَى الْوَعْدِ وَالْوَعْدِ وَالْزَّجْرِ لَمْ تَعْدِ الْحَدُودُ الْإِلَهِيَّةَ وَالتَّرْغِيبُ وَالتَّرْهِيبُ ظَاهِرَةً لَا مَرْيَةً فِيهِ، وَهُوَ الْمَرَادُ مِنَ التَّدْبِيرِ فِي الْآيَةِ كَمَا يَنْادِي عَلَيْهِ سِيَاقُ الْكَلَامِ".^(٢٠)

فيتحصل من مجموع كلام صاحب الحدائق أنه يرى حجية دلالات الآيات التي يدرك معانيها من يعرف اللغة العربية، بحيث لو اطلع على تلك الآيات لتتبدّل إليه معناها، إلا إذا علم بأن الظاهر ليس مراداً، وإنما يمنع تفسير الآيات من غير المعصومين فيما إذا توقف استنباط معانيها على غير اللغة العربية، بحيث إذا اطلع

عليها من يكون عارفاً باللغة العربية لا تبادر إليه معانيها، فتفسير هذا القسم من الآيات لا يكون إلا عن طريق المعصومين عليهم السلام.

وعلى هذا يمكن أن نقول أنه لا خلاف بين الشيخ يوسف قتيل و بين المجتهدين الأصوليين (رحم الله الماضين منهم وحفظ الباقين) إذ ليس مرادهم من ظواهر القرآن إلا المعاني التي ينصرف إليها الذهن عند سماع ألفاظها ويحرز مطابقة ظاهرها للمراد. لكن يبدو أنَّ الشيخ مختلف مع المفسرين القائلين بجواز التفسير بصورة مطلقة، حيث أنه لا يرى إمكان تفسير بعض موارد القرآن إلا عن طريق المعصومين، وهي الموارد التي لا تكون فيها الآيات ظاهرة في معنى معين، بينما بعض المفسرين وإن كانوا يعتمدون على أخبار أهل البيت عليهم السلام في تفاسيرهم لكنهم قد يفسرون بعض الآيات التي ليس لها ظهور في معنى معين ولم يرد خبر معتبر في تفسيرها عن طريق اجتهادهم في التفسير واعتمادهم على قرائن منفصلة من غير الأحاديث، أما صاحب المدائق فيرى التوقف في تفسير هذا النوع من الآيات، ولا يرى صحة إعمال الاجتهاد لمعرفة معنى هذه الآيات، وذلك لحمله الأدلة المانعة عن التفسير على تفسير هذا النوع من الآيات، وإنما جوز أولئك المفسرون تفسير هذا النوع من الآيات لأدلة جواز التفسير، وقد قام الشيخ بعرض أهمها ومناقشتها.

أدلة جواز تفسير مجموع القرآن ومناقشتها

استعرض صاحب المدائق عليه السلام بعض الأدلة التي أُستدل بها على جواز تفسير مجموع القرآن الكريم حتى في الموارد التي لا يظهر معناها براجعة اللغة والفهم العرفي من غير الرجوع إلى قول المعصومين عليهم السلام وناقش دلالتها:

الدليل الأول: الآيات الكريمة

وقسم صاحب المدائق الآيات الكريمة التي استدل بها على جواز تفسير كل موارد القرآن حتى في موارد عدم اتضاح المعنى من اللغة ومن أحاديث الموصومين عليهما السلام إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما دل على أن الآيات الكريمة بيان لكل ما يحتاجه الناس، مثل قوله تعالى ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢١) وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢٢).

فإذا كان في القرآن كل ما يحتاج إليه الناس فحينئذ لا يتعذر عليهم فهمه، لأنه مرجعهم في أمورهم، ولو امتنع فهمه ولو في بعض آياته لما صح أن يكون لهم مرجعاً.

المناقشة:

وأجاب على هذا الاستدلال: بأن غاية ما تدل عليه الآيات هو أن القرآن الكريم جامع وكامل لكل ما يحتاج إليه الناس، ولا يستلزم منه أن كل ما يحتاجه الناس في القرآن يمكن أن يفهمه الجميع من غير واسطة أحاديث الموصومين، وكيف يمكن معرفة كثير من المعاني القرآنية ولم تدل عليها الآيات إلا على نحو الإجمال، وأشار إلى أن بعض ما جاء مجملًا من المعاني القرآنية مصدق لما دلت عليه بعض الروايات من عدم إمكان معرفتها من القرآن إلا من عند الموصومين، وبين بعض أمثلتها من الأحكام -غير الأمثلة المعروفة من تفاصيل الصلاة والزكاة والصيام- قال: "إن الآيتين لا دلالة فيها على أكثر من استكمال القرآن لجميع الأحكام وهو غير منکور. وأما كون فهم الأحكام مشتركاً بين كافة الناس كما هو المطلوب بالاستدلال فلا،

كيف وجل آيات الكتاب سيما ما يتعلق بالفروع الشرعية كلها ما بين مجمل ومطلق وعام ومتشابه لا يهتدى منه -مع قطع النظر عن السنة- إلى سبيل، ولا يرکن منه إلى دليل.

بل قد ورد من استباطهم عليهما جملة من أحكام الآيات ما لا يجسر عليه سواهم ولا يهتدى إليه غيرهم وهو مصدق قولهم..«ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن»^(٢٣)، وقولهم: «إِنَّمَا يَعْرِفُ الْقُرْآنَ مِنْ خَوْطَبِهِ»^(٢٤)، وقولهم: «إِنَّمَا أَرَادَ تَعْمِيَتَهُ فِي ذَلِكَ لِيَتَهَوَّدُ إِلَى بَابِهِ»^(٢٥)، كالأخبار الدالة على حكم الوصية بالجزء من المال، حيث فسّرها عليهما بالعشر مستدلاً بقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾^(٢٦) قال: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ عَشْرًا». والوصية بالسهم حيث فسّرها عليهما بالثمن لقوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِين﴾^(٢٧). والنذر بما كثير حيث فسّرها عليهما بالثمانين لقوله تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنٍ كَثِيرٍ﴾^(٢٨) وكانت ثمانين موطننا..الخ»^(٢٩).

القسم الثاني: ما دل من القرآن على جواز استباط واستخراج معاني القرآن الكريم والاجتهاد في توضيح ما جاء مجملًا، وهي قوله تعالى: ﴿لَعِلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾^(٣٠).

المناقشة:

المراد من الذين يستنبطونه في الآية هو خصوص الأئمة عليهما يدل عليه أمران:

الأول: سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولَئِكَ الَّذِينَ مِنْهُمْ لَعِلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُم﴾، إذ أنّ ظاهر عود ضمير الجمع في ((يستنبطونه)) إلى أولي الأمر، وهم الأئمة عليهما.

الثاني: الروايات الدالة على عود ضمير الجمع في ((يستنبطونه)) إلى الأئمة عليهما، منها ما رواه العياشي عن الرضا عليهما قال: «هم آل محمد وهم الذين

يستبطون من القرآن ويعرفون الحلال والحرام»^(٣١).

ومنها ما جاء في دعائم الإسلام عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسيره للآلية، قال: «هم الأئمة من أهل بيته رسول الله عليه السلام جعلهم الله أهل العلم الذين يستبطونه، ثم أوجب طاعتهم، فقال: ﴿أطِيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَئِكُمْ أَمْرُكُم﴾»^(٣٢).

القسم الثالث: وهي الآيات التي تتحث على التدبر في آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٣٣)، فلو انحصر فهم القرآن على المقصومين عليه السلام لما كان معنى للأمر بالتدبر في القرآن.

المناقشة: - نقشها :-

أولاً: إن هذا الاستدلال لا يتم مع القول بإمكان فهم قسم من الآيات القرآنية، وهو القسم الثاني من تقسيم الشيخ الطوسي أي بفهم الآيات التي يكون ظاهرها مطابقاً لمعناها، فكل من عرف اللغة العربية عرف معنى هذه الآيات، وهي مصدق لمعنى التدبر.

وثانياً: إن المستفاد من سياق الآية حيث قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَكَّلُونَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقْطِعُوا أَرْحَامَكُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنْهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ، أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا، إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُم﴾^(٣٤) أن المراد من التدبر هو التدبر في قسم خاص من آيات القرآن وهي آيات الوعيد والوعيد والزجر لمن تعدى الحدود الإلهية، والترغيب والترهيب، والاعتبار بما جرى على الأمم السابقة، إذ أن الواضح أن الآية جاءت في سياق التهديد والوعيد لمن يفسد في الأرض ويقطع أرحامه، وهذا القسم من الآيات مندرج في القسم السابق الذي يحرز مطابقة

معناه لظاهره، فإن دلالة الآيات على الوعد والوعيد والزجر لمن تعدى الحدود الإلهية والترغيب والترهيب أمر ظاهر لا مرية فيه^(٣٥).

ولكن يمكن الاستدراك على الرد الثاني بأن هناك آية أخرى تحت على التدبر وترشد إلى أن متعلق التدبر أوسع من ذلك النطاق، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾^(٣٦).

فإن عدم الوجдан للاختلاف المتفرع على التدبر يرشد إلى أن التدبر يشمل كل الآيات التي يمكن فهمها، إلا أن يقال: لا مانع من أن يكون المراد منها هو الآيات التي تفهم بواسطة المعصومين عليهما السلام أو بواسطة معرفة اللغة وطرقها.

الدليل الثاني: الروايات

لم يستعرض صاحب المذاق من الروايات التي أُستدل بها على جواز التفسير بشكل مطلق سوى روايات العرض، وتقريب الاستدلال أن يقال:

دللت جملة من الأخبار -ومنها المعتبر- على عرض الرواية على كتاب الله، فإن كانت توافق كتاب الله تعالى يأخذ بها، وإلا فهي زخرف، لا يقوله المعصوم، وحينئذٍ فإن توقفت معرفة الكتاب على الروايات لزم الدور، ولا يتربّ على أحاديث العرض غرضها؛ فلا فائدة من العرض ما لم نعرف معاني الكتاب من غير الأحاديث حتى يصح تمييز الحديث.

المناقشة:

أجاب بأن كثير من الآيات ورد فيها تفسير من الأحاديث، وهذه الأحاديث بما أنها ناظرة إلى المراد من الآيات فهي بنزلة الآيات في تقييم الأخبار التي تعرض على الكتاب، فالعرض حقيقة إنما هو على الأحاديث المفسرة للآيات، لا على نفس

القرآن.

وأما الآيات التي لم يرد فيها تفسير من الأحاديث فلا تعرض عليها الروايات التي يُراد تقييمها، وذلك لأدلة منع تفسير القرآن الكريم فإنها تخصص أحاديث العرض؛ فتحمل أحاديث العرض على العرض على الآيات التي ورد فيها تفسير دون غيرها.

أفاد هذا الجواب بقوله: ”والجواب أنه لا منافاة، فإن تفسيرهم عليكما إنما هو حكاية مراد الله تعالى فالأخذ بتفسيرهم أخذ بالكتاب. ألا ترى أن من عمل بحديث أو بآية قد استفاد منها المراد منها من أستاذه أو من تفسير أو شرح ونحو ذلك لا ينسب علمه إلى ذلك الذي استفاده منه معنى الخبر أو الآية، وإنما ينسبه إلى الآية أو الخبر. وهذا بحمد الله ظاهر لا سترة عليه.

وأما ما لم يرد فيه تفسير عنهم (صلوات الله عليهم) فيجب التوقف فيه وقوفاً على تلك الأخبار وتقييداً لهذه الأخبار بتلك^(٣٧).

ولا يُبعد أن يكون المراد من الكتاب في حديث العرض هو خصوص الآيات التي يمكن فهمها من ظاهرها، وعلى ذلك لا يمكن التمسك بها لجواز غير الظاهر من غير المعصومين، غير أن شيخنا صاحب الحدائق لم يشر إلى ذلك في هذا المقام.

تطبيقات العمل بالظاهر

وبعد أن اتضح بأن مسلك صاحب الحدائق هو الأخذ بظواهر القرآن نستعرض نماذج من تطبيقاته، فقد عمل الحق البحراني بالظواهر في استدلاته الفقهية؛ أذكر على سبيل الاختصار بعض الأمثلة:

١- قبوله استدلال المشهور بقوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا﴾^(٣٨) على

عدم جواز الوضوء بالمضاف، بتقرير: أن الآية تعين التطهير بالتييم مع فقد الماء، ولا خلاف بأن المراد من الماء هو المطلق؛ لأن إطلاق الماء لا ينصرف إلا إلى الماء المطلق، ولو أمكن التطهير بالمضاف لما تعين التييم مع فقد الماء المطلق^(٣٩).

٢- استدل بها استظهاره من قوله تعالى: ﴿فِي صُحْفٍ مُّكَرَّمَةً مَرْفُوعَةً مُّطَهَّرَةً﴾^(٤٠) ومن قوله سبحانه: ﴿يَتَلَوُ صُحْفًا مُّطَهَّرًا﴾^(٤١) على حمرة تنجيس المصحف المكرم^(٤٢)، ولم أجد أحداً من علمائنا من تمسك بهما في حمرة تنجيس المصحف، وربما تمسك بها بعض العامة في ذلك^(٤٣).

٣- استدل بفهم قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾^(٤٤) على أن وجوب الوضوء وجوب غيري لا نفسي بتقريبين:

الأول: المتبادر إلى فهم العرف من الآية الكريمة هو أن وجوب الوضوء لأجل الصلاة، لا أنه واجب على كل حال، نظير قوله: «إذا لقيت العدو فخذ سلاحك»؛ فأخذ السلاح لأجل مواجهة العدو، وليس أخذه مطلوب على كل حال.

الثاني: بفهم الشرط في الآية حيث يدل على عدم وجوب الوضوء مع عدم الصلاة فيتضيق عدم وجوب النفسي للوضوء^(٤٥).

٤- استند إلى ظاهر ﴿وَأَيْدِيَكُمْ﴾ إلى نفي جزئية ما تحت المرفق مما زاد على أصل الخلقة من يد ولحm زائد وجلد زائد وأصبع زائدة، حيث أن ظاهر الإضافة في «أيديكم» إضافة عهدية، فيتعلق حكم الغسل في آية الوضوء باليد المعهودة، وما اشتملت عليه من الأجزاء المعهودة^(٤٦).

٥- قد أيد حمرة مس الجنب لاسم الله تعالى ولو كان على درهم أو دينار بظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٤٧) حيث يدل على أن عدم التعظيم يصدر نتيجة لعدم التقوى لما قيل من أن علة النقيض نقىض

العلاة، فمس الجنب لاسم الحالة مصدق لعدم تعظيم لشعائر الله، فهو معلول لعدم التقوى^(٤٨).

فنرى صاحب المذايق أرسل تطبيق اسم الله على شعائر الله إرسال المسلمين ولم يتعرض إليه، وكذا تطبيق مس الجنب لعدم تعظيم شعائر الله، وإنما استظرف من الآية حرمة ترك تعظيم شعائر الله لكون العلة في تعظيم الشعائر تقوى القلوب، فعدم تقوى القلوب علة لعدم التعظيم لأن علة النقيض (والنقيض في المقام عدم تعظيم الشعائر) نقيض العلة (ونقيض العلة حالة عدم التقوى) وحالة عدم التقوى تعني عدم امتناع المكلف عن ارتكاب المعاصي ولو بعضها، فيثبت أن مس الجنب لاسم الله تعالى نتيجة لعدم امثال أمر الله، وأمر الله هنا حرمة مس الجنب لاسم الله لمناسبة الحكم والموضوع.

وهذا المعنى الذي استظهره ليس من منطوق الآية الكريمة بل من مدلولها الإنزامي، وترقى صاحب الجواهر في فهم الآية الكريمة، حيث يرى دلالتها على حرمة مس الجنب لاسم الله عن طريق أولى، لأنها تدل وجوب تعظيم شعائر الله فيما لا يكون في تركه تحيراً، فكيف فيما إذا كان تركه يوجب تحيراً كمس الجنب لاسم الحالات^(٤٩).

واحتمل الأخوند الخراساني دلالة الآية على منع مس أسماء الأنبياء أو أحد الأئمة عليه السلام لكن من غير استظهار، فجعل عدم المس احتياطاً استحبابياً^(٥٠). واستشكل بعضهم في دلالة الآية على حرمة المس لمنعه العموم في الآية الشريفة^(٥١).

وما استدل به على وجوب المباشرة في الغسل ظاهر قوله تعالى: ﴿هَتَّى تَعْتَسِلُوا﴾^(٥٢)، وبظاهر قوله تعالى ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهِرُوا﴾^(٥٣) حيث أن الظاهر

في كل من الآيتين توجه الخطاب لنفس المكلف، فهو الذي ينبغي أن يقوم بفعل الغسل، فلا يجوزه أن يفعل الغسل به غيره^(٥٤)، وذهب إلى ذلك الشهيد الأول، والحقائق النراقي^(٥٥) واستدل كذلك على وجوب المباشرة في التيمم بظاهر قوله ﴿فَتَيَمِّمُوا﴾^(٥٦)، لظهورها في لزوم استناد التيمم من نفس المكلف مباشرة.

٦- مما استدل به على تصديق النساء بحصول الحيض - ما لم تكن المرأة متهمة بتضييع حق الزوج - ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾^(٥٧) حيث استفاد الملازمة بين حرمة الكتمان وبين وجوب قبول قولهن؛ فلو لم يجب القبول لما حرم الكتمان^(٥٨)، وهو نفس ما استظهره الشهيد الثاني من الآية في مورد اختلاف الزوجين في انتفاء العادة^(٥٩)، وبطبيعة الحال ليس المراد هو خصوص كتمان الحيض بل المراد أن الآية تشمل الحيض كما تشمل الحمل^(٦٠).

وقد منع الشيخ البهائي الملازمة بين الكتمان وبين وجوب قبول قولهن، إذ أنها ليست بيّنة ولا مبيّنة لاحتمال وجود ثمرة مستقلة في حرمة الكتمان، نظير وجوب عدم كتمان الشهادة على الشاهد وإن علم أن المحاكم لا يقبل شهادته^(٦١).

٧- مما استدل به على جواز التيمم من خاف المرض الشديد باستعمال الماء حدوثاً أو استمراً أو بطء برئه سواء كان عاماً لجميع البدن أو مختصاً ببعض الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦٢) وقوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾^(٦٣) وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾^(٦٤)، وقوله: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(٦٥).

٨- مما استدل به على نفي تحقق العدالة ب مجرد الإسلام ظاهر قوله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٦٦) حيث أنها تدل على اعتبار أمر آخر وراء الإسلام لأن الخطاب فيها لل المسلمين وضمير "منكم" راجع إليهم، فهي دالة على

إسلام الشاهدين؛ فيكون قوله "ذوي عدل" دالاً على العدالة بعد حصول الإسلام فهي أمر زائد على مجرد الإسلام^(٦٧).

٩- استظرف من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾^(٦٨) حلية دم السمك، حيث أنّ ذكاة السمك لا تكون بالذبح؛ فدمه ليس مسفوحًا، وبذلك قوى القول بالحلية، غير أنه رجح الاحتياط لاحتمال كون حلية دمه مختصة بما لم يخرج منه، وأما لو خرج منه فييمكن شمول أدلة حرمة الدم له، إذ لم يستثنى من أدلة حرمة الدم سوى الدم المخالف في الذبيحة^(٦٩).

١٠- قبل الاستدلال بظاهر قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾^(٧٠) على نجاسة مطلق الكافر^(٧١).

وقد ذكر بعض الإشكالات على الاستدلال بالأية ثم قام بردها، منها: أن النجس لغة ليس بمعنى النجاسة فلا ظهور في الآية على نجاسة الكافر. وعلى فرض أنّ المراد النجاسة فغاية ما تدل على نجاسة المشرك وهو أخص من المدعى، إذ أنّ المدعى نجاسة الكفار، وهو أعمّ من المشرك.

وأجاب بأنّ الحمل على المعنى اللغوي والعرفي يكون هو المرجع فيما إذا لم يكن في المورد عرف خاص، وفيما نحن فيه يوجد عرف خاص عند الأئمة عليهم السلام والمترسعة حيث أنّ مرادهم من النجس هي النجاسة، وعرف الأئمة عليهم السلام في الأحكام الشرعية وفتواهم وأمرهم ونهيهم يرجع في الحقيقة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنهم نقلة عنه، وحفظة لشرعه وترجمة لوحيه، وبذلك يتضح بأنّ المراد من النجس في الآية هي النجاسة.

وأمام دعوى أنّ الآية أخصّ من المدعى فهي غير صحيحة، لأنّ عنوان الشرك

يصدق على أهل الكتاب لقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشَرِّكُونَ﴾^(٧٢).

فمني صاحب الحدائق طابه استعان بهذه الآية لتوضيح الآية السابقة في شمول المشركين لأهل الكتاب، وعلى هذا فإنه قد يفسر القرآن بالقرآن.

١١- استدل على حرمة منع أهل مكة سكنهم عن الحاج بظاهر قوله تعالى:

﴿الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءَ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾^(٧٣) حيث استظهر من الآية مساواة البادي والحاضر في حق الانتفاع بمساكنها ودورها حتى يقضوا مناسكهم، وإذا كان حقاً لهم فمنعهم عنه محروم^(٧٤)، والملاحظ أنّ الآية إنما تدل على أصل استحقاق الانتفاع وأما تقييد الاستحقاق بال الحاج - مضافاً إلى أهلهما - إنما هو بركة الروايات، وكذا التقييد بغایة قضاء النسك.

واستظهار البحريني كاستظهار الشیخ الطوسي حيث قال: «لا ينبغي أن يمنع

ال الحاج شيئاً من دور مكة ومنازلها لأن الله تعالى قال: ﴿سواء العاكف فيه والباد﴾^(٧٥) وأصرح منه ابن البراج^(٧٦).

١٢- استدل على حرمة أكل مال اليتيم ظلماً وعدواناً بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أُمُوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا﴾^(٧٧) ويرى معناها: إن الذين يأكلون مال اليتيم يأكلون ما يجرّهم إلى النار والسعير^(٧٨). وما يجرّهم إلى النار فلا شبهة في حرمتها.

١٣- استدل بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ آتَيْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أُمُوَالَهُمْ﴾^(٧٩)

على عدم توقف الحكم بالسفه على حكم المحاكم حتى ولو كان السفة غير متصل بزمن البلوغ، وذلك لأنّ الظاهر من الآية أنّ الرشد هو المناط في جواز التصرف في المال، فمتي لم يتحقق لا يجوز التصرف، ومتي ما تحقق فيجوز التصرف، ولا ينافي

ذلك كون الآية في مورد اليتيم، لأن تعليق جواز التصرف فيها على علة عامة، فتشمل غيره أيضاً^(٨٠).

ومما يؤيد تمسكه بظاهر القرآن أنه قد يفسر بعض مفردات الروايات بالاستعانة بعض معاني الآيات الكريمة وتفسيرها، وأمثلة على ذلك:

١- جاء في صحيح داود بن النعمان عن الإمام الصادق عليه السلام أن عمار أصابته جنابة فتموك^(٨١) كما تمعك الدابة، فقال له رسول الله عليه السلام وهو يهزأ به: يا عمار تمعكت كما تمعك الدابة...الخ^(٨٢). حمل الكلمة «يهزأ به» على المزاح لعدم صحة حملها على معناها الظاهري وهو السخرية، لأن السخرية لا ينسجم صدورها من الأنبياء عليهما السلام، لقوله ﷺ في قصة أمر بنى إسرائيل ذبح البقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًّا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾^(٨٣)، دلت على الاستهزاء صفة للجاهلين وأن الأنبياء يستعذون بالله منها.

٢- جاءت عدة روايات في بيان الساتر للمرأة في الصلاة بعضها تشمل على الحمار وبعضها على القناع، ولم تصرح الروايات أن الحمار والقناع يستر الشعر والعنق، واستعلن صاحب المدائق لإثبات سترهما للشعر والعنق بما يوحى إليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَلَيَضُرُّنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾^(٨٤) وبتفسير هذه الآية بما أورده الطبرسي حيث قال: «أمرن بإلقاء المقامع على صدورهن تغطية لنحوهن، فقد قيل: أنهن كن يلقين مقانعهن على ظهورهن فتبعد صدورهن، وكنى عن الصدور بالجيوب لأنها ملبوبة عليها، وقيل أنهن أمرن بذلك ليسترن شعرهن وقرطهن وأعناقهن، قال ابن عباس: تغطي شعرها وصدرها وترايئها وسوانفها»^(٨٥) وبذلك يثبت بأن الحمار الذي جاء في لسان الروايات يكون ساترا للشعر والعنق^(٨٦)، فهذه استعانة بظاهر القرآن وتفسيره لتوضيح بعض الروايات.

٣- اختلف العلماء في معنى الإنفحة المستثنى من نجاسة الميّة، وذلك لاختلاف اللغويين في تعريف الإنفحة فبعضهم ذهب إلى أنه نفس كرش الحمل، أو الجدي ما لم يأكل فإذا أكل صار كرشاً^(٨٧).

وبعضهم ذهب إلى أنه ليس نفس الكرش من الحمل أو الجدي مالم يأكل بل هو شيء يستخرج من بطن الجدي الرضيع أصفر فيعصر في صوفة فيغليظ كاللبن^(٨٨).

واختار صاحب المدائق المعنى الثاني تمسكاً برواية الشمالي حيث جاء فيها وصف الإمام الباقي عليه السلام للإنفحة بقوله «إن الإنفحة ليس لها عروق ولا فيها دم ولا لها عظم، إنما تخرج من بين فرث ودم» وذلك بعد أن وضّح معنى الرواية من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً تُسْقِيْكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ﴾^(٨٩) فكما أن اللبن من البقر يكون من ما بين فرث ودم فكذلك الإنفحة من الجدي بمقتضى رواية الشمالي، فإذا اتضح معنى الآية يتضح معنى الرواية، فتعرض لتفسير الآية، قال: «قال في مجمع البيان نقلًا عن ابن عباس: "إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث، كما هو"»^(٩٠).

ومقتضى ذلك أنَّ اللبن الذي تشربه السخلة يصيرُ بعدَ وصوله إلى الكرش إلى هذه الأقسام الثلاثة، ثالثها هو هذا الشيء الأصفر الذي ذكره أهل اللغة، وإن كان بعد رعيه العلف يضمحل ذلك ولا يصير كذلك، وإنما يبقى الفرث وهو التقل - والدم خاصة»^(٩١).

وبذلك أثبتت أن المراد من الإنفحة هو المعنى الثاني.

فيتضح من هذه النماذج أنَّ صاحب المدائق يعمل بظاهر القرآن فيما إذا لم تكن قرينة على الخلاف، بل قد يفسر بعض ما جاء مجملًا في الأحاديث بظواهر

بعض الآيات الكريمة.

المواهش:

- (١) الإخلاص: .٢٩
- (٢) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٣٩؛ المدائق الناضرة، ج ١، ص ٢٧؛ أعيان الشيعة، ج ٨، ص ٢٧.
- (٣) الدرر النجفية، ج ٢، ٤٥٠ - ٣٤٠؛ المدائق الناضرة؛ المدائق الناضرة، ج ١، ص ٢٧ - ٣٢.
- (٤) الأعراف: .١٨٧
- (٥) لقمان: .٣٤
- (٦) الأنعام: ١٥١، الإسراء ٣٣.
- (٧) الإخلاص: .١
- (٨) البقرة: ٤٣، ٨٣، ١١٠، وغيرها.
- (٩) آل عمران: .٩٧
- (١٠) الأنعام: .١٤١
- (١١) المعارج: .٢٤
- (١٢) النساء: .٨٠
- (١٣) الأحزاب: .٥٦
- (١٤) الاحتجاج، ج ١، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ٤٥ - ٤٦؛ تفسير الصافي، ج ١، ص ٣١٩؛ التفسير الأصفى، ج ١، ص ١٣٩؛ تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣١٣؛ تفسير كنز الدقائق، ج ٢، ص ١٦.
- (١٥) الدرر النجفية، ج ٢
- (١٦) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٢؛ المدائق الناضرة، ص ٣٤.
- (١٧) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٣؛ المدائق الناضرة، ص ٣٤
- (١٨) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٥٢؛ المدائق الناضرة، ج ١، ص ٣٤.

- (١٩) سورة محمد ﷺ: ٢٤.
- (٢٠) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٢١) الأنعام: ٣٨.
- (٢٢) النحل: ٣٤٧.
- (٢٣) المحسن، ج ١، ص ٣٠٠؛ تفسير العياشي، ج ١، ص ١١، ١٢، ١٧، ١٨ - ١٩؛ تفسير القمي، ج ١، ص ١٩؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩٢، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٤١؛ بحار الأنوار، ج ٨٩، ص ١١٠، ٩٤، ٩١ - ١١١.
- (٢٤) الكافي، ج ٨، ص ٣١٣؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٨٥، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٢٥؛ بحار الأنوار، ج ٢٤، ص ٢٣٨، وج ٤٦، ص ٣٥٠، تفسير الصافى، ج ١، ص ٢٢.
- (٢٥) المحسن، ج ١، ص ٣٦٨، ح ٣٥٦؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٩١، أبواب صفات القاضي، ب ١٣، ح ٣٨.
- (٢٦) البقرة: ٢٦٠.
- (٢٧) التوبه: ٦٠.
- (٢٨) التوبه: ٢٥.
- (٢٩) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٧ - ٣٤٨.
- (٣٠) النساء: ٨٣.
- (٣١) تفسير العياشي، ج ١، ص ٢٦٠؛ وسائل الشيعة، ج ٢٧، ص ١٧١، ب ١٢ من كتاب القضاء، ح ٥٦؛ بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٩٦، باب وجوب طاعتهم ح ٣٦.
- (٣٢) دعائم الإسلام، ج ١، ص ٢٤، والآية من سورة النساء: ٥٩، وانظر مناقشة صاحب المدائق في الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩.
- (٣٣) سورة محمد ﷺ: ٢٤.
- (٣٤) سورة محمد ﷺ: ٢٢ - ٢٥.
- (٣٥) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.
- (٣٦) النساء: ٨٢.

- (٣٧) الدرر النجفية، ج ٢، ص ٣٤٧.
- (٣٨) النساء: ٤٣.
- (٣٩) الحدائق الناضرة، ج ١، ص ٣٩٥.
- (٤٠) عبس: ١٤ - ١٣.
- (٤١) البينة: ٢.
- (٤٢) الحدائق الناضرة: ج ٢، ص ٤٦.
- (٤٣) كتاب الموطأ لمالك، ج ١، ص ١١٩.
- (٤٤) المائدة: ٦.
- (٤٥) الحدائق الناضرة، ج ٢، ص ١٢٩ - ١٣٠.
- (٤٦) الحدائق الناضرة، ج ٢، ص ٢٤٧.
- (٤٧) الحج: ٣٢.
- (٤٨) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٤٧ - ٤٨.
- (٤٩) جواهر الكلام، ج ٣، ص ٤٧.
- (٥٠) المعات النيرة، للأخوند المحراساني، ص ٨٨.
- (٥١) مستند الشيعة للمحقق النرافي، ج ٢، ص ٢٨٧.
- (٥٢) النساء: ٤٣.
- (٥٣) المائدة: ٦.
- (٥٤) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٩٥.
- (٥٥) ذكرى الشيعة، أحكام الشريعة، ج ٢، ص ١٧٢؛ مسند الشيعة، ج ١٥٥.
- (٥٦) النساء: ٤٣، الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٣٥٤.
- (٥٧) البقرة: ٢٢٨.
- (٥٨) الحدائق الناضرة، ج ٣، ص ٢٦١ - ٢٦٢.
- (٥٩) مسالك الأفهام للشهيد الثاني، ج ٩، ص ١٩٤.
- (٦٠) زبدة الأحكام للمحقق الأردبيلي، ص ٥٩١.

- (٦١) الحبل المتيين، ص ٥٢.
- (٦٢) الحج: ٧٨.
- (٦٣) المائدة: ٦.
- (٦٤) سورة البقرة: ٥٨١.
- (٦٥) البقرة: ١٩٥، الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٢٧٦.
- (٦٦) الطلاق: ٢.
- (٦٧) الحدائق الناضرة، ج ١٠، ص ٢٠.
- (٦٨) الأنعام: ١٤٥.
- (٦٩) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ٤٨ - ٤٩.
- (٧٠) التوبية: ٢٨.
- (٧١) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ١٦٤.
- (٧٢) التوبية: ٣٠ - ٣١، الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ١٦٥ - ١٦٦.
- (٧٣) الحج: ٢٥.
- (٧٤) الحدائق الناضرة، ج ١٧، ص ٣٥٠ - ٣٥١.
- (٧٥) المبسوط، ج ١، ص ٣٨٤.
- (٧٦) المهدب للفاضي ابن البراج، ج ١، ص ٢٧٣.
- (٧٧) النساء: ١٠.
- (٧٨) الحدائق الناضرة، ج ١٨، ص ٣٤٣.
- (٧٩) النساء: ٦.
- (٨٠) الحدائق الناضرة، ج ٢٠، ص ٣٦٢ وص ٣٧٢.
- (٨١) التمعك: التقلب فيه، وفي الحديث فتمعك فيه أي ترعرع في ترابه. لسان العرب، ج ١٠، ص ٤٩٠.
- (٨٢) الكافي، ج ٣، ص ٦٢؛ تهذيب الأحكام، ج ١، ص ٢٠٧؛ الاستبصار، ج ١، ص ١٧٠.
- (٨٣) البقرة: ٦٧. الحدائق الناضرة، ج ٤، ص ٣١٩ - ٣٢٠.

- (٨٤) النور: ٣١.
- (٨٥) مجمع البيان، ج ٧، ص ٢٤١ - ٢٤٢.
- (٨٦) الحدائق الناضرة، ج ٧، ص ١٣.
- (٨٧) الصحاح للجوهري، ج ١، ص ٤١٣؛ لسان العرب، ج ٢، ص ٦٤٢؛ تاج العروس، ج ٤، ص ٢٣٨.
- (٨٨) كتاب العين، ج ٣، ص ٢٤٩؛ القاموس المحيط، ج ١، ص ٢٥٣.
- (٨٩) النحل: ٦٦.
- (٩٠) مجمع البيان، ج ٦، ص ١٧٤.
- (٩١) الحدائق الناضرة، ج ٥، ص ٨٧.

مسألة في القضاء عن الميت

علي فاضل الصددي

كـ بـسـمـ اللهـ الرـحـمـنـ الرـحـيمـ، وـصـلـىـ اللهـ وـسـلـمـ عـلـىـ مـحـمـدـ وـآلـهـ.

(١) إجزاء الصدقة بما فات الميت من الصوم

المشهور وجوب قضاء ما فات الميت من الصوم على وليه، بل عن الخلاف والسائلين الإجماع عليه^(١)، وعن المنتهي نسبته إلى علمائنا^(٢). ولم يحك فيه خلاف إلا من ابن أبي عقيل فأوجب التصدق عنه، وادعى تواتر الاخبار به، ونسب القول بقضاء الصوم إلى الشذوذ^(٣). ثم إن ظاهر المعظم عدم التفرقة بين ما إذا ترك الميت ما يمكن التصدق به عنه وعدمه، كما في الجواهر^(٤)، وعن السائلين: الإجماع منعقد من أصحابنا على ذلك^(٥)، وعن السيد المرتضى فتى اشتراط عدم تركه ما يمكن التصدق به^(٦). والمتبع روایات الباب، وهي على طائف:

الطائفة الأولى: ما دل على لزوم القضاء عنه، وهي روایات كثيرة مستفيضة، بل

ادعى قربها من التواتر^(٧)، ومن تلك الروایات:

١- صحیحة مُحَمَّد بْن مُسْلِمٍ عَنْ أَحَدِهِمَا عَلَيْهِمَا سَلَّمَ قَالَ: سَأَلْتُهُ عَنْ رَجُلٍ أَدْرَكَهُ رَمَضَانُ، وَهُوَ مَرِيضٌ، فَتَوْفَىَ قَبْلَ أَنْ يَبْرُأَ، قَالَ: لَيْسَ عَلَيْهِ شَيْءٌ، وَلَكِنْ يُقْضَى عَنِ الَّذِي يَبْرَا ثُمَّ يَمُوتُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِي^(٨).

٢- ومکاتبة الصفار قال: كتبت إلى الأخیر علیه رجُلٌ ماتَ وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَشَرَةً أَيَّامًا، وَلَهُ وَلِيَان، هَلْ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يُقْضِيَا عَنْهُ جَمِيعاً خَمْسَةً أَيَّامٍ أَحَدُ الْوَلِيَّيْنِ وَخَمْسَةً أَيَّامٍ الْآخَرُ؟ فَوَقَعَ علیهِ: يَقْضِي عَنْهُ أَكْبَرُ وَلِيَهِ عَشَرَةً أَيَّامٍ وَلَاءَ إِنْ

شَاءَ اللَّهُ^(٩).

٣- وصحيحه أبى حمزة عن أبى جعفر علیه السلام قال: سأله عن امرأة مرضت فى شهر رمضان أو طمثت أو سافرت فماتت قبل خروج شهر رمضان، هل يقضى عنها؟ قال: أما الطمث والمرض فلا، وأما السفر فنعم^(١٠).

٤- وصحيحه حفص بن البختري عن أبى عبد الله علیه السلام في الرجل يموت وعليه صلاة أو صيام، قال: يقضى عنه أولى الناس بميراثه، قلت: فإن كان أولى الناس به امرأة، فقال: لا إلا الرجال^(١١).

٥- وموثقة أبى بصير قال: سألت أبا عبد الله علیه السلام عن رجل سافر في شهر رمضان، فأدركه الموت قبل أن يقضيه، قال: يقضيه أفضل أهل بيته^(١٢)! وغيرها.

الطائفة الثانية: ما دل على لزوم الصدقة عن الميت في الجملة، وهي رواية واحدة، وليس كما حكي عن ابن أبى عقيل من دعوه تواتر الأخبار به، وهي صحيحة أبى مريم الأنصارى عن أبى عبد الله علیه السلام قال: إذا صام الرجل شيئاً من شهر رمضان، ثم لم يزال مريضاً حتى مات فليس عليه شيء (قضاء)، وإن صح ثم مرض ثم مات وكان له مال تصدق عنه مكان كل يوم بعده، وإن لم يكن له مال صام (تصدق) عنه وليه^(١٣).

الطائفة الثالثة: ما دل على التخيير بين الصوم والصدقة عن الميت، وهي ما رواه الصدوق في الفقيه بقوله: وروى عن محمد بن إسماعيل بن بزيع عن أبى جعفر الثاني علیه السلام قال: قلت له: رجل مات وعليه صوم، يصوم عنه أو يتصدق؟ قال: يتصدق عنه؛ فإنه أفضل^(١٤). ولم يخرج الشيخ الحر علیه السلام هذه الرواية في ضمن روایات المقام، أعني في الباب الثالث والعشرين من أبواب أحكام صوم شهر رمضان، ولا في

غيره من الأبواب.

أقول: بعد عدم نهوض قول ابن أبي عقيل رحمه الله بتعيين الصدقة عن الميت، وإن دلّ عليه ظاهر صحة أبي مريم؛ لما عرفت من استفاضة الأخبار بكفاية الصوم عنه، وبعد عدم قمامية قول السيد رحمه الله باشتراط عدم تركه مالاً في وجوب الصوم عنه؛ نظراً لاختلاف نقل ذيل الصحّحة كما عرفت، ولا مرجح لأحد النقلين على الآخر، وإن تفرد الشيخ رحمه الله بأحد النقلين؛ إذ أن ما نقله قد رواه بسندٍ آخر يختلف عن سند نقل الكليني والصどوق، فلا محلٌ لترجيح نقليهما للصحّحة على نقل الشيخ، على أن ترجيح نقليهما أو نقل أحدهما في غير هذا الموضع لمجرد الأضبطة غير بُين؛ إذ أن الأضبطة وإن كانت مورثةً للظن، إلا أنها بمجردتها ليست حجة معتبرة. ثم إن له لو لم يختلف نقل الصحّحة، وكان بهذا النحو (وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ مَالٌ صَامَ عَنْهُ وَلِيَهُ) فلا يمكن الجمع بينه وبين المستفيض الدال على تعين الصوم بأن يقييد إطلاقه ويحمل على فرض عدم التمكّن من التصدق عن الميت؛ لأنّه حمل على الفرد النادر جدًا، لبعد فرض ميت لا مال له يتصدق به عنه، ولو لم يكن إلا ثياب بدنها. نعم بعد كلّ هذا، وبعد وهن المصير إلى الجمع الواوي بينهما؛ إذ لم يعرف قائلٌ به، وإن كان ذلك مقتضى الصناعة، حيث إنّا لا نقطع بكون المطلوب واحداً، فالمتّجه هو حمل الطائفة الأولى المستفيضة الدالة بإطلاقها على تعين القضاء عن الميت (حملها) على ذكر أحد فردي الوجوب التخييري؛ وذلك لدلالة معتبرة ابن بزيع على التخيير بين الصوم والتصدق عن الميت فيما إذا كان عليه صوم واجب، والنتيجة هي كون الولي مخيراً بين القضاء والصدقة عن ميته، ولا يرد عليه ما سبق على الجمع بين المستفيضة وصحّحة أبي مريم بالواو؛ فإن التخيير قولٌ للشيخ قدّش في الميسوط^(١٥)، والاقتصاد^(١٦)، والمجمّل^(١٧):

وأماماً قوله عليه السلام في صحيفة أبي مريم (إِنْ صَحَّ ثُمَّ مَرِضَ ثُمَّ مَاتَ وَكَانَ لَهُ مَالٌ تُصْدِقَ عَنْهُ مَكَانٌ كُلُّ يَوْمٍ بِمُدْ) - وهذا المقطع غير معارض - فلا يمكن الجماع بينه وبين المستفيضة، وإن كان أخصّ منها، بحملها على فرض ما إذا لم يكن للميت مال؛ إذ أنه حمل للإطلاقات على الفرد النادر، وهو مستهجنٌ عرفاً. ثم إنّه لا تعارض بين هذا المقطع من صحيفة أبي مريم وبين معتبرة ابن بزيع فيما يخص الصدقة عنه؛ إذ أن منظور المقطع المذكور الصدقة عن الميت من ماله، بينما ظاهر المعتبرة كون الصدقة لا من ماله.

وأما ما ذكره أحد الأعظم قتيل من أنه لم يفرض في المعتبرة أن القاضي عن الميت وليه أو ولده، كي يكون السؤال عمّا يجب عليه، بل استظهار قتيل منها أن الميت رجل أجنبي، فالسؤال عن أمر استحبابي، وهو التبرّع عنه وأن أيّاً من التبرّعين والعبادتين المستحبّتين أفضل، هل الصيام عنه أو الصدقة؟^(١٨).

فيرد الشق الأول من كلامه إطلاق المعتبرة، بل أوضح أفراد هذا الإطلاق هوولي الميت، فهو المعنى بالصوم عنه. وأما استظهار كون الميت أجنبياً، فالسؤال وإن كان يشي بذلك، ولكنه لا يتتجاوز الإشعار، ولا يصل إلى حد الظهور، فلا يمكن أن يستفاد من المعتبرة أن السؤال عن أمر استحبابي، بل ظاهر السؤال فيها نظرها إلى مسألة تفريغ ذمة الميت لا إلى أمر الإحسان إليه، بقرينة قوله: (ولم يصم).

ثم إنه من المحتمل قريباً كون منشأ السؤال عن إجزاء الصدقة عن الميت المشغول الذمة بالصوم الواجب هو معروفيّة الإجزاء لدى العامة^(١٩)، فالسؤال عنه لا عن التبرّع.

وأما ما أورده قتيل على سندها من أن طريق الصدوق عليه إلى ابن بزيع وإن كان صحيحاً، إلا أنه لا يعم مطلق الرواية عنه ولو لم يسندها إليه، كما هو الحال في

هذه الرواية؛ إذ أوردها الصدوق عليه السلام بقوله: (وَرُوِيَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ بَزِيعٍ)، وقد علل قتيل إيراده بقوله قتيل: (إذ لا يكاد يساعدك التعبير في المشيخة بقوله: فقد روته عن فلان كما لا يخفى، فهو ملحق بالمرسل)، فالقدر المتيقن إرادته من قوله عليه السلام في مشيخة الفقيه: (وما كان فيه عن محمد بن إسماعيل بن بزييع فقد روته عن..) هو ما يرويه بنفسه عنه، بأن يقول مثلاً: (روى ابن بزييع)^(٢٠).

فيرد عليه بأن التعبير بـ(فقد روته عن فلان) أجنبيٌّ عما نحن بصدده، كما لا يخفى، وأن قوله عليه السلام: (وما كان فيه عن محمد بن إسماعيل بن بزييع) شاملٌ لطلق الرواية عنه، ولو لم يسندها إليه. ثم إن في بعض نسخ الفقيه: (وروى محمد بن إسماعيل بن بزييع..)^(٢١).

فالملتحصل إن رواية ابن بزييع تامة سندًا ودلالة على التخيير بين الصوم والصدقة عن الميت إذا كان عليه صوم، وافقاً للشيخ قتيل في جملة من كتبه، كما عرفت، ولأحد أعلام العصر دام ظله^(٢٢).

(٢) في تحديد ولي الميت الذي يقضى عنه صلاته وصومه

الشهر شهرة عظيمة -على ما في بعض الكلمات^(٢٣)- أن المراد به الولد الأكبر، ولكن الخلاف قائم رغم عظم الشهرة، وعلى كل تقدير فالرجوع هو روایات الباب، وهي كالتالي:-

الأولى: صحيح حفص بن البختري عن أبي عبد الله عليه السلام في الرجل يموت وعليه صلاة أو صيام، قال: يقضى عنه أولى الناس بميراثه، قلت: فإن كان أولى الناس به امرأة، فقال: لا إلا الرجال^(٢٤).

الثانية: مكتبة الصفار عليه السلام - التي رواها المحمدون الثلاثة (قدّست أسرارهم) - قال

كَتَبْتُ إِلَى الْأَخِيرِ عَلَيْهِ رَجُلٌ مَاتَ وَعَلَيْهِ قَضَاءٌ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ عَشَرَةً أَيَّامًا، وَكَهُوكِيلَيَانِ، هَلْ يَجُوزُ لَهُمَا أَنْ يَقْضِيَا عَنْهُ جَمِيعاً حَمْسَةً أَيَّامٍ أَحَدُ الْوَلِيَّينِ وَحَمْسَةً أَيَّامٍ الْآخَرُ؟ فَوَقَعَ عَلَيْهِ: يَقْضِي عَنْهُ أَكْبَرُ وَلَيْهِ عَشَرَةً أَيَّامٍ وَلَاءً إِنْ شَاءَ اللَّهُ^(٢٥). قَالَ الصَّدُوقُ: وَهَذَا التَّوْقِيقُ عِنْدِي مَعَ تَوْقِيمَاتِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الصَّفَارِ بِخَطِّهِ عَلَيْهِ^(٢٦).

فبضم تلك الصحيحة التي مفادها أنه يقضي عنه أولى الرجال بميراثه إلى هذه المكاتبة نستخلص هذه النتيجة، وهي أن الذي يجب عليه القضاء عن الميت ليس مطلق الولي، وإنما هو خصوص الولي الأكبر، وفي جميع طبقات الميراث؛ لظهور صدر الصحيحة في أن الذي يجب عليه قضاء ما فات الميت هو الأولى به ميراثاً، وهي ظاهرة أيضاً في أن الأولى به ميراثاً من يرثه مطلقاً بلا فرق بين كونه ولداً أو أباً أو أخاً أو غير ذلك، سيما عند ضم الذيل (لا إلا الرجال)، نعم بضم هذا الذيل إلى الصدر تخرج المرأة فيما إذا كانت هي ولية الميت.

وأما القول بأن خصوص الولد الأكبر هو الولي؛ لأن الأولى بميراث الميت من جميع البشر، حتى ممن هو في طبقته في الإرث، كالآباءين؛ فإن لكل واحداً منهم السادس، وكالبنات؛ لأن للذكر مثل حظ الأنثيين، وكسائر الأولاد الذكور؛ لمكان اختصاص الأكبر بالمحبوبة، بناءً على ما هو الصحيح من عدم احتسابها من الإرث، فهو الأوفر نصيباً من الكل، ولأجله كان هو الأولى بميراث من جميع الناس بتمام معنى الكلمة^(٢٧). كما عن السيد الخوئي نقش في المستند.

ففيه أولاً: أن الأولى بميراث أعم من الولد الأكبر؛ إذ المراد به من له الميراث مطلقاً على ما هو ظاهر الصحيحة كما تقدم، فمع عدمه وعدم مطلق البنين والبنات والأباءين يكون الأولى به هم الطبقة الثانية، خصوصاً إذا لاحظنا جواب الذيل (لا إلا الرجال)، فإنه لو كان منحصراً فيه لقال مثلاً: (لا إلا الرجل)، ويؤيد ذلك ما عن

أحد الأعظم قيئلاً من أن إرادة الولد الأكبر من التعبير بالأولى ميراثاً عدولً عن التعبير بالولد الأكبر بلا وجه ظاهر^(٢٨).

وأما ثانياً: فالولد الكبر على فرض تسليم كونه أولى من الآبوبين والبنات - على ما مرّ - لكنه ليس أولى من سائر الأولاد بالميراث، وإنما هو أولى منهم بالحبوة، وهي خارجة عن الميراث، كما اعترف بذلك نفس السيد الحنوي قيئلاً، نعم الظاهر أن المراد بالميراث الميراث العرفي، وهو التركة، لا الميراث الاصطلاحى، وبموجب ذلك سيكون الولد الأكبر هو الأولى والأوفر ميراثاً من سائر الأولاد، هذا وقد يكون نصيب الآبوبين أوفر من نصيب الولد الأكبر وإن أخذ الحبوة، وذلك في فرض كون الأولاد كثرين، فإن لكل من الآبوبين أو الأب خاصة السدس موفرأً، ويقتسم الأولاد الباقي للذكر مثل حظ الأنثيين، ولا يكون نصيب الولد الأكبر مع الحبوة بقدر السدس، فيكون الأب أولى بالميراث منه؛ لكونه الأوفر ميراثاً.

الرواية الثالثة: موثقة أبي بصير قال: سألتُ أبا عبد الله عَلَيْهِ الْكَلَمُ عَنْ رَجُلٍ سَافَرَ في شهر رمضان، فأدركه الموتُ قبلَ أَنْ يَقْضِيهُ، قال: يَقْضِيهِ أَفْضَلُ أَهْلِ بَيْتِهِ^(٢٩).
وهي غير قابلة للحمل على الأفضل ميراثاً بلحاظ الحباء؛ إذ هو خلاف الظاهر بلا قرينة عليه^(٣٠)، ولكن يمكن أن يكون المراد منها مطلق الأفضل في الكمالات المعنوية، فلا بدّ من حمله على رجحان اختياره للقضاء؛ لأن عباداته أقرب إلى القبول من غيره^(٣١)، وإنما يتحتم حمله على رجحان اختيار الأفضل معنوياً للقضاء؛ لأنّا لا نتحمل أن يتبعن الأفضل معنوياً للقضاء عن الميت، فتغدو الموثقة أجنبية عمّا نحن بصدده من الحكم الإلزامي بقضاء صلاة وصوم الميت في عهدة بعض أوليائه، على أن النسبة بين الأفضل معنوياً وبين الولد الأكبر هي العموم من وجه، خصوصاً

وأن مورد الموثقة من لم يتنجز عليه وجوب القضاء في حياته.
وأما بقية روايات الباب فكلّها ضعاف إما بالإرسال أو بضعف أو مجهولية من في طرقها.

فالمتحصل أن الذي يجب عليه قضاء ما فات الميت من صلاته وصومه هو أولى الناس بميراثه من الذكور، فإن تعدد الأولى بميراثه من الذكور فالذى يلزمته القضاء هو أكبرهم سنًا، ولا يختص بالولد الأكبر، ولا يختص الميت الذي يجب القضاء عنه بالأبوين.

وقد فرغت من كتابة هذه السطور في أحد أيام سنة ١٤١٤هـ وقد اطلعت في ٨ من ربيع المولود سنة ١٤٢٦هـ على من يتبنّى نفس هذه النتيجة، قال الشيخ علي بن الشيخ باقر بن الشيخ محمد حسن الجواهري قائلًا في تعليقه على قول السيد قيثار في العروة: "والمراد به الولد الأكبر، فلا يجب على البنت وإن لم يكن هناك ولد ذكر، ولا على غير الأكبر من الذكور، ولا على غير الولد من الأب والأخ والعم والخال ونحوهم من الأقارب، وإن كان الأح祸ط مع فقد الولد الأكبر قضاء المذكورين على ترتيب الطبقات وأح祸ط منه قضاء الأكبر فالأخير من الذكور، ثم الإناث في كل طبقة حتى الزوجين والمعتق وضامن العبريرة" قال: - عند قوله: (وإن كان الأح祸ط مع فقد الولد الأكبر قضاء المذكورين على ترتيب الطبقات) - "بل لا يخلو عن قوة في الذكور" ^(٣٢).

وقال الشيخ الأمين قائلًا: "المأساة ٩٧٧: ولِيَ الْمَيْتُ الَّذِي يُجْبِي عَلَيْهِ قَضَاءً مَا فَاتَهُ مِنْ صَلَاتَهُ هُوَ أَوْلَى النَّاسِ بِمِيراثِهِ مِنَ الذُّكُورِ، فَإِذَا تَعَدَّ الذُّكُورُ الَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِالْمَيْتِ وَبِمِيراثِهِ، فَالْأَوْلَى هُوَ أَكْبَرُهُمْ سِنًا، وَلَا يَخْتَصُ الْوَلَدُ الْأَكْبَرُ عَلَى الْأَقْوَى، وَلَا يَخْتَصُ الْمَيْتُ الَّذِي يُجْبِي قَضَاءً مَا فَاتَهُ بِالْأَبْوَابِ" ^(٣٣).

والحمد لله أولاً وآخرأ، وصلى الله على محمد وآلـه.

المواهـش:

- (١) الخلاف ٢: ٢٠٨، السرائر ١: ٣٩٥.
- (٢) منتهى المطلب ٢: ٦٠٤.
- (٣) حكاه عنه في المختلف: ٢٤١.
- (٤) جواهر الكلام ١٧: ٣٩.
- (٥) السرائر ١: ٤٠٨ - ٤٠٩.
- (٦) الانتصار: ٧١.
- (٧) رياض المسائل ٥: ٤٣٨، مستمسك العروة الوثقى ٨: ٥٠٨.
- (٨) وسائل الشيعة ١٠: ٣٢٩ - ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٢.
- (٩) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٣.
- (١٠) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٠ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٤.
- (١١) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣١ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٥.
- (١٢) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٢ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ١١.
- (١٣) وسائل الشيعة ١٠: ٣٣٢ ب ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح ٧.
- (١٤) من لا يحضره الفقيه ٣: ٣٧٦ ح ٤٣٢٢، وعنـه في الـوـافـي ١١: ٣٤٩ - ٣٥٠ ب ٥٥ من مات وفاته صيام ح ١٠، جامـعـ أحـادـيـثـ الشـيـعـةـ ٩: ٣٤٨ ب ٢٤ من أبوابـ منـ يـجـبـ عـلـيـهـ الصـومـ حـ ١٢ـ .
- (١٥) المبسوط ١: ٢٨٦.
- (١٦) الاقتصاد الـهـادـيـ إلىـ طـرـيقـ الرـشـادـ: ٢٩٤.
- (١٧) الجمل والعقود: ٢٢٠.
- (١٨) مستند العروة الوثقى (كـ الصـومـ)= موسوعـ الإمامـ الحـوـئـيـ قـيـثـ ٢٢ـ: ٢٠٧ـ .
- (١٩) قال ابن قدامة في المغني (٨٢: ٣): "الحال الثاني) أن يموت بعد إمكان القضاء فالواجب أن يُطعم عنه لكل يوم مسكين، وهذا قول أكثر أهل العلم، روي ذلك عن عائشة وابن عباس، وبه

قال مالك والليث والأوزاعي والشوري والشافعي والخررجي وابن علية وأبو عبيد في الصحيح عنهم ، وفي فقه السنة للشيخ سيد سابق (١) : "فإن مات وعليه صيام وكان قد تمكن من صيامه قبل موته فقد اختلف الفقهاء في حكمه، فذهب جمهور العلماء، منهم أبو حنيفة ومالك والمشهور عن الشافعي إلى أن وليه لا يصوم عنه ويطعم عنه مداراً عن كل يوم".

(٢٠) مستند العروة الوثقى (ك الصوم)= موسوعة الإمام الخوئي ت٢٢: ٢٠٦.

(٢١) جامع أحاديث الشيعة: ٩: ٣٤٨ بـ ٢٤ من أبواب من يجب عليه الصوم..ح١٢، وهي التي اعتمدتها، وجعل الأخرى نسخة.

(٢٢) وهو سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني دام ظله، لاحظ تعليقته على العروة: ٤٦٦ - ٤٦٧ ح٢٣٨.

(٢٣) مستند العروة الوثقى (ك الصوم)= موسوعة الإمام الخوئي ٢٢: ٢١٥.

(٢٤) وسائل الشيعة: ١٠: ٣٣٠ - ٣٣١ بـ ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح٥.

(٢٥) وسائل الشيعة: ١٠: ٣٣٠ بـ ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح٣.

(٢٦) من لا يحضره الفقيه: ٢: ١٥٤.

(٢٧) مستند العروة الوثقى (ك الصوم)= موسوعة الإمام الخوئي ٢٢: ٢١٥.

(٢٨) السيد الحكيم ت٢٣ في مستمسك العروة الوثقى: ٧: ١٤٣.

(٢٩) وسائل الشيعة: ١٠: ٣٣٢ بـ ٢٣ من أبواب أحكام شهر رمضان ح١١.

(٣٠) مستمسك العروة الوثقى: ٧: ١٤٣.

(٣١) مهذب الأحكام: ٧: ٣٧١.

(٣٢) العروة الوثقى: ٣: ١٠٢ - طبعة جماعة المدرسين مع تعليقات جمع من الأعلام (قدّست أسرارهم).-

(٣٣) كلمة التقوى: ١: ٥٥٦.

تعريف... دار السيدة رقية عليها السلام

للقرآن الكريم

بـ بسم الله الرحمن الرحيم، قال تعالى: **﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّٰتِي هِيَ أَفْوَمُ﴾**. وفي الحديث الشريف: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه».

بداية نشأة الدار ومراحل تطورها

دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم هي دار أنشأت لتعليم القرآن وعلومه من تحويド وترتيل وحفظ، مع معرفة القراءات القرآنية السبعة المشهورة. وكذلك نشر الثقافة القرآنية على صعيد الفرد والأسرة وكذلك تخريج أساتذة لهم المكانة المرموقة في تعليم وتدریس وحفظ القرآن.

وقد تسمّت الدار باسم صغيرة الحسين السيدة رقية عليها السلام؛ لأنّ بدايات الدار كانت لصغار الحالية حيث كانوا يخرجون في مواكب العزاء، ثم بعد ذلك ضمت طلبة العلم من الحالية المقيمين في الجمهورية الإسلامية، ثم امتدت الفكرة لتأسيس دار تحضن هؤلاء النساء من أبناء الحالية وغيرهم لتربيتهم وتعليمهم مفاهيم القرآن وعلومه فكانت النتيجة المرجوة والشمرة الكريمة لهذه الفكرة هي نشوء دار السيدة رقية عليها السلام للقرآن الكريم حيث كانت الجهود المنشودة تتواتي لتأسيس الدار في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة لسنة ١٤٢٧ هـ الموافق لـ ٢٠١٣ مـ عيد الغدير الأغر.

السياسة العامة

تنتهج الدار في نشاطاتها السياسة التالية:

- أولاً: الالتزام بمبادئ القرآن الكريم وأحكامه وتعاليمه وآدابه.
- ثانياً: اعتماد منهج أهل البيت عليهما السلام في طرح علوم القرآن ومفاهيمه.
- ثالثاً: التعاون والاستفادة من الخبرات والتجارب في انتقاء المعلومة.

أهداف الدار

تبنت دار السيدة رقية عليهما السلام للقرآن الكريم من بدء نشوئها على أهداف وهي الاهتمام بإعداد جيل قرآني لكل المستويات سواء طلاب علم أم غيرهم خصوصاً بالأطفال والنشء الصغار وتربيتهم تربية إسلامية قرآنية تقوم على حب محمد وآله عليهما السلام لأنهم جيل المستقبل وبهم يسير الركب لكل الأمم.

وهذا الشرط الأساس الذي حث أبناء الجالية لربط أبنائهم بهذه الدار الكريمة مما أعطاهم حافزاً كبيراً لاستمداد الخبرات من الأساتذة والحافظ الكبار على الصعيد العالمي.

وبذلك ساهمت الدار في تعريف طلابها كيفية القراءة الصحيحة للقرآن الكريم.

وبهذه المساهمة الفاعلة من الدار قد أعطت لأبناء الجالية أنّ لأنّ أبنائهم مستقبلاً زاهراً في متابعة التعليم والحفظ وأن يكونوا أساتذة يُحتذى بهم على الصعيد الديني والدنيوي بحيث يكونوا قراءً ومحظين وحافظاً.

إنجازات الدار

إنّ أهم الإنجازات التي حققتها دار السيدة رقية عليهما السلام على قصر الفترة التي تأسست فيها فهي على عدة نقاط:

أ- تخرّج الأساتذة: قد ساهمت دار السيدة رقية عليهما السلام في تخرّج ثلّة من الطلاب القراء حيث كانوا النواة الأولى للدار وهم الآن أساتذة كبار في تعليم القرآن وقد

شاركوا مشاركة فاعلة في فتح دورات قرآنية في البلاد بالخصوص وكذلك لهم مشاركات في العراق والكويت.

بـ- المشاركة في المسابقات القرآنية: حيث كان للدار النصيب الأوفر من المشاركات القرآنية ونيل الجوائز المتقدمة في هذه المسابقات وكان آخرها في المسابقة التي نظمتها جامعة المصطفى عليه وآلله العالمة وبمشاركة أكثر من أربعين دولة، ففي شؤون الناشئين في التلاوة والحفظ قد نال أشبال الدار الجوائز الأولى في هذه المسابقة.

كذلك حازت الدار على المركز الثالث في نفس المسابقة بإصدارها حلقات تعليمية في أساليب حفظ القرآن الكريم تحت إشراف الأستاذ الشيخ مصطفى الطائي على شكل قرص فلزي علمًاً أن بعض القنوات الفضائية عرضت هذه الحلقات ونالت إعجاب المشاهدين.

وإذ لا بد لكل فضل من شكر فإن دار السيدة رقية عليه للقرآن الكريم - بعد شكر الله عز وجله - تهدي بالغ الشكر والامتنان إلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ مهدوي مهر نائب رئيس جامعة المصطفى العالمية على ما قدمه ويقدمه من تذليل الصعاب لطلاب الدار وإداريتها.

وكذلك جزيل الشكر والعرفان إلى سماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ الشاكري رئيس قسم العوائل والطلاب في جامعة المصطفى العالمية والعضو الاستشاري في دار السيدة رقية عليه والذى ببركته وجهوده ورعايته الخاصة وصلت الدار إلى ما هي عليه ومن تلك الرعاية ما تم الاتفاق عليه بتصديق الوثائق والشهادات التي تصدر عن الدار من قبل جامعة المصطفى عليه العالمة قسم العوائل والطلاب، وغيرها من الأمور التي تم الاتفاق عليها، كما لا ننسى العضو الآخر في

الهيئة الاستشارية صاحب الأيدي البيضاء القارئ والحكم الدولي الحاج فلاح كسمائي.

وكذلك نشكر الأساتذة والحفاظ على ما بذلوه من وقت وجهد لارتقاء الطلاب بالمستوى التميز على الصعيد القرآني.

ج - كتاب حلية القرآن الكريم: إنّ أهم إنجازات الدار من حيث النشر فقد قامت الدار بطباعة كتاب حلية القرآن الكريم الذي يعدّ من الكتب الدراسية والتعليمية وقد نال إعجاب كثير من الأساتذة والقراء.

وقد انتخب الكتاب للتدريس لبعض المناهج الدراسية، لأنّه قد كتب بأسلوب سهل وسلس مع تطبيق لكثير من مواده، وخاصة عند عرض الكتاب للمقامات القرآنية.

د - جلب ثلة مؤمنة بالقرآن الكريم: حيث قامت الدار بالتنسيق مع الإخوة العاملين في البلاد بجلب ثلة مهتمة بالقرآن الكريم وعلومه وخاصة من منطقة الأحساء وكان هذا الحدث الكبير الذي تنظمه الدار حيث قدمت لهم الدار أحسن الأساتذة في التجويد والترتيل مع إجراء الدروس المكثفة والمميزة مع النشاطات الترفيهية والخدمية التي قدمتها لهم.

نشاطات الدار

دار السيدة رقية عليها السلام لها عدة نشاطات وعلى أكثر من صعيد، فمنها:

١ - دروس في الحفظ والتجويد والتلاوة والقراءات؛ وذلك اعتماداً على أمهر الأساتذة الدوليين.

٢ - إعداد مناهج دراسية في أساليب الحفظ والتجويد والمقامات (الصوت

واللحن) بإشراف لجنة مختصة من قبل أستاذة دوليين.

٣- إقامة دورات تأهيلية لإعداد المعلمين للقرآن الكريم؛ وذلك بتدریسهم على

فن التدريس وكيفية التعامل مع الطلاب على اختلاف أعمارهم ومستوى استيعابهم، وذلك في عدة مجالات:

أ- التجويد (المبسط - المتوسط - الاستدلالي).

ب- المقامات (الصوت - اللحن).

ج- تاريخ القراءات.

د- القراءات السبع.

هـ- أساليب الحفظ.

٤- إقامة الأمسيات والجلسات القرآنية والمناسبات المهمة كحفل الغدير الذي

تتشرف الدار بإقامته سنويًا؛ والذي يحضره ثلاثة من العلماء والمهتمين بالجانب القرآني.

٥- دورات مكثفة في قم والبلاد والتي زادت على ١٥ دورة.

٦- تأسيس فرقة للتواشيح الدينية.

٧- إنشاء موقع الكتروني متخصص في القرآن الكريم بالإضافة إلى عرض نشاطات الدار.

الخطط المستقبلية

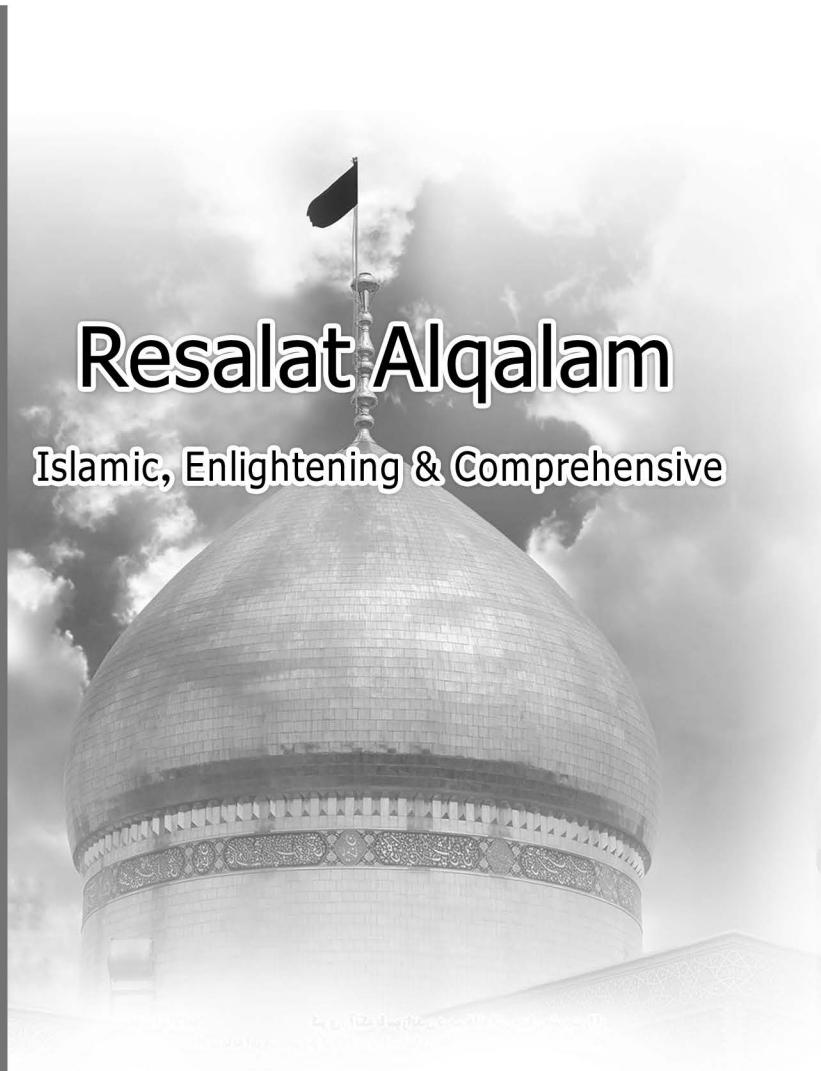
١- إن دار السيدة رقية عائلاً للقرآن تأخذ بكل ما هو مثير لتطوير حركتها التعليمية في علوم القرآن وفنون قرائته، فهي تطور عملها من خلال أحدث العلوم التقنية للحفظ وغيره وتحلم لما يسهل للطالب الراحة في ممارسته للقراءة والتجويد.

- ٢- دراسة القرآن الكريم بقراءاته المشهورة بإشراف أستاذة هم الباع الطويل في هذه الدراسة وأخذ الشمرة المرجوة لدراسة تلك القراءات.
- ٣- تكين بلادنا يجعلها ذات اكتفاء ذاتي لأستاذة القرآن الكريم على جميع المستويات.
- ٤- إيجاد دروس مكثفة في علم التفسير بجميع نواحيه.
- ٥- إعداد دروس خاصة لذوي الاحتياجات الخاصة (الصم والبكم).
وختاماً نشكر الله على هذه النعمة التي أنعم علينا بأن نكون من تشرف بخدمة القرآن الكريم.

دار السيدة رقية عليها السلام



- General Supervisor & Executive Manager:
Abdulla Ali Al daqaq
- Editor in Chief:
Aziz Hassan Salman
- Managing Editor:
Abdulraoof Hassan Alrabia
- Publishing Committee:
Ghazi Abdulhassan
hussain ali abu rwais
mohammed ali khatam



Resalat Alqalam

Islamic, Enlightening & Comprehensive

A Periodical Magazine Issued by the
Bahraini Students
of the Educational Hawza the
Holy City of Qom